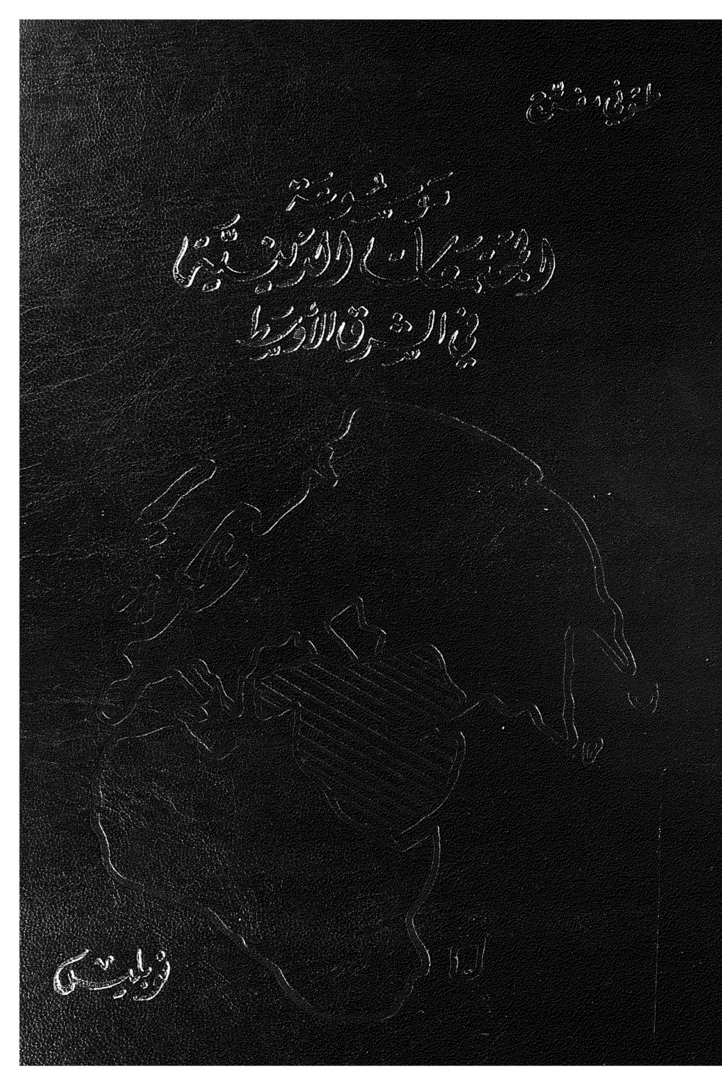

موسوعة
الحضارات القديمة
في الشرق الأوسط
نوبليس



موسوعة المجتمعات الدينية
في الشرق الأوسط

نوبيليس
الأشرفيّة – بيروت – لبنان

الطبعة الثانية ٢٠٠٣

طوني مفرج

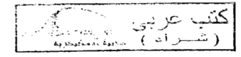
موسوعة

المجتمعات الدينية في الشرق الاوسط



المجلد الرابع

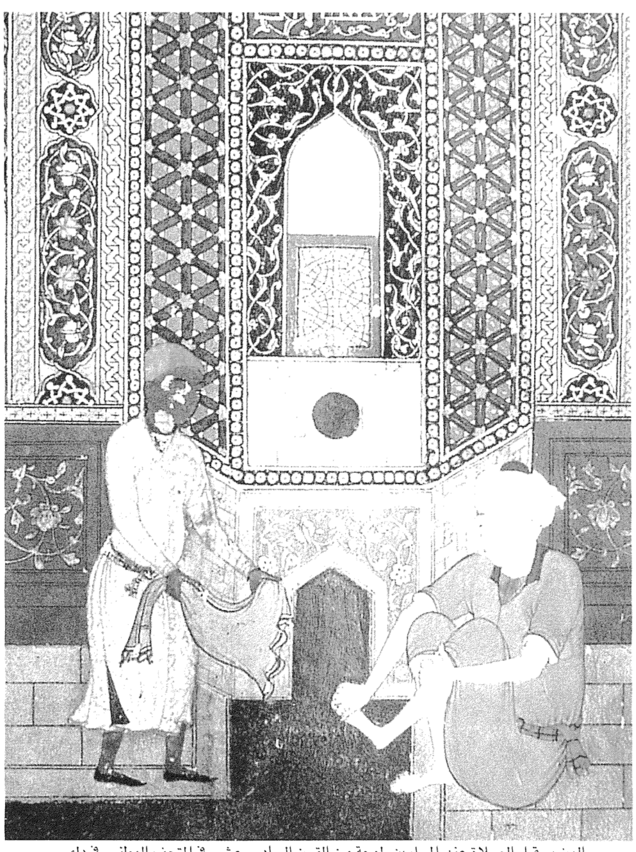
السنة



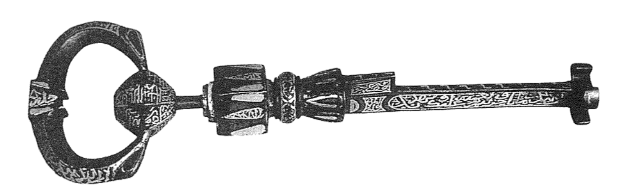




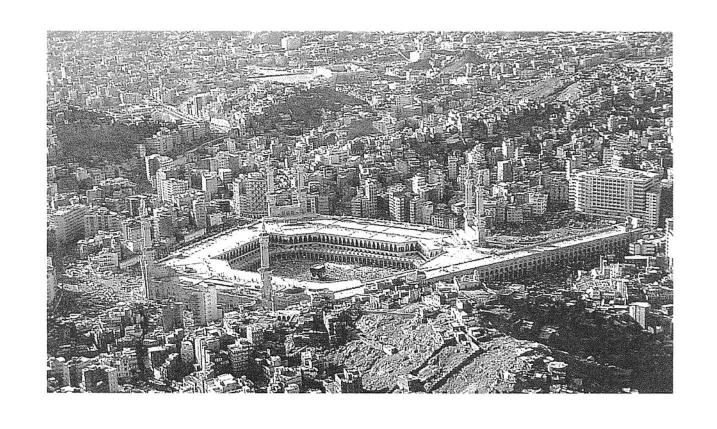
المسلمون في الجهاد المقدس، لوحة من القرن الثالث عشر في المكتبة الوطنية بباريس - فرنسا



الوضوء قبل الصلاة عند المسلمين، لوحة من القرن السادس عشر في المتحف الوطني في دلهي



الكعبة المكرمة ومفتاحها



مكة المكرمة في المملكة العربية السعودية حيث يتوافد الحجاج كل سنة متقاطرين من الدول الاسلامية كافة

محتوى المجلد الرابع

المجلد الرابع: السنّة.

الفصل الأول: محمّد.

الفصل الثاني: الخلفاء الراشدون قبل عليّ.

الفصل الثالث: عليّ والانقسام.

الفصل الرابع: نشوء الطوائف في الإسلام.

الفصل الخامس: من عهود الخلافة إلى نظام الدول.

الفصل السادس: أهل السنّة اليوم.



الفصل الأوّل

محمّد

- مولد الرسول ونشأته
- المبعث
- مهاجرة الحبشة
- الهجرة إلى المدينة
- وقعة بدر
- وقعة أحُد
- وقعة الخندق
- الحديبة وفتح مكة
- وقعات اليهود
- غزوات الرسول

مولد الرسول ونشأته

كان مولد النبيّ العربي، محمّد، في العام ٥٧٠م. في مكّة، من آمنة، زوجة عبد الله بن عبد المُطّلب، من بطن هاشم، من قبيلة قريش «من العرب المستعربة، ويُسمّون العدنانيّين، والنزاريّين والحجازيّين والإسماعيليّين. فينتهي نسبهم إلى إسماعيل الذي أنزله أبوه إبراهيم بمكان الكعبة طفلاً، وتركه وأمّه هاجر هناك[١]».

لقد كان مولد هذا الطفل أحد أهم أحداث التاريخ. لأنّه سيصبح النبيّ، الذي غيّر مجرى التاريخ في الشرق الأدنى، وكاد أن يغيّره في العالم أجمع. ومن يطالع مراحل رسالة النبيّ العربيّ، لا يستطيع إلاّ أن يرى فيها ما لا يمكن اعتباره إلاّ معجزة. وما يجب أن يُلحظ قبل ذلك، أنّ حوالى نصف مليار من الناس اليوم، ينتمون إلى جميع الأعراق البشريّة، ويتكلّمون عدداً كبيراً من اللغات، ويسيطرون على معظم المنطقة الواقعة بين بلاد المغرب ونايجيرية غرباً، إلى أندونيسية وماليزية شرقاً، هم من أتباع النبيّ العربيّ. ويذكر بعض مؤرّخي الإسلام حصول بعض الخوارق عند ولادة النبيّ، منها أنّ «رجلاً من أهل الكتاب جاء إلى جماعة من قريش يوم ولادة محمّد، كان من بينهم هشام بن المغيرة والوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة، فقال: «وُلد لكم الليلة مولود» فقالوا: «لا». قال: «أخطأكم والله معشر قريش، فقد وُلد إذاً بفلسطين غلام اسمه أحمد، به شامة كلون الحرّ الأدكن، يكون به هلاك أهل الكتاب». وقبل أن يبتعدوا عن المكان، قيل لهم إنّه وُلد لعبد الله بن عبد المطّلب الليلة غلام. فمضى الرجل قاصداً الطفل، ولّما نظر إليه قال: «هو والله هو! ويل أهل الكتاب منه». فلمّا رأى سرور قريش بما سمعت منه قال: «والله ليسطوَنّ بكم سطوة يتحدّث بها أهل المشرق والمغرب[٢]».

---

١ - سمير عبد الرزاق القطب، انساب العرب، نشر دار مكتبة الحياة (بيروت ١٩٦٨) ص ٣٩ - ٤٠

٢ - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، طبعة دار الصادر ج ٢، ص ٩

ورُوي عن أمّه أنّها قالت: «رأيت لمّا وضعته نوراً بدا منّي ساطعاً حتّى أفزعني، ولم أرَ شيئاً مما يراه النساء». وروى بعضهم أنّها قالت: «سطع منّي النور حتّى رأيت قصور الشأم. ولمّا وقع إلى الأرض قبض قبضة من تراب ثمّ رفع رأسه إلى السماء[1]».

ويذكرون أنّ «أمّه لم تشعر قطّ في أحشائها حتّى ساعة مولده عندما جاء ملاك يبشّرها بمولود. وأنّ مرضعته شعرت بالحليب يملأ ثديَها الجافَ ساعة وضعته في حجرها. وقد رأى ابنها الذي كان يلعب معه خلف البيوت رجُلين عليهما ثياب بيض أضجعاه فشقّا بطنه، واستخرجا قلبه فشقّاه، واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها». وفي القرآن الكريم يخاطب الله تعالى نبيَّه قائلاً: «ألم نشرَح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك[2]» ـ سورة الشرح ١ : ٤.

وبشأن مرضعته، ثوَيبة، مولاة أبي لهب، وهي التي أرضعت حمزة بن عبد المطلّب وجعفر بن أبي طالب وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ، «قال رسول الله، بعدما بعثه الله: رأيت أبا لهب في النار يصيح العطش العطش، فيُسقى في نقر إبهامه. فقلت: بِمَ هذا؟ فقال: بعتقي ثويبة لأنّها أرضعتك[3]».

ويذكرون أنّه «لمّا وُلد رسول الله رُجمت الشياطين وانقضّت الكواكب. فلمّا رأت ذلك قريش، أنكرت انقضاضِ الكواكب وقالوا: ما هذا إلاّ لقيام الساعة. وأصابت الناس زلزلة عمّت جميع الدنيا حتى تهدّمت الكنائس والبيَع وزال كلّ شيء يُعبد دون الله، عزَّ وجل، عن موضعه. وعميت على السحرة والكهّان أمورهم وحُبست شياطينهم. وطلعت نجوم لم تُر قبل ذلك، فأنكرتها كهّان اليهود. وزلزل

---

١ ـ المرجع السابق، ج ٢، ص ٩

٢ ـ راجع: الدكتور فيليب حتّي، صانعو التاريخ العربي، نشر دار الثقافة (بيروت ١٩٦٩) ص ١٥ ـ ١٦

٣ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ٩

إيوان كسرى فسقطت منه ثلاث عشرة شرّافة. وخمدت نار فارس ولم تكن خمدت قبل ذلك بألف عام. ورأى عالم الفرس وحكيمهم، وهو الذي تسمّيه الفرس موبذان موبذ القيّم بشرائع دينهم، كأنَّ إبلا عرابا تقود خيلا صعاباً حتّى قطعت دجلة وانتشرت في البلاد. فراع ذلك كسرى أنوشروان وأفزعه، فوجّه إلى النعمان فقال: هل بقي من كهّان العرب أحد؟ قال نعم: سطيح الغسّانيّ بدمشق من أرض الشأم. قال: فجئني بشيخ من العرب له عقل ومعرفة أوجّهه إليه. فأتاه بعبد المسيح بن بقيلة، فوجّهه إليه. فخرج عليه عبد المسيح على جمل حتّى قدم دمشق. فسأل عنه فدلّ عليه وهو ينزل في باب الجابية، فوجده في آخر رمق. فنادى في أذنه بأعلى صوته:

أصمٌ أم تسمعُ غطْريفَ اليمن   يا فارج الكُربة أَعْيَتْ مَنْ وَمَنْ

وفاصلَ الخطبة في الأمر العَنَنْ   أتاك شيخُ الحيِّ من آل يَزَنْ

فقال: عبد المسيح، على جمل مشيح، نحو سطيح، حين أشفى على الضريح. بعثك ملك بني ساسان، بهدم الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان. رأى إبلا عراباً تقود خيلا صعابا حتّى قطعت دجلة وانتشرت في البلاد. يا ابن ذي يزن تكون هنة وهنات ويموت ملوك وملكات بعدد الشرّافات. إذا غاضت بحيرة ساوه وظهرت التلاوه بأرض تهامه وظهر صاحب الهراوه فليست الشأم لسطيح شاما. ثم فاضت روحه[1] ».

وذُكر أنَّه « لما خرج الفتى محمّد، وهو بعد في الثانية عشرة من عمره، مع عمّه أبي طالب إلى الشأم، نظر راهب مسيحيّ اسمهُ بُحَيرا إلى ظهره فرأى خاتم النبوّة بين كتفيه. وقد حيكت حول بحيرا أساطير إسلاميّة ومسيحيّة، من شأنها أن تعكس لنا شيئاً عن العلاقات القديمة بين الديانتين، وعن أثر المسيحيّة[2] ». وفي

---

١ - اليعقوبي، ج ٢، ص ٨
٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٦

رواية أنّ محمّدا زار دمشق، وأنّه تردّد عند دخوله باب المدينة قائلاً إنّه يريد دخول الجنّة مرّة لا مرّتين. ولكن من العسير أن نأخذ بهذه الرواية... إذ لا نجد في القرآن الكريم إشارة إليها. ويبقى القرآن الكريم، في إشاراته إلى حوادث وقعت في حياة محمّد، أفضل مصدر يوثق به في دراسة حياة النبيّ. علماً بأن أول سيرة لحياته جمعها ابن هشام الذي توفّي في مصر سنة ٨٣٣م. فكانت قد انقضت مدّة طويلة أُحيطت خلالها حياة النبيّ بهالة من أعمال وعجائب وصفات لم يقل بها النبيّ نفسه، ولا أشار إليها القرآن الكريم. وأمّا السيرة الثانية لحياته، فقد تضمّنها تاريخ الطبريّ الذي توفّي سنة ٩٢٣م. في بغداد. كما وضع أحمد بن واضح، المعروف باليعقوبيّ، نتفاً بارزة من سيرة النبيّ في تاريخه، وقد توفّي اليعقوبيّ سنة ٨٧٩م. وكان الواقدي، المتوفي سنة ٨٢٢م. قد كتب في مغازي النبيّ.

وكان أوّل من كتب عن النبيّ من البيزنطيّين، هو القدّيس ثيوفانس[١]، سنة ٨١٣. وقد كان محمّد في نظره «أمير العرب وحاكمهم ومدّعي النبوّة»، وقد رسخت هذه الصورة بأذهان الناس من غير المسلمين.

تختلف الروايات في زمن وفاة أبي محمّد، عبد الله بن عبد المطّلب. فعلى ما روى «جعفر بن محمّد، أنّه توفّي بعد شهرين من مولد النبيّ. وقال بعضهم إنّه توفّي قبل أن يولد»، إلاّ أنّ اليعقوبيّ يعتبر أن هذا القول الأخير غير صحيح، لأنّ «الإجماع على أنّه توفّي بعد مولده. وقال آخرون بعد سنة من مولده، وكانت وفاة عبد الله بالمدينة عند أخوال أبيه بني النجار في دار تُعرف بدار النابغة، وكانت سنّه يوم توفّي خمساً وعشرين سنة[٢]».

غير أنّ المؤرّخين المحدثين يعتبرون أنّ عبد الله قد «توفّي أثناء سفرة قام

---

١ - ثيوفانس، ويقرن اسمه بثيودورس. وهما قديسان نشآ في دير مار سابا بفلسطين. نفاهما لاون الارمني لتكريمهما الايقونات، فماتا في السجن: ثيودورس عام ٨٤٢، وثيوفانس عام ٨١٧، ولثيوفانس تاريخ قيّم عن القرون المسيحية الاولى.

٢ - راجع: اليعقوبي، ج ٢، ص ١٠

بها مع قافلة إلى سورية قبل أن يولد محمّد[1] ». وقد اعتبر المحقّقون المحدثون أنّ « عبد الله بن عبد المطلب، قد توفّي في العام ٥٧٠ وزوجته آمنة حامل بالنبيّ[2] ».

أمّا بشأن السيّدة آمنة، أمّ النبيّ، فيُجمع المؤرّخون على أنّها قد توفّيت يوم كان محمّد في السادسة من عمره، ولها ثلاثون سنة. وكانت وفاتها بموقع يقال له الأبواء، بين مكّة والمدينة. وكان جدّ النبيّ، عبد المطّلب، يكفله ويأويه، وكان يومئذ سيّد قريش.

وذُكر عن جدّ النبيّ، أنّه « كان رفض عبادة الأصنام، ووحَّد الله، ووفى بالنذر وسنّ سننا نزل القرآن، فيما بعد، بأكثرها، وجاءت السنّة من رسول الله بها، وهي: الوفاء بالنذور، ومائة من الإبل في الدّيّة، وألا تُنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المؤودة، والمباهلة، وتحريم الخمر، وتحريم الزناء، والحدّ عليه، والقرعة، وألاّ يطوف أحد بالبيت عرياناً، وإضافة الضيف، وألاّ ينفقوا إذا حجّوا إلاّ من طيّب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الرايات... ولمّا قدم صاحب الفيل خرجت قريش من الحرم فارّة من أصحاب الفيل، فقال عبد المطّلب: والله لا أخرج من حرم الله، وأبتغي العزّ في غيره... فكانت قريش تقول: عبد المطّلب إبراهيم الثاني... وكان لعبد المطّلب من الولد الذكور عشرة، ومن الإناث أربع: عبد الله أبو رسول الله، وأبو طالب وهو عبد مناف، والزُّبَير وهو أبو الطاهر، وعبد الكعبة وهو المقوّم، وأمّهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وهي أمّ حكيم البيضاء. وعائكة وبرّة وأروى وأميمة بنات عبد المطّلب، والحارث وهو أكبر ولد عبد المطّلب وبه كان يُكنَّى، وقثم، وأمّهما صفيّة بنت جندب بن حُجير بن زباب بن حبيب بن سوأة بن عامر ابن صعصعة، وحمزة وهو أبو يعلى أسد الله وأسد رسول الله، وأمّه هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة وهي أمّ صفيّة بنت عبد المطّلب، والعبّاس، وضرار،

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٤

٢ ـ راجع: المنجد في اللغة والاعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة ٢٢، ص ٤٥٢

أمّهما نتيلة بنت جناب بن كليب بن النمر بن قاسط، وأبو لهب وهو عبد العزى، وأمّه لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن ضاطر الخزاعيّ، والغيداق، وهو جحل وإنّما سُمِّيَ الغيداق لأنّه كان أجود قريش وأطعمهم للطعام، وأمّه ممنّعة بنت عمرو بن مالك بن نوفل الخزاعيّ، فهؤلاء أعمام النبيّ وعمّاته وكان لكلّ واحد من ولد عبد المطلب شرف وذكر وفضل وقدر ومجد[1] ...».

بعد سنتين من وفاة أمّ النبيّ، آمنة، توفّي جدّه عبد المطّلب، عن عمر يناهز المائة وعشرين سنة، وقيل مائة وأربعين، ولمحمّد ثماني سنوات... فاحتبى ابنه بفناء الكعبة، لما غيّب عبد المطّلب، واحتبى ابن جدعان التيميّ من ناحية، والوليد ابن ربيعة المخزوميّ، فادّعى كلّ واحد بالرئاسة. ورُوي عن رسول الله أنّه قال: «إنّ الله يبعث جدّي عبد المطّلب أمّة واحدة في هيئة الأنبياء وزيّ الملوك[2]».

بعد وفاة عبد المطّلب، كفل محمّداً عمّه أبو طالب. وكان أبو طالب، على الرغم من فقره، سيّداً شريفاً مُطاعاً مهيباً... وقد قال ابنه عليّ: أبي ساد فقيراً، وما ساد فقير قبله.

خرج أبو طالب بمحمّد إلى بصرى من أرض الشام، وهو ابن تسع سنين. وربّته فاطمة، بنت أسد بن هاشم امرأة أبي طالب وأمّ أولاده جميعاً. ويُروى عن النبيّ لمّا توفّيت، وكانت مسلمة فاضلة، أنّه قال: «اليوم ماتت أمّي». وكفّنها بقميصه ونزل على قبرها واضّجع في لحدها. فقيل له: يا رسول الله لقد اشتدّ جزعك على فاطمة. قال: «إنّها كانت أمّي، إنّها كانت لتُجيع صبيانها وتشبعني وتشعثهم وتدهنني... وكانت أميّ».

هنا، تبدأ فترة غامضة من حياة محمّد، ولا تنجلي أخباره قبل بلوغه العشرين من عمره.

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ١١
٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص، ١٣ ـ ١٤

ويروي الرواة أنّه لمّا بلغ العشرين، ظهرت فيه العلامات... «وجعل أصحاب الكتب يقولون فيه ويتذاكرون أمره ويتوصّفون حاله ويقربون ظهوره... فقال يوماً لأبي طالب: يا عمّ، إنّي أرى في المنام رجلاً يأتيني ومعه رجلان فيقولان: هو هو، وإذا بلغ فشأنك به، والرجل لا يتكلّم. فوصف أبو طالب ما قال لبعض من كان بمكّة من أهل العلم. فلمّا نظر إلى محمّد، قال: هذه الروح الطيّبة. هذا والله النبيّ المطهّر. فقال له أبو طالب: فاكتم على ابن أخي لا تُغرِ به قومه، فوالله إنّما قلت لعليّ ما قلت، ولقد أنبأني أبي، عبد المطّلب، بأنّه النبيّ المبعوث، وأمرني أن أستر ذلك لئلاّ يغري به الأعادي[1]».

كان الحدث الأول المؤثّر في استقرار حياة النبيّ، زواجه من خديجة، وهو في الخامسة والعشرين من عمره. وفيما ذكر بعض المؤرّخين أنّ خديجة كانت أرملة على جانب من الثراء، تنتمي نسباً إلى عشيرة محمّد، وكانت تكبره بخمس عشرة سنة، وكانت لها تجارة وقوافل، وكان محمّد يعمل عندها[2]، يسهب اليعقوبيّ في خبر هذا الحدث، فيذكر ما رواه بعضهم عن عمّار بن ياسر أنّه قال: «أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله خديجة بنت خويلد: كنت صديقاً له، فإنّا لنمشي يوماً بين الصفا والمروة، إذا بخديجة بنت خويلد وأختها هالة. فلما رأت رسول الله جاءتني هالة أختها فقالت: يا عمّار! ما لصاحبك حاجة في خديجة؟ قلت: والله ما أدري. فرجعت فذكرت ذلك له. فقال: إرجع فواضعها وعِدها يوماً نأتيها فيه، ففعلت. فلما كان ذلك اليوم أرسلتْ إلى عمرو بن أسد وسَقَتْه ذلك اليوم ودهنت لحيته بدهن أصفر، وطرحت عليه حبراً. ثمّ جاء رسول الله في نفر من أعمامه تقدّمهم أبو طالب فخطب أبو طالب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرّيّة إسماعيل وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكّام على الناس وبارك لنا في بلدنا الذي نحن به، ثمّ إنّ ابن أخي، محمّد بن عبد الله

---

١ - اليعقوبي، ج ٢، ص ١٤

٢ - راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٧

لا يوزن برجل من قريش إلاّ رُجّح، ولا يقاس باحد إلاّ عظم عنه، وإن كان في المال قلّ فإنّ المال رزقٌ حائلٌ وظلٌ زائل، وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة، وصدق ما سألتموه عاجله من مالي، وله والله خطب عظيم ونبأ شائع. فتزوّجها وانصرف. فلمّا أصبح عمّها عمرو بن أسد أنكر ما رأى، فقيل له: هذا ختنك محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب أهدى لك هذا. فقال: ومتى زوّجته؟ قيل له: بالأمس. قال: ما فعلت. قيل له: بلى، نشهد أنّك قد فعلت. فلمّا رأى عمرو رسول الله قال: إشهدوا أنّي إن لم أكن زوّجته بالأمس فقد زوّجته اليوم. وإنّه ما كان ممّا يقول الناس إنّها استأجرته بشيء، ولا كان أجيراً لأحد قطّ[1] ...».

المبعث

يومذاك، كانت مكّة قد أصبحت ملتقى الطرق التجاريّة التي كانت تربط بين اليمن، بلاد البخّور والأطايب، وبلاد الحبشة من جهة، وسورية وموانئها على البحر الأبيض المتوسّط والعراق من جهة ثانية. وكانت تجارة مكّة قد غيّرت المجتمع البدويّ إلى مجتمع تجاريّ متحضّر رأسماليّ. وكانت الهوّة الاقتصاديّة الاجتماعيّة بين الأغنياء والمعدمين تزداد اتّساعاً، فكان ولاء الناس يتغيّر، ومع هذا التغيّر راحت العصبيّة القبليّة تتلاشى في المجتمع المتحضّر.

وكان محمّد، بعد أن تزوّج بخديجة، قد انصرف إلى التأمّل الروحيّ، والعزلة. فكان يأوي إلى غاب حرّاء خارج مكّة. وبعد زمن طويل، ذات ليلة من ليالي أواخر رمضان سنة ٦١٠، بينما كان يتأمَّل، فجأة، سمع صوتاً يقول له: «إقرأ». فكأنَّه سأل: «ما أقرأ؟» ولكنّ الصوت أتاه ثانية يقول: «إقرأ وربّك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم[2]».

«وبعد فترة ليست بطويلة عاوده الصوت ثانية مثل صلصلة الأجراس».

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٠ ـ ٢١

٢ ـ سورة العلق، ٣ ـ ٥

أَسرع إذّاك محمّد إلى بيته وهو في حالة انفعال، وطلب إلى زوجته خديجة ان تدثّره، وهو في حالة اللاوعي، فسمع الصوت يقول: «يا أيّها المدثّر قُم فأنذر[1]».

هنا لم يعد يخامره أدنى شك في أنّ الصوت صوت ملاك من السماء، عرف في النهاية أنّه جبريل. فتسلّم النبيّ الرسالة، وقد كان اوّلَ من آمن به وقبِل دعوتَه زوجتُه خديجة.

حصل هذا عندما كان محمّد في سن الأربعين. ورُوي عن عمرو بن عبسة السلميّ أنّه قال: «أتيت بيت رسول الله أوّل ما بُعث وبلغني أمره فقلت: صف لي أمرك. فوصف لي أمره وما بعثه الله به. فقلت: هل يتبعك على هذا أحد؟ قال: نعم! امرأة وصبي وعبد. يريد: خديجة بنت خويلد وعليّ بن أبي طالب وزيد بن حارثة[2].

كان جوهر رسالة محمّد في بدايتها مقتضباً يمكن إيجازه ببضع كلمات: لا إله إلا الله وحده. هو الخالق والحيّ القيوم. ومحمّد رسوله. وهناك يوم حساب، والجنّة ثواب الذين يطيعون أوامره، وجهنّم عقاب الذين يعصون وصاياه. ولم يكن الله الذي تكلّم النبيّ بلسانه إلها غريباً عن أهل مكّة. والواقع أنّه كان إله الكعبة التي كانت تُعرف «ببيت الله» واسم أبيه عبد الله، يحتفظ باسم هذا الاله.

غير أن تعاليم محمّد الجديدة، تتضمّن أموراً اقتصاديّة واجتماعيّة وسياسيّة من شأنها أن تغيّر الأوضاع التي كان القرشيّون قد ألفوها. ولقد أدركوا خطورة ما تتضمّنه هذه التعاليم بالنسبة إلى مصالحهم الخاصّة. فهي قد تقوّض أسس الحجّ، وكان الحجّ بعد التجارة من موارد رزقهم الأوليّة. ذلك أنّ مكّة كانت أصلاً مدينة بوجودها إلى جوار بئر زمزم، الذي جعلت منها التقاليد بئراً مقدّسة فاضت مياهها

---

١ ـ سورة المدثّر، ١ ـ ٣

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣ ـ ٢٤

بأعجوبة لينجو إسماعيل وأمّه هاجر من الموت عطشا عندما ضلاّ الطريق في الصحراء، وصار إسماعيل أباً للعرب. وأعاد إبراهيم أبوه بناء البيت الحرام الذي هو الكعبة الآن، وسنّ للناس الحجّ إليه. وأصبحت البقعة التي بُني عليها البيت ملجأً مَن دخله كان آمناً، وكان جدّ محمّد قد أعاد حفر البئر ليوزّع ماءها على الحجّاج كسباً لعيشة. وتوراث بعض أبنائه، أعمام النبيّ، هذا المورد.

وكان القرشيّون ينظرون نظرة إكبار إلى تعاليم النبيّ، عن الكرم والعطاء، لانّ الكرم من الفضائل العربيّة، ولكن النظرة الدينيّة الجديدة إلى أن الإنسان مجرّد وكيل على ثروته وأملاكه، وأنّ للفقير حقّاً في هذا المال «والذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم[1]»، لم تكن بالنظرة التي تقبّلها الناس برضى. وإلى جانب هذا، فإنّ تعاليم النبيّ تُحلّ الإيمان محلّ النسَب كرابطة تربط الإنسان بأخيه: «إنّما المؤمنون إخوة[2]»، وهذا ما من شأنه أن يقوّض الأسس القديمة للعائلة، وللعصبيّة القبَليّة، ويحلّ محلّها الوحدة والرابطة الدينيّتين. وهكذا أدركت قريش أنه إذا حالف النصر الدينيّ رسالة النبيّ محمّد، فإنّه سينتصر أيضاً سياسياً، وبهذا يكون قد أَلحق بسلطتها بعض الإجحاف. من هنا كانت معارضتها الشديدة له تتصاعد يوماً بعد يوم[3].

وكان محمّد قد أقام بمكّة ثلاث سنوات يكتم أمره وهو يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، والإقرار بنبوّته. فكان إذا مرّ بملأ من قريش، قالوا: «إنّ فتى ابن عبد المطّلب لَيكلَّم من السماء»... حتّى عاب عليهم آلهتهم، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا كفّاراً.

ثم «أظهر رسول الله أمره، وأقام بالأبطح، فقال: ـ إنّي رسول الله أدعوكم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ، ولا تخلق ولا

---

١ ـ سورة المعارج، ٢٤ ـ ٢٥
٢ ـ سورة الحجرات، ١٠
٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٠

تَرزق، ولا تحيي ولا تميت ـ . فاستهزأت قريش، وآذته، وقالوا لأبي طالب: ـ إنّ ابن أخيك قد عاب آلهتنا وسفّه أحلامنا وضلّل أسلافنا، فليُمسك عن ذلك وليحكم في أموالنا بما يشاء ـ. فقال: ـ إنّ الله لم يبعثني لجمع الدنيا والرغبة فيها، وإنّما بعثني لأبلّغ عنه وأدلّ عليه ـ. ... فآذوه أشدّ الإيذاء، فكان المؤذون له، منهم أبو لهب، والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، وعديّ بن حمراء الثقفي، وعمرو بن الطلاطلة الخزاعيّ. وكان أبو لهب أشدّهم أذى له. وقد رُوي أنّ رسول الله قام بسوق عكاظ، عليه جبّة حمراء، فقال: ـ يا أيّها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا وتنجحوا ـ . وإذا رجل يتبعه له غديرتان كأنّ وجهه الذهب، وهو يقول: ـ يا أيّها الناس إنّ هذا ابن أخي، وهو كذّاب فاحذروه ـ . كان هذا أبو لهب، عمّ النبيّ. وكان المستهزئون به، العاص بن وائل السهميّ، والحارث بن قيس بن عديّ السهميّ، والأسود بن المطّلب بن أسد، والوليد بن المغيرة المخزوميّ، والأسود بن عبد يغوث الزهريّ. وكانوا يوكلون به صبيانهم وعبيدهم فيلقونه بما لا يُحبّ، حتّى إنّهم نحروا جزورا[1] ورسول الله قائم يصلّي، فأمروا غلاماً لهم فحمل السلى[2] والفرث[3] حتّى وضعه بين كتفيه وهو ساجد. فانصرف فأتى أبا طالب، فقال: ـ كيف موضعي فيكم؟ـ قال: ما ذاك يا ابن أخي؟ فأخبره ما صُنع به. فاقبل أبو طالب مشتملاً على السيف يتبعه غلام له، فامتشق سيفه وقال: ـ والله لا تكلّم رجل منكم إلاّ ضربته ـ . ثم أمر غلامه فأمرّ ذلك السلى والفرث على وجوههم واحداً واحداً. ثم قالوا: ـ حسبك هذا فينا يا ابن أخينا ـ . واجتمعت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: ـ ندعوك إلى نصفة. هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة أحسن قريش وجهاً وأكملهم هيئة، فخذه فصيّره ابنك وصيّر إلينا محمّداً نقتله ـ . فقال: ـ ما انصفتموني! أدفع اليكم ابني تقتلونه وتدفعون اليّ ابنكم أغذوه[4]! ـ .

---

١ ـ الجزور: ما يُجزر من النوق والغنم.

٢ ـ السلى: جلدة يكون فيها الولد في بطن امه

٣ ـ الفرث: الزبل ما دام في الكرش.

٤ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥

«وأُسري به، وأتاه جبريل بالبرّاق، وهو أصغر من البغل وأكبر من الحمار، مضطربَ الأذنين، خَطْوُهُ مدّ بصره له جناحان يحفُزانهِ من خلفه عليه سرج ياقوت، فمضى به إلى بيت المقدس فصلّى به ثمّ عرّج به إلى السماء، فكان بينه وبين ربّه كما قال الله: ـ قاب قوسين أو أدنى ـ. ثمّ هبط به فنزل في بيت أمّ هانئ بنت أبي طالب. فقصّ عليها القصّة، فقالت له: ـ بأبي أنت وأمّي، لا تذكر هذا لقريش فيكذّبوك ـ. وفي الليلة التي أُسري به افتقده أبو طالب، فخاف أن تكون قريش قد اغتالته أو قتلته، فجمع سبعين رجلاً من بني عبد المطّلب، معهم الشفار، وأمرهم أن يجلس كلّ رجل منهم إلى جانب رجل من قريش، وقال لهم: ـ إن رأيتموني ومحمّداً معي، فامسكوا حتى آتيكم وإلاّ فليقتل كلّ رجل منكم جليسه ولا تنتظروني ـ. فوجدوه على باب أمّ هانئ، فأتى به بين يديه حتّى وقف على قريش. فعرّفهم ما كان منه، فأَعظموا ذلك وجُلّ في صدورهم وعاهدوه وعاقدوه أنّهم لا يؤذون رسول الله ولا يكون منهم إليه شيء يكرهه ابدا[1]».

إلاّ أنّ هذه الوعود بقيت دون برّ بها من قبل أصحابها. وبينما كان محمّد مندفعاً بين قومه، يعلّم ويعظ وينذر، مدفوعاً بالدعوة التي تلقّاها من ربّه، وقد أَلهبت شعوره، سخروا منه، وأغلظوا له القول. فقالوا «مجنون»[2]. وقالوا «ساحر كذّاب[3]». وقال آخرون «كاهن[4]».

هذه الاتّهامات تدلّ بوضوح على أنّ محمّداً كان رجلاً تميّز بقوى روحيّة بالرغم من أنّ خصومه راحوا يفسّرون هذه القوى تفسيراً مهيناً. وأوّل من استجاب لدعوته بعد صحبه والأقربين من أهله، كانت جماعة المنبوذين والمعدومين والعبيد. وهم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة: «واتّبعك الأرذلون[5]». غير أنّه بعد انقضاء خمس سنوات، عمل فيها جاهداً، جاءت النتيجة مخيّبة للآمال.

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٦
٢ ـ سورة التكوير، ٢٢٥
٣ ـ المرجع السابق.
٤ ـ سورة الحاقة، ٤٢
٥ ـ سورة الشعراء، ١١١

لمّا اتَّضح لقريش أن تلك الأساليب من الهزء والسخرية لن تثني النبيّ عن رسالته، لجأوا إلى العنف، فراحوا يرغمون من أسلموا على الرجوع عن الإسلام وشتم الرسول. ومَن لا يفعل، كان يتعرّض للضرب، وأحياناً للقتل.

ولمّا رأى النبيّ ما في أصحابه من المعاناة والعذاب، قال لهم: «إرحلوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، إلى النجاشيّ، فإنّه يحسن الجوار». فخرج اثنا عشر رجلاً، سرعان ما تبعهم سبعون رجلاً ما عدا الأبناء والنساء. هؤلاء هم المهاجرون الأوّلون.

صدق ظنّ النبيّ بأنّ الحبشة النصرانيّة لن تؤذي أتباعه. ولقد كان أولئك الذين انتقلوا إلى الحبشة، المهاجرين الأُول، الذين يؤلّفون مع الصحابة، الطبقة النبيلة الراقية في المجتمع الجديد. ولقد كان انتقالهم إلى الحبشة في العام ٦١٥م.

وعبثاً حاولت قريش أن تقنع أبا طالب بتسليمها محمّداً، وقد رفض أبو طالب كلّ إغراءاتها وتهديداتها بإباء. عندها لجأت قريش إلى مقاطعته، «فكتبوا الصحيفة القاطعة القاضية بألاّ يبايعوا احداً من بني هاشم ولا يناكحوهم ولا يعاملوهم حتّى يدفعوا إليهم محمّداً فيقتلوه[١] ...».

لم ينته هذا الحصار الجائر على النبيّ، الذي دام ثلاث سنوات، إلاّ بعد أن توفّيت خديجة، وأبو طالب، وولداه: القاسم وكان في الرابعة، وعبد الله، وكان لا يزال رضيعاً. وقد ساءت أحوال النبيّ، إذ بالإضافة إلى فقدانه أعزّ من له، كان قد «أنفق ماله، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة مالها، وصاروا إلى حدّ الضرّ والفاقة».

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣١

فكّر النبيّ في الانتقال إلى الطائف، التي كانت مصيفاً لأهل مكّة، وكان فيها مـزار للاّت[1] . إلاّ أنّ أهل الطائف لم يتلقّوا محمّداً بالترحاب والإكرام، بل تجمهر الناس ورجموه بالحجارة، فلجأ إلى حديقة كان يملكها أحد زعماء المعارضة. ومن ثمّ عاد إلى مكّة حزيناً، وهو يتلو الصلاة التالية:

«اللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي إلى من تكلني، إلى بعيد يتهجّمني أو إلى عدوّ ملّكته أمري، إن لم يكن بك عَلَيّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحلّ عليّ سخطك. لك العتبى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك[2] ».

الهجرة إلى المدينة

بعد عودته إلى مكّة، حاول الرسول هذه المرّة أن يجلب إلى دعوته زوّار مكّة من حجّاج وتجّار، إلاّ أنه لم يحقّق غايته في بادئ الأمر، كما أنّه لم ييأس.

ولدى قدوم جماعة من يهود يثرب، إلى مكّة، وجد النبيّ عندها أذنا صاغية، فإنّ هؤلاء اليهود كانوا قد سمعوا من أبناء مدينتهم أنّ زعيماً دينيّاً عظيماً سيظهر. وقد يكون محمّد، هذا الزعيم. وكان لأُمّ النبيّ، آمنة، صلة قرابة بيثرب. وفي يوم حسن الطالع، عقد عهداً مع وفد من يثرب، تعهّدوا فيه بحمايته هو وصحبه في مدينتهم.

في هذه الأثناء، كانت قريش قد أجمعت على قتل الرسول. وقالوا: ليس له اليوم أحد ينصره وقد مات أبو طالب. وإذ علم الرسول بنوايا قريش، أوعز إلى حوالى مائتين من أتباعه بأن يبارحوا مكّة متفرّقين ليتوجّهوا سرّاً إلى يثرب، التي أصبحت فيما بعد تُعرف بالمدينة. وفي ٢٤ أيلول (سبتمبر) ٦٢٢م.، وصل المدينة

---

١ ـ كانت اللات والعزى ومناة الهة تُعبد في الجزيرة العربية.

٢ ـ رواية ابن هشام. سيرة سيدنا محمد رسول الله. طبعة فيستنفلد (غيتنغن ١٨٥٨ ـ ١٨٥٩) ص ٢٨٠.

محمّد، وبرفقته أبو بكر، وابن عمّه عليّ بن أبي طالب. وقد أصبح هذا اليوم بدء التقويم الهجريّ كما اقترحه عمر، ونهاية الفترة المكّيّة في حياة الرسول، وبداية الفترة في المدينة.

في المدينة، برزت قدرة الرسول على حقيقتها. فإنّ ذلك الذي كانت عشيرته تنعته بالجنون حيناً، وتتّهمه بأنّه كاهن، أحياناً. قد أوجد الحكومة المثال الأوّل للأمبراطوريّة الإسلاميّة العتيدة، في المدينة، حيث وُلد الإسلام الذي عمّ العالم. كما أنّ تلك الجالية الإسلاميّة الأولى التي أسّسها النبيّ في المدينة، سوف تكون نواة الأمّة العربيّة الإسلاميّة في ما بعد.

ففي المدينة «نشأت من الجماعة الدينيّة، من مهاجرين وأنصار، أمّة الإسلام، وبقي الدين أساس وحدتها. ولقد كانت هذه أوّل محاولة في تاريخ الجزيرة لتكوين أمّة قائمة على رابطة الدين والنظم الاجتماعيّة، لا على أساس العصبيّة الدمويّة، كما كانت الحال في الماضي. وتولّى محمّد زمام السلطة الزمنيّة، بالإضافة إلى سلطته الروحيّة... وأصبح المسلمون إخواناً في الدين والعقيدة، بقطع النظر عن نزعتهم القبليّة[١]».

فبينما كان محمّد وهو في مكّة، داعياً لدين جديد فحسب... في المدينة، أصبح حاكماً يرعى شؤون المسلمين ويوجّه أمورهم ويسنّ القوانين ويقود الجيوش ويقضي في جميع شؤون الناس[٢].

وكانت المشكلة الأولى التي توجّب على محمّد حلّها في المدينة، «إطعام الفقراء من المهاجرين وإيواءهم. فراح يوزّعهم بين الأنصار. الأمر الذي كان بمثابة تطبيق عمليّ لمبدإ الأخوّة في الإسلام. وأفلح النبيّ في تطبيقه. ويبدو أنّ عدد الأنصار في المدينة ازداد بسرعة. وكانت الامراض الاجتماعيّة الاقتصاديّة في

---

١ ـ الدكتور فيليب حتّي، «العرب، تاريخ موجز» صفحة ٤٤ ـ ٤٥

٢ ـ سليمان مظهر، قصة الديانات، دار الرقي، (١٩٨٤) ص ٤٦٦

المدينة، ذاتها في مكّة. فإنّ المدينة كانت تعيش فترة انتقال من البداوة إلى الحياة المتحضّرة المتمدّنة، بفارق واحد، وهو أنّ أهل المدينة المتحضّرين كانوا يعتمدون الزراعة، بينما كان أهل مكّة المتحضّرون يعتمدون التجارة، ويعيشون عيش المدن. وهذا الانتقال من أسلوب في العيش إلى آخر، يولد الخصومة بين القديم والحديث. أمّا في السياسة، فكان هناك اختلاف بين المدينتين. فإنّ مكّة كانت مدينة موحَّدة القيادة بإشراف قريش وسلطتها، الأمر الذي كان ينقص المدينة، حيث كانت الحياة العامّة تتميّز بالحروب الثأريّة والمنازعات الداخليّة بين قبيلتين رئيسيتين: الأوس والخزرج. وممّا زاد في تعقّد الحالة السياسيّة السائدة في المدينة، وجود ثلاث قبائل تدين باليهوديّة. هذا التفكّك السياسيّ، إلى جانب وجود جماعة تنتظر مهديّاً أو مخلّصاً منتظراً (مسيحاً) ـ هي جماعة اليهود ـ قد هيّأ الجوّ لأهل المدينة لأن يتقبّلوا، عن رضى، نبيّاً ذا سلطة تقوم على الدين[1] ».

في هذه الأثناء، «ومنذ وصل محمّد إلى المدينة... بدأ العمل على إقامة شعائر دينه الجديد. فبنى مسجده الذي دُفن فيه. ولمّا اطمأنّ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار، واستحكم أمر الإسلام، أمرَ الرسول بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم... كما أمر بصوم شهر رمضان... وحمى حقوق الملكيّة... ومنذ ذلك الوقت قامت الحدود وعُرف الحلال والحرام. وكان محمّد حين قدم المدينة يجتمع إليه الناس للصلاة في مواقيتها بغير دعوة. فتشاور المسلمون يوماً، فقال بعضهم: لنتّخذ ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال آخرون: لنتّخذ بوقاً مثل بوق اليهود. وبينما هم على ذلك، إذ قدم عبد الله بن زيد، وهو أنصاريّ من الخزرج، إلى رسول الله وقال له: ـ يا رسول الله إنّه طاف بي هذه الليلة طائف... مرَّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلّك على خيرٍ من ذلك؟ قلت: وما هو؟ أجاب: أن تقول: ـ الله أكبر الله

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٣

أكبر. أشهد ان لا إله إلاّ الله واشهد أنّ محمّداً رسول الله، حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح... الله أكبر الله أكبر... لا إله إلاّ الله ـ. قال محمّد : إنّها لرؤيا حقّ إن شاء الله... فقم مع بلال فألقها عليه... فليؤذّن بها فإنّه أندى صوتاً منك. ومنذ تلك اللحظة صار هذا النداء آذاناً للدعوة للصلاة... واستقلّت شعيرة من شعائر الإسلام عن مجاراة اليهود في بوقهم والنصارى في ناقوسهم[1] ».

حاول الرسول طوال الفترة الأولى من دعوته أن يقيم بينه وبين اليهود نوعاً من التعايش السلميّ، يجمع بين أقدم ديانتين موحّدتين[2]. فإنّ بعض العقائد الجوهريّة كانت مشتركة. ونبوّة محمّد لا تختلف عن نبوّة إبراهيم وعيسى. وكانت القبلة في الصلاة بيت المقدس. وأحلّ للمسلمين أن يؤاكلوا أهل الكتاب وأن يتزوّجوا من نسائهم[3]. ولكن ما أن لبث النبيّ مدّة في المدينة حتّى شعر بأنّه كان على خطأ فيما ظنّه بهم. فإنّ اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار، وأنّهم الوحيدون من ذريّة إبراهيم. فلم يُبدوا استعداداً لأن يدمجوا أحداً في دينهم، ولا أبدوا استعداداً لأن يُدمَجوا في دين غيرهم. ونشبت حرب باردة بينه وبين اليهود. وهكذا، أمر النبيّ عند بدء السنة الثانية للهجرة بأن تحوّل القبلة عن بيت المقدس إلى مكّة[4].

وقبل انصرام السنة الثانية لهجرة النبيّ إلى المدينة، كان النبيّ قد تزوّج عائشة بنت أبي بكر، وهي بنت تسع سنوات (وقيل بنت ست سنوات) قبل وفاة ابنته رقيّة، وزواج عليّ بابنته الثانية: فاطمة. ولن تمّر السنة الثالثة على الهجرة، إلاّ ويكون النبيّ قد تزوّج بزينب بنت خزيمة التي توفّيت بعد شهرين من ذلك

---

١ ـ سليمان مظهر، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ ؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة: BARBIER DE MEYNARD et PAVET DE COURTEILLE، تنقيح : Charles PELLAT، منشورات الجامعة اللبنانية، توزيع المكتبة الشرقية، (بيروت ١٩٧٠) ج ٣، ص ٢٨

٢ ـ سورة البقرة، ١٢٧ ـ ١٣١

٣ ـ سورة المائدة، ٧٤

٤ ـ سورة البقرة، ١٣٩، ١٤٤، ١٤٥ ؛ راجع : حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٣٨ ؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٢ ؛ المسعودي، ج ٣، ص ٢٨.

الحدث، ويكون أيضاً قد تزوّج بعفصة بنت عمر بن الخطّاب، ويكون عثمان بن عفّان قد تزوّج بأمّ كلثوم ابنة النبيّ. ويكون قد وُلد لعليّ بن أبي طالب، ابنه البكر، من بنت النبيّ: الحسن[1].

وقـــــعـــــة بدر

لم تكد تنقضي سنتان على الهجرة، حتى كانت المدينة قد أضحت في وضع دقيق. فالحالة الاقتصاديّة قد ساءت إلى حدّ الخطر، وموارد المدينة كانت محدودة. وما عادت تدابير الرسول بكافية لتأمين الاستقرار. وكانت أنظار أهل المدينة تتطلّع إلى القوافل المكّيّة الراجعة من سورية ناقلة البضائع، والدنانير الكثيرة في جيوب أصحابها.

إضافة إلى عامل الإغراء الماديّ الذي كانت تشيعه تلك القوافل، ذلك الإغراء الذي كان من الصعب على أهل المدينة، وهم على ما كانوا عليه من عوز، أن يستطيعوا مقاومته، قد كان إنزال الضربة في القوافل المكّيّة بمثابة إنزال الضربة في شريان مكّة الاقتصاديّ الحيويّ.

وفي يوم من أيام رمضان الحرام[2]، الموافق أواسط آذار (مارس) ٦٢٤م. كان النبيّ قد جنّد ٣١٤ مقاتلاً بحسب تقدير ابن هشام[3]، رابطوا، وعلى رأسهم النبيّ، على درب القوافل، في مكان فيه ماء للسقاية يقع إلى الجنوب الغربيّ من المدينة، ينتظرون مقدم القافلة. هذا المكان كان يسمّى بَدْر.

كانت القافلة تتألف من حوالى ألف جمل يقودها أبو سفيان، زعيم بني أميّة، وهي عشيرة من قريش. وبالرغم من المدد الذي وصل سريعاً من مكّة بناء

---

١ ـ المسعودي، ج ٣، ص ٢٨

٢ ـ المسعودي أرخها في ١٧ رمضان (ج ٣، ص ٢٨). وكذلك اليعقوبي (ج ٢، ص ٤٥)

٣ ـ اليعقوبي قدرهم بثلاثماية، (ج ٢ ص ٤٥)

على طلب أبي سفيان، وقوامه تسعمئة رجل «ترافقهم مغنّيات لتبعث الحماسة في قلوب المقاتلين» فلقد حقّق المسلمون بقيادة نبيّهم أوّل نصر عسكريّ كان له وقعه الكبير وتأثيره المعنويّ الذائع.

فبعد مبارزة قصيرة بين فارسين، التحم الجيشان. وقد ظهرت براعة محمّد القتاليّة في أوّل معركة حربيّة له، إذ كان أصدر الأوامر إلى رجاله كي يحاربوا متراصّين، مستعملين السهام أوّلاً، ومحتفظين بالسيوف إلى وقت لاحق في المعركة. وكانت قريش واثقة من النصر بحيث أنّ رجالها دخلوا المعركة بدون خطّة وبدون تدريب ونظام. وبينما كانت قريش تحارب لتخليص أموالها، كان المسلمون يحاربون من أجل البقاء... بكلّ ما في هذا التعبير من معنى عميق، وفي سبيل الله، بكلّ ما يعنيه ذلك من إيمان... فكان النصر الذي أحرزه المسلمون، على قلّتهم، حاسماً. وجاء فاجعة على أهل مكّة، الذين هربوا مخلّفين وراءهم حوالى سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً. واستشهد من المسلمين ثمانون رجلاً. وجاء الوحي: «واعلموا إنّما غنمتم من شيء فإنّ للّه خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل[١]». وعلى هذا الذي أصبح سنّة فيما بعد، وُزّعت غنائم بدر[٢].

يفرض الإنصاف هنا إلقاء بعض الأضواء على خلفيّات وقعة بدر، التي قد تبدو للوهلة الأولى وكأنّها نوع من قطع الطرق. إلاّ أنّ ما يجب إدراكه أنّ «هذه الحرب قد وجبت، حين كان على محمّد أن يؤمّن حياة المسلمين في المدينة، ويردّ إلى المهاجرين حقوقهم التي سلبها منهم أهل مكّة وطردوهم عنها. وهو كان يعرف أنّه بهذا العمل سوف يثير أهل مكّة لكي يخرجوا إليه في قتال صريح، ولكنّه كان يعلم أيضاً ألاّ سبيل له إلى استرداد حقوق المسلمين إلاّ من هذا الطريق[٣].

١ ـ سورة الانفال: ٤١
٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٦
٣ ـ سليمان مظهر، ص ٤٦٨

كان لمعركة بدر، ونتائجها، تأثير معنويّ إيجابيّ كبير على المسلمين، وقد أنزلت الإحباط والقلق في نفوس المشركين. فبينما فسّر المسلمون هذا النصر على أنّه نصر من السماء، جاء تأييداً لدين الله، وعقاباً للمشركين، واشتركت الملائكة بألف منها في المعركة مُعينة المسلمين[1]، فقدت قريش نفوذها، وفقدت ثقتها بعزّها وسلطانها، وراح أبو سفيان يهيّئ لضرب المسلمين، إنتقاماً وإنقاذاً للمصالح. ذلك بعد أن قال أهل مكّة بأنّ تجارتهم فسدت، ولم يعودوا يجدون أمناً في إرسال سلعهم إلى الأسواق الخارجيّة... وكلّ هذا بسبب محمّد والإسلام.

بعد حوالى سنة من وقعة بدر، «إجتمعت قريش، واستعدّت لطلب ثأرها... واستعانت بالمال الذي قدّمه أبو سفيان، وقد قالوا: لا تنفقوا منه شيئاً إلاّ في حرب محمّد[2]...». وعندما وصلت أخبار هذه الاستعدادات الى الرسول «كان رأيه ألاّ يخرج من المدينة لرؤيا رآها في منامه... تأوّلها بأنّ نفراً من أصحابه يُقتلون، وأنّ رجلاً من أهل بيته يصاب. فأشارت إليه الأنصار بالخروج، فلمّا لبس لباس الحرب ردّت إليه الأنصار الأمر، وقالوا: لا نخرج... فقال: الآن وقد لبست لأمتي، والنبيّ إذا لبس لأمته لا ينزعها حتّى يقاتل، ويفتح الله عليه. فخرج ومعه المسلمون وعددهم ألف حتى صاروا إلى أُحد[3]». وخرجت قريش بثلاثة آلاف رجل... إلاّ أنّ أحداثاً جرت، غيّرت ما كان يمكن أن تكون عليه نهاية المعركة، إذ حدث انقسام في صفوف المسلمين بعودة فرقة منهم إلى المدينة، بينما أهمل الرماة، وسط المعركة، وصيّة الرسول لهم بالثبات في أماكنهم دون طمع بالغنيمة حتّى يُصدر إليهم أمره. وكان لا بدّ حين اندفعوا يتعجّلون الغنيمة تاركين أماكنهم،

---

١ - سورة الأنفال، ٩ - ١٢، ١٧

٢ - اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٧

٣ - اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٧

من أن ينتهز المشركون بقيادة خالد بن الوليد فرصة خلوّ الجبل من الرماة، فيأتوا المسلمين من خلفهم ويعملوا في ظهورهم الرماح. ودبّ الذعر في المسلمين خاصّة عندما صاح صائح أنّ محمّداً قُتل. وكان الذي حدث لمحمّد هو أنّ الاعداء وصلوا إليه بالفعل، ورماه أحدهم بحجر، فأُصيب في وجهه وشُقّت شفته، ثم ضربه آخر فشجّ جبهته، وتبعه ثالث بضربة في الوجه فدخلت حلقتان من خوذة الرأس في وجنتيه، فوقع في حفرة من الحفر التي كان المشركون قد حفروها لتكون أفخاخاً لاصطياد المسلمين. وانتشر في الناس ان محمّدا قد قتل، وانطلق أهل مكّة عائدين وفي قلوبهم فرح كبير. وانتهت المعركة هذه المرّة بالفعل بانتصار قريش وهزيمة المسلمين[1].

في هذه المعركة، قُتل حمزه بن عبد المطّلب أسد الله وأسد رسوله، رماه وحشيّ عبد، لجبير بن مطعم، بحربة، فسقط، ومثّلت به هند بنت عتبة بن ربيعة، وشقّت عن كبده فأخذت منها قطعة فلاكتها، وجدعت أنفه... وانهزم المسلمون ولم يبقَ مع الرسول سوى عليّ والزبَير وطلحة. وعاتب الله المسلمين في آيات من كتابه... وقُتل منهم ثمانية وستّون رجلاً، ومن المشركين اثنان وعشرون[2].

ولكن، بالرغم من أنّ قريشاً قد ثأرت لنفسها من معركة بدر، فإنّ موقعة أُحد، لم تستطع أن تحجب هالة النور التي كانت تجلّل هامة بدر. ولن يلبث الاسلام حتّى يستعيد بعدها قوّة ونشاطاً، ويضمن لنفسه البقاء والانتشار.

إلى هنا، كان الاسلام ديناً يدخل ضمن الدولة، ولكن بعد ذلك الحين، أصبح أكثر من دين الدولة، إذ أصبحت الدولة ذاتها تُعرف به. ومنذ ذلك الحين، أصبح الاسلام، كما عرفه ويعرفه العالم: ديناً ودولة وقوّة جهاديّة[3].

---

١ ـ سليمان مظهر، ص ٤٧١ ـ ٤٧٠

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٨

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٧

... بعد وقعة أُحد، كان من الطبيعيّ ألاّ تسكت قريش، وألاّ يستكين المسلمون. فقريش، لن تدع تلك الفرصة بعد أن اطمأنّت إلى أنّها قد هزمت محمّداً وأتباعه، بل ستعدّ العدّة لغزوة أخرى بهدف القضاء على ما بقي له من قوّة. والمسلمون، وقد واجهوا ما واجهوه من استخفاف من قبل بعض القبائل المحيطة بهم، خاصّة اليهوديّة منها، حتّى استهانوا بقوة أتباع محمّد... كان لا بدّ لهم من استعادة سطوتهم.

تشجّعت قريش بعد موقعة أُحد، فأقدمت على مهاجمة المدينة، يساندها حلفاء من اليهود والبدو المرتزقة. كان ذلك سنة ٦٢٧، وقد بلغ عدد المهاجمين هذه المرّة، عشرة آلاف مقاتل، ولم يكن قد مضى على هجرة محمّد إلى المدينة سوى خمس سنوات.

واجه محمّد هذه الهجمة بقوّة. وبناء على مشورة من سلمان الفارسيّ، أمر النبيّ بحفر خندق حول المدينة، جاعلاً لكلّ قبيلة حدّاً يحفرون إليه، وشاركهم هو بالحفر. وبعد الانتهاء، جعل للمدينة معابر عُرفت بالأبواب، ووضع عليها حرساً، قوامه رجل من كلّ قبيلة، بقيادة الزبَير بن العوام. وقد بلغ عدد المستنفرين مع محمّد لهذه المعركة، سبعمائة رجل بحسب اليعقوبيّ[١]. بينما ذكر بعض المراجع أنّ عددهم بلغ ثلاثة آلاف[٢].

فوجئ المهاجمون بالخندق الذي لم يكن للعرب سابقة به في فنونهم الحربيّة. وإذ تعذّر عليهم دخول المدينة، لجأوا إلى حصارها. وفي اليوم الخامس من الحصار، حصلت مبارزة بين الفريقين، كما جرت العادة عند بداية كلّ معركة، إشترك فيها ابن عمّ النبيّ، عليّ بن أبي طالب، عن المسلمين، وعمرو بن عبد ودّ عن

---

١ ـ اليعقوبي، ج٢، ص ٥٠

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٧

المشركين، فقُتل عمرو، وآخر من رفاقه، هو نوفل بن عبد الله بن المغيرة، الذي قتله عليّ وهو يحاول الفرار مع بعض من جماعته.

بعد أيّام من حصار المشركين وحلفائهم، وقد عُرفوا بالأحزاب، للمدينة، ذكر بعضهم أنّها بلغت عشرين يوماً، إضطر المسلمون آخر الأمر إلى أن يعملوا الوقيعة بين صفوف الأحزاب، فاختلفت، وعزم بعضها على الرحيل. ثم لعبت الطبيعة دوراً آخر بريح عاتية جعلت تنزع خيام المهاجمين... «فانصرفوا هاربين لا يلوون على شيء، حتّى ركب أبو سفيان ناقته وهي معقولة. فلما بلغ الرسول ذلك قال: عوجل الشيخ. وكانت الحرب على ما رُوي ثلاثة أيّام بالرمي بغير مجالدة ولا مبارزة، باستثناء مبارزة عليّ السابقة الذكر، وقد اتّصلت في اليوم الثالث حتّى فاتت صلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء الآخرة، فقال محمّد: شغلونا عن الصلاة، ملأ الله بطونهم وقبورهم ناراً. ثم أمر بلالا فأقام الصلاة فصلّى الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء، وذلك قبل أن ينزل عليه: - فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً - . وإثر هذه المعركة، نزلت سورة الأحزاب التي قصّ فيها ما قصّ[1] ».

أسفرت معركة الخندق عن مقتل ستّة مسلمين وثمانية من المشركين وأعوانهم بحسب اليعقوبيّ، بينما جعل بعضهم عدد القتلى الذين خلفهم المهاجمون وراءهم عشرين. إلاّ أنّ المؤرّخين أجمعوا على أنّ المكّيّين قرّروا ألاّ يتحدّوا المسلمين بعد ذلك.

وقعات اليهود

قبل ذلك التاريخ، كانت الحرب الباردة بين اليهود والمسلمين قد شهدت بعض السخونة، منها ما عُرف بوقعة النَّضير. والنضير هي فخذ من جذام، كانوا تهوّدوا ونزلوا بجبل يُقال له النضير، فسمّوا به.

---

١ - اليعقوبي، ج ٢، ص ٥٠

خبر هذه المعركة التي وقعت بعد وقعة أُحد بأربعة أشهر، أنّ بني النضير تآمروا على قتل النبيّ، وقد كلّفوا بذلك كعب بن الأشرف[1]. فوجّه النبيّ من يقتل كعباً هذا، وفي الوقت نفسه، بعث إلى النضير: أن اخرجوا من دياركم ومعكم أموالكم. وإذ تمرّدوا، سار إليهم الرسول، بعد العصر، فقاتلهم، وقتل منهم جماعة. فلمّا رأوا أنّه لا قوّة لهم على محاربة المسلمين طلبوا الصلح. وكعادته، أبدى الرسول نبلاً ملحوظاً، فوافق، على أن يخرجوا من بلادهم ومعهم ما بوسع إبلهم ان تحمل من متاعهم، دون أن يأخذوا معهم ذهباً أو فضّة أو سلاحاً. فتحمّلوا إلى الشأم. وفرّق الرسول الغنائم بين المهاجرين. وفي هذه الوقعة، «شرب المسلمون الفضيخ[2] فسكروا، فنزل تحريم الخمر[3]».

وعندما كانت وقعة الخندق بعد تلك الحادثة، كان اليهود من أبرز المتحالفين مع المشركين من بني قريش، إنتقاماً. فقاتل يومها مع هؤلاء، إضافة إلى بني النضير، يهود خيبر ومن ألّبوه معهم.

أمام هذا الواقع، كان لا بدّ للرسول من أن يحوّل اهتمامه إلى اليهود، خاصّة وأنّهم قد نقضوا العهود، وبدل من أن ينصروه ويحموه كما تمّ التعاهد، ها هم يقاتلونه ويتآمرون عليه. من ذلك ما حصل مع بني قريظة، وهي فخذ من جذام إخوة النضير. قيل أنّ تهوّدهم كان في أيّام السموأل[4]. وبينما يرى بعضهم أنّ هؤلاء قد نزلوا بجبل يقال له قريظة، فنُسبوا إليه، يعتقد آخرون بأنّ نسبهم يعود إلى اسم جدهم: قريظة.

عشيّة وقعة الخندق واستعداد هؤلاء لمؤازرة المشركين، وجّه محمّد إليهم من

---

١ ـ راجع: سليمان مظهر، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢

٢ ـ الفضيخ: شراب يتخذ من التمر

٣ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٩

٤ ـ السموأل (ابن عادياء): شاعر جاهلي يهودي (صموئيل) صاحب الحصن المعروف بالأبلق، يضرب به المثل في الوفاء، لأنه فضل قتل ابنه على التفريط بأمانة أودعها عنده امرؤ القيس لما سار إلى الشام يريد القيصر. توفي حوالى ٥٦٠م.

قبَله رسولاً يذكّرهم بالعهد ، فأساؤوا الإجابة . وهكذا ، إثر الخندق ، وهزيمة قريش ، دعا محمّد عليّاً وطلب إليه أن يهاجم بالمهاجرين بني قريظة ، وتوجّه إلى المهاجرين بقوله : « عزمت عليكم ألاّ تصلّوا العصر إلاّ في بني قريظة » .

بنتيجة ذلك ، طُردت هذه القبيلة من المدينة ، مخلّفة وراءها مزارع النخيل التي وزّعت على الفقراء المهاجرين والأنصار[1] .

وقبل أن يسير هؤلاء لاجئين إلى خيبر « إنصرف الرسول واصطفى منهم ستّ عشرة جارية ، فقسّمها على فقراء هاشم ، وأخذ لنفسه منهنّ واحدة يقال لها ريحانة[2] » . كان ذلك في العام ٦٢٥ ، أي في السنة الرابعة لهجرة الرسول إلى المدينة . وفي بداية السنة السابعة (٦٢٨) جاء دور خَيْبَر .

خيبر ، واحة يهوديّة خصبة تقع على مسافة مئة ميل شماليّ المدينة . كانت منيعة الحصون يصعب على البدو مهاجمتها ، ولذا أصبحت وكراً للدسائس التي كانت تحاك ضد الإسلام . وكانت قد أرسلت كتيبة لتساعد المكّيّين في حصارهم للمدينة .

كان لخيبر ستة حصون ، يرابط فيها عشرون ألف مقاتل . تمكّن المسلمون بقيادة محمّد من فتحها حصناً حصناً ، وبقي حصن القموص ، الذي كان أشدّ تلك الحصون وأمنعها ، وكان على هذا الحصن مرحب بن الحارث اليهوديّ . فقال الرسول : لأدفعنّ الراية غداً إن شاء الله إلى رجل كرّار غير فرّار ، يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسوله ، لا ينصرف حتّى يفتح الله على يده ؛ ودفع الراية إلى عليّ ، الذي سرعان أن قتل مرحبا اليهوديّ ، واقتلع باب الحصن ـ وكان حجراً طوله أربعة أذرع في عرض ذراعين في سمك ذراع ـ فرمى عليّ بن أبي طالب بالحجر خلفه ودخل الحصن ودخله المسلمون[3] .

---

١ ـ حتّي ، صانعو التاريخ العربي ، ص ٢٩
٢ ـ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٥٢
٣ ـ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٥٦

بعد قتال دام أسبوعين، إستسلمت خيبر في حزيران (يونيو) ٦٢٨، وقبلت أن تدفع نصف قيمة إنتاج مزارعها وحقولها خراجاً لمحمّد، وكان هذا الخراج ممّا خفّف عليه بعض الضائقة. وأصبحت خيبر بلداً ضعيفاً لا يصدر عنه ضرر أو أذيّة[1].

وهنا يظهر مؤشّر آخر، عن نبل الرسول العربيّ وروحه السمحة. فهو، على الرغم من كل ما عاناه على يد المكّيّين، كان قد بلغه أن في مكّة «ضرّاً وحاجة وجدباً وقحطاً». فبعد فتح خيبر، قسم بين بني هاشم من صحبه، أوساق التمر والقمح والشعير، ثم قسم بين الناس كافّة، وأرسل إلى مكّة أحمالاً من الغلال، إستلمها عدوّه اللدود السابق، أبو سفيان، وفرّقها على فقراء قريش، وقال: جزى الله ابن أخي خيراً فإنّه وصول لرحَمه[2].

الحديبية. وفتح مكّة

قبل الانتصار العسكريّ الذي حقّقه الرسول في خيبر، كان قد حقق انتصاراً سلمياً رائعاً في مكّة. فإنّه بعد مفاوضات جرت بينه وبين أشراف قريش، إنتهى الأمر إلى توقيع صلح الحديبية[3].

خبر ذلك أنّ الرسول محمّداً، قد خرج في أواخر السنة السادسة لهجرته (٦٢٧) بمن معه من المسلمين، معتمراً، لا يريد حرباً. وساق معه الهديَ[4] ليبرهن عن أنّ قصده زيارة البيت وتعظيم الحرمات. غير أنّ قريشاً منعته من دخول مكّة. فانتدب عثمان بن عفان ليخبر قريشاً بنيّة الرسول، فأمسكوه بمكّة. وإذ شاع أنّهم قتلوه، أعلن الرسول صحبه بالبيعة، وبايعهم على الموت، وسُمّيت «بيعة الرضوان»

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٩

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ٥٦

٣ ـ الحديبية: بلدة صغيرة على بعد تسعة أميال إلى الشمال من مكّة.

٤ ـ الهدي: الواحدة «هديّة»: ما أهدى إلى الحرم من النعم ـ القرابين.

وقد حصلت تحت الشجرة. إلاّ أنّ عثمان قد عاد سالماً، وأوفدت قريش مفاوضاً عنها، وتمّ عقد معاهدة الصلح، أو الهدنة، بين الرسول وقريش، في موضع الحديبية. وقد جاء فيها: «إنّه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك». وقد نصّ صلح الحديبة على أن يكون أجَل الهدنة عشر سنوات.

كان محمّد يعرف جيّداً أنّ الناس منذ قرون طويلة يعتبرون المسجد الحرام والحجر الأسود وبئر إسماعيل في مكّة، أماكن مقدّسة. غير أنّ الأمر الذي حدّد موعد غزو مكّة، كان نقض قريش لصلح الحديبية، بعد وقت قصير من إبرامه، عندما أغار المكّيون على قبيلة خزاعة الموالية للمسلمين. فاستجارت القبيلة بمحمّد. فكان لا بدّ من أن يسير إلى مكّة لفتحها.

كان ذلك في السنة الثامنة للهجرة، حين جمع محمّد جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل مسلّح من أتباعه، وزحف بهم على مكّة[1].

يعتبر كبار المحقّقين المحدثين في التاريخ العربيّ، أنّ الجيش الذي زحف به الرسول إلى مكّة، لم يتعدّ عدده الألف مقاتل، وأنّ الزحف قد حصل في كانون الثاني (يناير) ٦٣٠، وقد دخل الرسول مكّة، مسقط رأسه، دخول الظافر المنتصر، ولم تُبد قريش أيّة مقاومة. ودخل عدوّه الأوّل، أبو سفيان، في الإسلام، بعد أن قاومه طويلاً بضراوة شديدة، وقد أبدى الرسول العربيّ من ضبط النفس والشهامة ما يتناسب مع مقامه كرجل دولة، اذ لم يسمح بقتل سوى عشرة أشخاص من قريش، كانوا قد تطاولوا على الإسلام ورسوله إلى حدّ قبيح. ولم يترك لنا التاريخ في سرد الأخبار عن دخول الظافرين المدن المغلوبة على أمرها ما يشبه دخول محمّد مكّة من حيث التسامح والنبل[2].

---

١ - سليمان مظهر، ص ٤٧٧

٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٣١

وكان أهل مكّة، عندما عرفوا بنبأ اقتراب الجيش، هربوا إلى التلال رعباً وفزعاً، ولم يعد بمكّة واحد من أهلها. وأخذ الناس وهم فوق التلال يرقبون في خوف تقدّم الجيش العظيم القادم من المدينة. ودخل المسلمون مكّة، المدينة المهجورة، وعلى رأسهم رسولهم وقائدهم على ظهر جمله «القصوى». وزحفوا في الشوارع الخالية، رأساً نحو المسجد الحرام. وأوقف محمّد جمله أمام صنم المعبود هبل، ذي اليد الذهبيّة، وأشار إليه وهو يقول: «قل جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً... » وانهال أتباع محمّد على الصنم وأنزلوه من مكانه وحطّموه. عندئذ مضى محمّد إلى الصنم الثاني، وأشار إليه، وردّد قوله: «قل جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً...». فحطّمه المسلمون هو الآخر. وأخذ محمّد ينتقل من صنم إلى آخر حتّى قضى على الأصنام الثلاثمائة والستّين. ثمّ أمر رجاله بعدم تحطيم أيّ شيء آخر في مكّة، أو سلب أسواقها، أو الاتيان بأيّ خطيئة. وعندما عاد الهاربون من الجبال ورأوا ان محمّداً قد جاء مسالماً ليتعبّد في المسجد الحرام، ولم يكن يعتزم قتلاً أو نهباً... دخلوا دين الإسلام واعترفوا بمحمّد رسولاً وزعيماً وقائداً[1].

وإن اختلفت روايات المصادر الأساسيّة حول تفاصيل فتح مكّة، إلاّ أنها تُجمع في النهاية على أنّ ذلك الفتح، لم يكن دمويّاً، وأنّ الرعب الذي سيطر على المكّيّين عند وصول المسلمين إلى مكّة، سرعان ما زال، عندما تأكّدوا من سلامة نوايا محمّد.

وبعد أن حطّم الرسول الأصنام، أصبحت الكعبة طاهرة من الرجس، وجعل منها محمّد، حرماً إسلاميّاً إذ قال: « ... ألا وإنّ مكّة محرّمة بحرمة الله لم تحلّ لأحد من قبلي ولا تحلّ لأحد من بعدي وإنّما حلّت لي ساعة ثم أغلقت، فهي محرّمة إلى يوم القيامة لا يُختلى خلاها ولا يُعضد شجرها ولا ينفّر صيدها ولا تحلّ

---

١ ـ سليمان مظهر، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨

لُقطتها إلاّ لمنشد، ألاَ أنّ في القتل شبه العمد الديّة مغلّظة والولد للفراش وللعاهر الحجر[1] ».

وأمر بلالاً أن يصعد على الكعبة، فأذّن. فعظم ذلك على قريش، وقال بعضهم: إنّ ابن رباح ينهق على الكعبة... وعندما علم الرسول بذلك، أرسل إليهم بعض رجاله، فقالوا: قد قلنا، فنستغفر الله، فقال محمّد: ما أدري ما أقول لكم ولكن يحضر الصلاة فمن صلّى فسبيل ذلك وإلاّ قدمته فضربت عنقه.

لا شكّ في أنّ ذلك اليوم الذي تمّ فيه فتح مكّة، كان من أكبر العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة الإسلاميّة، فقد تأكّدت القبائل العربيّة التي رفضت الدعوة من قبل « من أنّ المسلمين تلحظهم عناية إلهيّة لا قبَل لغيرهم بها... فسارعوا إلى الإسلام ودخلوا فيه أفواجاً[2] ». وجاء اعتراف الرسول بالكعبة وبالحجر الأسود وببئر زمزم، وهي من بقايا الجاهليّة العربيّة، ليجعل الإسلام يبتعد عن الديانتين التوحيديّتين: اليهوديّة والمسيحيّة[3].

غـــزوات الرســـول

بعد فتح مكّة، لم يهجر محمّد المدينة، إنّما هو عاد إليها. وإذا كانت مكّة قد غدت منذ ذلك الحين عاصمة الإسلام الدينيّة، فإنّ المدينة بقيت، عاصمته السياسيّة[4]. ومن هناك، إستأنف الرسول رسالته على كافة الصعد: النبويّة والسياسيّة والعسكريّة والاجتماعيّة.

وكان الرسول، قبيل دخوله مكّة، بدأ يرسل كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام. فكتب إلى هرقل ملك الروم:

---

١ - اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٠
٢ - سليمان مظهر، ص ٤٧٨
٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٣١
٤ - جواد بولس، التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الادنى منذ الاسلام (دار عودة، بيروت) ص ٧١

«بسم الله الرحمن الرحيم... من محمّد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم... السلام على من اتّبع الهدى. أما بعد: أسلم تسلم. أسلم يؤتك الله أجرك مرّتين. وإن تتولّ فإنّ إثم الأريسيين عليك. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم... ألا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً... ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله. فإن تولّوا فتولّوا اشهدوا بأنّا مسلمون[1]».

وكتب إلى نجاشي الحبشة كتاباً تضمّن كلاماً ألطف[2]. وقد عبّر الرسول في هذا الكتاب عن معان هامّة فيما يتعلّق بالمسيحيّة وقد جاء في كتابه هذا:

«بسم الله الرحيم من محمّد رسول الله إلى النجاشيّ الأفخم ملك الحبشة، سلام أنت فإنّي أحمد إليك الله الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن. وأشهد أنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته. ألقاها إلى مريم البتول الطيّبة الحصينة. فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه. وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وإن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإنّي رسول الله. وقد بعثت إليك ابن عمّي جعفراً ونفراً معه من المسلمين. فإذا جاؤوك فأقرهم ودع التجبّر. فإنّي أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصحي. والسلام على من اتّبع الهدى[3]».

ومن الذين كاتبهم محمّد في الموضوع نفسه: الحارث بن أبي شمر الغسّانيّ[4]، والمقوقس صاحب الإسكندريّة[5]، وذو الكلاع الحميريّ[6]، والمنذر بن ساوى من بني تميم بالبحرين، والأيهم بن النعمان الغسّانيّ، وابنا هوذة بن عليّ الحنفيّ باليمامة، والحارث بن عبد كلال الحميريّ، والديّان، وبنو قنان[7]. ومنهم

---

١ - سليمان مظهر، ص ٤٧٨

٢ - كان محمد قد قام بهجرته الاولى إلى الحبشة النصرانية مع أصحابه وأتباعه في العام ٦١٥. وكان النجاشي ملكاً.

٣ - سليمان مظهر، ص ٤٧٩

٤ - من ملوك الغساسنة من العرب المتنصرة في شمالي سورية

٥ - المقوقس: اسم اطلقه العرب على كورش وزير حاكم مصر البيزنطي وبطريرك الاسكندرية لمّا فتح عمرو ابن العاص مصر (٦٣٩ - ٦٤٢)

٦ - حمير: شعب قديم في بلاد اليمن. وريث الحضارة السبئية المعينية. ذكرته الآداب اللاتينية. دخلت إليه المسيحية في عهد الامبراطور قنسطنطيوس (٣٣٧ - ٣٦١) على يد ثيوفيلوس الهندي الاريوسي.

٧ - اليعقوبي، ج ٢ ص، ٧٧ - ٧٨

أيضاً، ملك الفرس: كسرى، الذي كتب إليه محمّد بمثل ما كتب إلى من جاءَ ذكرهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله إلى الناس كافّة لينذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين فأسلم تسلم، فإن أبيت فإنّ عليك آثام المجوس[1]».

لم يستجب الملوك والأمراء لدعوة محمّد. فكان لا بدّ من أن تسير جيوش المسلمين بعد ذلك لتقرّ دعوة الإسلام بين الشعوب. فلم يمضِ وقت طويل على دخول مكّة، حتّى كانت وقعة حنين[2]، حيث جمع مالك بن عوف النصريّ قبائل هوازن، لحرب المسلمين، بعد أن فتح الرسول مكّة. فسار رسول الله إليهم بجيش الفتح والمكّيّين وانتصر عليهم وحاز المسلمون غنائم عظيمة. كان ذلك في العام الثامن للهجرة (٦٣٠)[3]. وفي السنة نفسها، وجّه جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة على رأس جيش إلى الشأم لقتال الروم. وقد استشهد الثلاثة بأرض مؤتة من أعمال دمشق بخلال وقعة مع الروم، إنهزم فيها المسلمون[4]. وفي السنة نفسها كانت غزوة الطائف[5].

تلك كانت الغزوات التي جرت بعهد الرسول، وقد شهدت قتالاً. بيدَ أنّ غزوات عدّة قد قام بها محمّد من دون أن يلقى مقاومة، ذُكر منها: الأبواء، وبواط، وذو العشيرة، وقرقرة الكدر، وحمراء الأسد، وبدر الصغرى، وتبوك[6].

كما أنّ الرسول، كان بحياته، قد أمر جيوشه بالانتشار في مواقع

---

١ ـ سليمان مظهر، ص ٤٧٩

٢ ـ حنين: واد بين مكة والطائف.

٣ ـ راجع: اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٢؛ المسعودي، ج ٣، ص ٣٠

٤ ـ راجع: المسعودي، ج ٣، ص ٣٠؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٣

٥ ـ راجع: اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٧ ـ ٦٨

٦ ـ تفاصيل تلك المواقع في: اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٩ إلى ٧٨

استراتيجيّة بمحيط الجزيرة العربيّة، فوجّه حمزه بن عبد المطّلب على سرّية على ساحل البحر، وكذلك عبيدة بن الحارث بن المطّلب، الذي ركّز حامية بأسفل تنية المرَة عند ماء الحجاز. وسعد بن أبي وقّاص على سرية الخرار، وهو ماء من الجحفة. كما وجّه سواهم إلى العديد من المواقع، التي زاد عددها على الثلاثين. كما أنّه أرسل بطلب القبائل العربيّة لمواجهته في المدينة، فقصدته عشرات القبائل وعلى رأس كلّ منها أميرها أو شيخها أو رئيسها، فكان الرسول يحدّثهم، طالباً إليهم اعتناق الإسلام، فمنهم من شهروا إسلامهم، ومنهم من رفضوا. بيدَ أنّ الأكثريّة أسلمت، ومن لم يقبل بالدعوة، تعرّض للغزوات[1].

حجة الوداع ونهاية الرسول

كان محمّد، قبل البعث، قد تزوّج خديجة ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزيّ بن قصيّ، كما ذكرنا سابقاً، وولدت له أولاده أجمعين، خلا إبراهيم الذي ولدته ماريّة القبطية. ومات إبراهيم وعمره أقلّ من سنتين.

لم يتزوج محمّد على خديجة، حتّى ماتت. وكانت وفاتها في شهر رمضان، قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولها خمس وستون سنة. وقد دخل عليها محمّد وهي تجود بنفسها، فقال: «بالكره منّي ما أرى. ولعلّ الله أن يجعل في الكره خيراً كثيراً».

ولمّا توفّيت خديجة، جعلت فاطمة، ابنتها، تتعلّق بأبيها، رسول الله، وهي تبكي وتقول: «أين أميّ؟ أين أميّ؟» فنزل عليه الوحي: «قل لفاطمة إنّ الله تعالى بنى لأمّك بيتاً في الجنّة من قصب لا نصب فيه ولا صخب[2]».

---

١ - تفاصيلها في: اليعقوبي، ج ٢، ص ٧٩ - ٨٠

٢ - اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥

بعد خديجة، تزوّج الرسول عشرين امرأة، وقيل اثنتين وعشرين، طلّق بعضهنّ، ولم يقرب بعضهنّ، ولم يمت من نسائه عنده إضافة الى خديجة سوى زينب بنت خزيمة بن الحارث من بني عامر بن صعصعة، الملقّبة بأمّ المساكين. ومات ثلاث منهنّ قبل وصولهنّ إليه، هنّ: خولة بنت الهذيل بن هبيرة الثعلبيّة، وشراف بنت خليفة الكلبيّ، وسنا بنت الصلت بن حبيب بن حارثة السلميّ. أمّا ليلى بنت الحطيم الأوسيّ، فقد استقالته، فأقالها، فدخلت حائطاً من حيطان المدينة، فأكلتها الأسود. وطلّق كلاًّ من غزيّة بنت دودان من بني عامر بن لؤي، وقد عُرفت بأمّ شريك. وعمرة بنت يزيد بن عبيد الكلابيّ التي طلّقها من دون أن يقربها. وكذلك العالية بنت ظبيان بن عمرو الكلابيّ، وضباعة بنت عامر القيسيّة. واللواتي ألحقهنّ بأهلهنّ دون أن يقربهنّ فهنّ: أسماء بنت النعمان الكنديّ من بني آكل المرار. والجونيّة من كندة، وصفيّة بنت بشامة العنبريّة. وبقيت ريحانه بنت شمعون القريظيّة اليهوديّة الأصل في ملكه دون أن يقربها. وقبض الرسول قبل أن يقرب من زوجاته: قتيلة بنت قيس بن معديّ كرب، فخلف عليها عكرمة بن أبي جهل. أما اللواتي أرجأهنّ فهنّ: سودة بنت زمعة بن قيس... بن لؤي، تزوّجها في مكّة. وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان... بن عبد مناف، وجويريّة واسمها برّة من خزاعة، وصفيّة بنت حيي من سبط هارون النبيّ، وميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير الهلاليّ. وآوى من نسائه: عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة التي تزوّجها بمكّة، وحفصة بنت عمر بن الخطّاب، وزينب بنت جحش من بني أسد، وأم سَلِمة بنت أبي أميّة... بن مخزوم.

ولم يخلف الرسول بعد مماته سوى فاطمة، التي كانت زوجة لابن عمّه عليّ ابن أبي طالب[1].

***

١ - راجع: اليعقوبي، ج ٢، ص ٨٤ - ٨٦ و ١١٥

في السنة العاشرة للهجرة، كان محمّد قد بلغ الثالثة والستّين. وقد شعر بأنّ نهايته قد دنت. فخرج من المدينة للحجّ إلى مكّة في أكثر من مائة ألف مسلم. وعند جبل عرفات، وقف يلقي خطبة الوداع الخالدة، التي بيّن فيها دستور الإسلام وقواعده، ونادى بالمساواة بين الناس، لا فرق في ذلك بين العبد الحبشي والشريف القرشيّ:

«أيّها الناس... إنّ ربّكم واحد. وإنّ أباكم واحد. كلّكم لآدم. وآدم من تراب. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم. لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلاّ بالتقوى[1]».

في هذه الحجّة الأخيرة إلى مكّة، جاء في خطبة النبيّ التي تُعدّ القمّة في حياته الخطابيّة:

«أيّها الناس، إسمعوا قولي واعقلوه. تعلّموا أنّ كلّ مسلم أخ للمسلم وأنّ المسلمين أخوة فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس منه[2]».

وكان واضحاً أنّ خطبة الرسول هذه، كانت الوصيّة. فهو كان يخاطب المؤمنين موصياً، فيقول: «... فأوصيكم بمن ملكت أيمانكم فاطعموهم ممّا تأكلون، وألبسوهم ممّا تلبسون، وإن أذنبوا فكِلوا عقوباتهم إلى شراركم، ألا هل بلّغت؟» فيقولون: «نعم» فيقول: «اللهم إشهد».

وختم: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً». وعاد إلى المدينة. وبعد شهرين من رجوعه، وكان الثامن من حزيران (يونيو) سنة ٦٣٢، أصيب محمّد بألم حادّ في رأسه، ومات، دون أن يترك وصيّة تعيّن خليفته. وهذا ما سيكون له أثر كبير على وحدة الإسلام.

---

١ - سليمان مظهر، ص ٤٧٩

٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي. ص ٣١

الفصل الثاني

الخلفاء الراشدون قبل عليّ

- أبو بكر . . . وأيّامه
- عُمَر . . . وأيّامه
- عُثمان . . . والثّورة

كان يوم الثامن من حزيران (يونيو) سنة ٦٣٢، أخطر يوم شهدته، ليس المدينة وحسب، بل الجزيرة العربيّة، في تاريخها.

في ذلك اليوم الشديد الرطوبة والحرارة، سُجِّي محمّد على فراش الموت في منزل عائشة في المدينة، والمسلمون في ذهول رهيب. كيف يموت رسول الله؟ ثمّ... ماذا بعد؟!

فبالرغم من أنّ محمّداً كان أعلن وهو يتلو: «إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ» فإنّ كثيرين من أتباعه رفضوا أن يصدّقوا بأنّ محمّداً يمكن أن يموت. وصعق آخرون واستولت الحيرة على عقولهم، فكانوا بين مصدّق... ورافض التصديق. أمَّا المدركون أنّ محمّداً بشر، فراحوا يبكون الرسول.

وكان الصخب وسط المصاب الجلل، وقد طغى عليه صوت راعد يقول: «إنَّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله توفّي وأنَّ رسول الله مات. والله ما مات ولكنّه ذهب إلى ربّه.. فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات»

كان صاحب الصوت رجلاً كهلاً، مديد القامة، نحيفها، خفيف العارضين، هو عُمر بن الخطّاب.

وبعد قليل، سُمع صوت آخر هادىء يقول: «أيّها الناس، إنّ من كان يعبد محمّداً، فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت».

وكان صاحب الصوت رجلاً شيخاً نحيل الجسم، هو أبو بكر، الذي قال هذا، والدمع يتساقط من عينيه. فإنَّه كان قد ذهب إلى بيت النبيّ فكشف الغطاء عنه وقبّله ثمّ ردّ الثوب على وجهه وخرج.

هدأت العاصفة، ودُفن النبيّ حيث كان مسجّى، ونشأ بعد ذلك أمر أشدّ خطورة، وأكثر واقعيَّة: من سيخلفه[1]؟

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٣٥ ـ ٣٦

وهكذا، بدأت مسألة الخلافة.

ومنذ ذلك اليوم، لن يتمكّن أحد من توحيد المسلمين، كما وحّد بينهم محمّد: الرسول والقائد والحاكم والقاضي والآمر والناهي.

إلاّ أنّه لم يكن بدّ من وجود خليفة لسيّد المسلمين. والمشيخة العربيّة حينئذ لم تكن وراثيّة، بل شبه انتخابيّة، على أساس الأقدميّة في السنّ[١].

ولكن، أيّ أقدم في السنّ؟!

فما أن طُرحت قضيّة الخلافة للنقاش، حتى ظهرت الأحزاب:

الأوّل، كان حزب المهاجرين، وغالبيّته من قريش، ممّن تبعوا الرسول منذ البداية، وهاجروا معه إلى المدينة، واعتبروا أنّهم الأَحقّ بالخلافة.

والثاني، كان حزب الأنصار، ولسان حال هؤلاء يقول بأنّه لو لم ينصروا النبيّ ويأووه وصحبه، ويقدّموا له العون في القتال، لما قام الإسلام.

والثالث، حزب أهل البيت، وهو حزب عليّ بن أبي طالب، ولسان حال أصحاب هذا الحزب، أنّ عليّاً هو ابن عمّ الرسول، وختنه، وأبو حفيدَيه الحسن والحسين، ومن المؤمنين الأُول، فهو أولى شرعاً بالخلافة من غيره، خاصّة وأنّ محمّدا قد أوصى بذلك قبل وفاته[٢].

يذكر المؤرّخون أنّ جدلاً خطيراً قد حصل يومها، لا بل صراعاً بلغ حدّ الاقتتال. بيدَ أنّه في النهاية، فاز حزب المهاجرين، وكان لديه مرشّحان للخلافة: أَبو بكر، وعُمر بن الخطّاب.

---

١ ـ بولس، ص ٨١

٢ ـ يقول انصار عليّ، بأن محمداً عندما خرج ليلاً منصرفاً من مكّة إلى المدينة، بعد حجّة الوداع، سار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له غدير خم. وهناك قام خطيباً، وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: فمن كنت مولاه، فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.

كان أَبو بكر والد عائشة زوجة الرسول، وعُمر والد زوجته الأخرى: حفصة. كما أنّ الرجلين كانا من أوفى اصدقاء محمّد، وهما صحابيان مقرّبان إليه، ومستشاران كان يعتمد عليهما، إضافة إلى ما كان لهما من مقام رفيع في أعين المؤمنين. وإذا كان الرجلان يختلفان في الشخصيّة وفي المظهر والتصرُّف في العمل، فإنّهما كانا يتّفقان في شدّة إخلاصهما وولائهما للإسلام، ولصاحب الرسالة الذي جاء بالإسلام. وإذ كان عمر أكثر اقتداراً من أبي بكر، وكان العقل المفكّر في الصحابة التي كانت تحيط بالرسول، فإنّ أبا بكر، كان يكبره بإحدى عشرة سنة، كما أنّه كان أسبق من عمر إلى الإسلام، وكان النبيّ قد طلب لأبي بكر في أثناء مرضه بالصلاة الجامعة.

ووقع الاختيار على أبي بكر، وكان عمر أوّل من بايعه[1].

إنّ ما سمّاه المدوِّنون القدماء: «المجاذبة في الإمامة[2]»، التي حصلت في يوم السقيفة ذاك، كان إيذاناً بما سيتعرَّض له الإسلام فيما بعد، من انشقاق خطير.

أمّا خبر السقيفة التي تَكنّى بها يوم المبايعة للخلافة الأولى، فهو أنّ الأَنصار كانوا قد اجتمعوا، يوم وفاة الرسول، في سقيفة بني ساعدة، وبادروا إلى «إجلاس سعد بن عبادة الخزرجي، وعصَّبوه بعصابة، وثنوا له وسادة[3]». أي أنّهم عيّنوه خليفة. غير أنّ أبا بكر، وعمر والمهاجرين، عندما علموا بذلك، سارعوا إلى سقيفة بني ساعدة، ونَحّوا الناس عن سعد، وقالوا: «منّا رسول الله يا معاشر الأَنصار. فنحن أحقّ بمقامه». فقالت الأَنصار: «منّا أمير ومنكم أمير!». فقال أبو بكر: «منّا الأُمراء ومنكم الوزراء». وبعد مساجلة قصيرة، إقتنع القوم بمبايعة أبي بكر.

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٣٧
٢ - المسعودي، ج ٣ ص ٤٢
٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٢٣

وجاء من يسارع إلى بني هاشم، ليبلغهم أنَّ الناس قد بايعوا أبا بكر، فكانت ردّة فعلهم غضباً وعتباً وأسفاً، فقال بعضهم: «ما كان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه، ونحن أولى بمحمّد». وقال العبّاس: «فعلوها وربِّ الكعبة».

بدأت معارضة أنصار عليّ بمواجهة الفضل بن العبّاس للخليفة المبايَع جديداً ومن بايعوه، وقوله لهم: «يا معشر قريش، إنّه ما حقّت لكم الخلافة بالتمويه، ونحن أهلها دونكم، وصاحبنا أولى بها منكم[1]».

وكان ما قاله عليّ لأبي بكر، مشوباً بلهجة العتاب: «أفتَّ علينا أمرنا ولم تستشر ولم ترعَ لنا حقّنا؟!». فقال أبو بكر: «بلى... ولكنّي خشيت الفتنة[2]».

وكانت النتيجة أن تخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين، والأنصار، ومالوا، مع بني هاشم، إلى عليّ بن أبي طالب... واجتمعوا إليه في منزل فاطمة، بنت الرسول، وزوجة عليّ؛ فهاجم عمر بن الخطّاب منزل فاطمة، فخرج إليه عليّ، وبارزه خارج البيت، وكان أن كسر عليّ سيف عمر، ودخل وجماعته الدار. فخرجت فاطمة صارخة: «والله لتخرجنّ او لأكشفنّ شعري ولأعجّنّ إلى الله»!

فخرج عمر وأتباعه، كما خرج سائر من كان في دار فاطمة. وبعد أيّام جعل الهاشميّون وأنصارهم يبايعون أبا بكر، تباعاً، «ولم يبايع عليّ، إلاّ بعد مرور مدّة، بعضهم ذكر أنّها أربعون يوماً، وبعضهم قال أنّها ستّة أشهر[3]».

إنتهت المبايعة الأُولى، بعد الرسول، بسلام. إلاّ أنّ بذور الشقاق كانت قد ذُرَت، وبقيت مسألة الخلافة موضوع أخذ وردّ في المدينة.

سرعان ما ذهب أنصار عليّ في رأيهم إلى أبعد ممّا كانوا قد ذهبوا إليه قبلاً، من أنه الأولى بالخلافة لأنّه ابن عم النبيّ لحاً، والثاني أو الثالث بين من آمنوا!

---

١ ـ لتفاصيل هذه المساجلة. راجع: اليعقوبي. ج ٢ ص ١٢٣
٢ ـ المسعودي. ج ٢ ص ٤٢
٣ ـ اليعقوبي. ج ٢ ص ١٢٦

بالرسالة، وزوج لابنة الرسول الوحيدة التي قُدّر لها أن تبقى بعده على قيد الحياة، ووالد للحسن والحسين، وهم كلّ من ترك النبيّ من ذريّة. ذهبوا إلى المجاهرة بالاعتقاد بأنّ تولّي هذا المنصب، وهو أرفع منصب في الإسلام، لا يمكن أن يكون قد تُرك رهناً بميول الناخبين ونزواتهم. وبأنّه لا بدّ من أن يكون الله ومحمّد قد أعدّا له ما يلزم، وبأنّ عليّاً هو الشخص الذي أعدّاه له. وهذا من شأنه ان يجعل عليّاً الخليفة الشرعيّ الوحيد للنبيّ، ويُنزل خلفاءه الآخرين بمنزلة المغتصبين[1].

وإذا كان أنصار عليّ قد اكتفوا بالتعبير عن موقفهم من الخلافة دون أن يعرّضوا الإسلام، كدين، لأيّة خضة، فإنّ أناساً آخرين قد اتّخذوا هذا المنحى الخطير، وكان على الإسلام القويم أن يحاربهم بقسوة.

أولئك هم الذين ادّعوا النبوّة.

كذلك بعد انتقال النبيّ من هذه الفانية، إرتدّ جماعة من العرب عن الإسلام، وامتنع آخرون عن دفع الجزية.

وكانت كلّ هذه الأمور تدعو الخلافة، لأن تنفّذ المكافحة السريعة لا بل توجب عليها ذلك.

كان من الذين ادّعوا النبوّة: طُليحة بن خويلد الأسديّ في نواحيه. ومُسيلمة ابن حبيب الحنفيّ باليمامة. والأسود العنسيّ الكذّاب المعروف بعيهلة باليمن وصنعاء. وسجاح بنت الحارث بن سويد ـ وقيل بنت عقفان ـ وتُكنّى بأمّ صادر، من بني تغلب[2].

فقد كان طليحة بن خويلد كاهناً من بني أسد، وقد ادّعى بأنّ الوحي ينزل عليه من ملك أسماه «ذا النون»، ثمّ عدل عن «ذي النون» وقال لا بل هو

---

١ ـ الدكتور فيليب حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، نشر دار الثقافة، بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت ١٩٥٩) ج ٢ ص ٢٩

٢ ـ المسعودي: ج ٣ ص ٤٤ ـ ٤٥؛ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٣١

جبريل. ولم يُعرف عن قرآنه شيء، إلاّ أنّه كان يعترض على السجود في صلاة المسلمين ويقول: «صلّوا قياماً فإنّ الله لا يقنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم».

أمّا مسيلمة فقد زعم أنّ وحياً يهبط عليه في الظلام فقط، من السماء، يُسمّى «رحمان» ويقرئه قرآنا. وكان مسيلمة هذا قد أرسل إلى محمّد، قبل وفاته، كتاباً يدّعي فيه مشاركته في الرسالة، ويساومه في اقتسام الملك والسيادة في جزيرة العرب. فكتب إليه الرسول: «من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب. سلام على من إتّبع الهدى، أمّا بعد فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين».

غير أنّ مسيلمة تمادى في الحديث عن الوحي الذي يهبط عليه وقال في قرآنه: «يا ضفدع يا بنت ضفدعين. نقِّي ما تنقّين. نصفك في الماء ونصفك في الطين. لا الماء تكدّرين ولا الشارب تمنعين».

وقال مسيلمة آيات أخرى حاول عبثاً أن يقلّد فيها، قرآن محمّد، منها: «والباذِرات زرعاً. والحاصدات حصداً. والذاريات قمحاً. والطاحنات طحناً. والعاجنات عجناً. والخابزات خبزاً. والثاردات ثردا. واللاقمات لقماً. أهالة وسمنا. لقد فُضِّلتم على أهل الوبر. وما سبقكم أهل المدر. ضيفكم فامنعوه. والمعترّ فآووه. والباغي فناوئوه».

أمّا الأسوَد العنسيّ الذي ادّعى النبوّة في اليمن وتبعه قومه، فقد طغى وبغى ودانت له بلاد نجران. هاجم صنعاء وقتل أميرها وتزوّج امرأته. وألقى الرعب في قلوب ولاة المسلمين على اليمن، حتّى كتبوا بذلك إلى الرسول. فبعث محمّد إليهم فأمرهم بالقيام على دينهم ومناهضة الأسوَد الذي كان يقول أنّ وحيه ينزل به عليه ملك سمّاه «ذا خمار». وقد إئتمر الولاة به حتّى قتلوه غيلة في الليلة التي مات الرسول في صبيحتها.

وأمّا المتنبيّة: سجاح، فزعمت أنّ لها قرآناً يهبط عليها به الوحي. غير أنّ

هذا الوحي قد صمت حين لقيت مسيلمة وتزوّجته، بالرغم من أنّها كانت قبلاً ضدّ مسيلمة. والذي حصل، أنّ مسيلمة، المتنبّي الكذّاب، أعطاها صداقاً بأن أعفى أتباعها من صلاة العصر. وقد ظلّ بنو تميم وقتاً غير قصير لا يصلّون العصر حتّى لا يضيّعوا صداق ابنتهم زوجة مسيلمة[1].

واضح أنّ هؤلاء المتنبّئين قد لاقوا، بعد انتقال الرسول من هذه الفانية، أنصاراً عديدين، ليس لقناعة بنبوءاتهم، إنّما هم انحازوا إلى هؤلاء، ليستنصروا بهم على قريش، بهدف التخلّص من زعامتها وسيادتها. وإذ كان بعض هؤلاء المنحازين من القبائل التي تظاهرت قبلاً باعتناق الإسلام، فقد أضحوا من المرتدّين.

بدأ أبو بكر المكافحة بإرسال خالد بن الوليد لضرب طليحة المتنبئ، «فقصد خالد طليحة وفرّق شمله بعد أن قتل عدداً من أتباعه، وأسر آخرين. وفرّ طليحة إلى الشام، حيث جاور بني حنيفة. ومن هناك، بعث بشعر في رسالة إلى أبي بكر يعتذر عمّا بدا منه، ويعلن عن رغبته في أن «يراجع»، أي، عن رغبته في العودة إلى الإسلام. وإذ رقّ أبو بكر له، قبل برجوعه، غير أنّ طليحة قد وصل إلى المدينة بعد موت أبي بكر بوقت قصير، وكانت الخلافة قد أضحت بيد عمر، الذي بعث بطليحة مع سعد بن أبي وقّاص إلى العراق، وأمر سعدا بألاّ يستعمل طليحة في شيء. ذلك أنّ عمر، كان حذراً من ألاعيب هذا الذي تنبّأ.

بعد طليحة، أرسل أبو بكر خالد بن الوليد أيضاً لضرب المتنبئ الآخر: مسيلمة. فراح خالد إلى مسيلمة وقاتله بمن معه من ربيعة وغيرها قتالاً شديداً، وقُتل يومها من المسلمين خلق عظيم. وفي النهاية، قُتل مسيلمة بطعنة من أبي دجانة الأنصاريّ. وتمكّن مسيلمة من قتل قاتله بضربة من رمحه قبل أن يسلم الروح. فكانت نهاية مسيلمة في هذه المعركة التي عُرفت بـ «حديقة الموت»، وهو

---

١ ـ جميع ما أوردناه عن المتنبّين الكذّابين جاء في: سليمان مظهر، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨

الذي كان قد أزعج المسلمين بحياته إلى حدّ بعيد، وتغلّب عليهم سابقاً عندما حاولوا ضربه بقيادة عكرمة. أمّا تاريخ تلك النهاية فكان في العام ٦٣٢، وقيل أنّ عمره قد بلغ يومذاك مائة وخمسين سنة.

وإذ تخلّصت الخلافة من المتنبّين الكذّابين، رأى أبو بكر، قبل أن يبدأ بقتال من ارتدّ، أن يأمر خالداً بالسير إلى أرض العراق. وبينما كان خالد يفتتح بانقيا وكسكر، ويهزم النعمان في الحيرة، وينزل في الخورنق، ويسبي كلّ ما افتتح من مدن وقبائل، وجّه أبو بكر إلى المرتدّين قادة آخرين، فوجَّه العلاء بن الحضرميّ إلى أوّل من ارتدّ ووضع التاج على رأسه من العرب: النعمان بن المنذر التميميّ في البحرين. وتمكّن العلاء من النعمان وقتله بسرعة. كذلك وجّه الخليفة حذيقة بن محصن إلى مرتدّ آخر، في عُمان، هو لقيط بن مالك، ذو التاج. وتمّ إهلاك ذي التاج بصمّار من أرض عُمان، وسبى المسلمون ذراري بني ناجية وعبد القيس، الذين كانوا قد ارتدّوا مع ذي التاج.

بعد تخلّصه من المتنبّين الكاذبين ومن المرتدّين، قرّر أبو بكر الانقضاض على من امتنعوا عن دفع الزكاة. فكتب إلى خالد بن الوليد كي يتوجّه لإخضاع مالك بن نويرة اليربوعيّ. وسرعان ما نفّذ خالد المهمّة، إذ قصد مالكاً وضرب عنقه وتزوَّج امرأته. كما كان قد تزوَّج ابنة مسيلمة الكاذب، يوم تغلّب عليه.

هنا، تبرز عقيدة السنّة المستقيمة تبعاً لتعاليم الرسول، إذ لمّا بلغ الخليفة أنّ خالداً قد قتل مالكاً، وهو مسلم، وتزوّج امرأته، أرسل أبو بكر إلى خالد يؤنّبه، فاعتذر خالد بقوله: يا خليفة رسول الله، إنّي تأوّلت، وأصبت، وأخطأت.

لم يمنع هذا أبا بكر عن متابعة مقاتلة رافضي دفع الزكاة، فكتب إلى زياد بن لبيد البياضيّ يأمره بقتال من ارتدّ ومن امتنع عن الزكاة في اليمن، فقاتلهم. وكان لِكِندة ملوك عدّة متمرّدون، فأغار زياد عليهم ليلاً، وقهرهم. بيدَ أن تمرّداً جديداً قد ظهر من قبَل الأشعث بن قيس، الذي انتزع سبايا المعركة من جند زياد؛ فلمّا

انتهى الأمر إلى أبي بكر، عدّ الأشعث من المرتدّين، فوجّه عكرمة بن أبي جهل في جيش لمحاربته، وتمكّن القائدان: عكرمة وزياد، من الأشعث، وقتلا من جماعته عدداً كبيراً وغنما مغانم كثيرة، وأحضرا الأشعث موثوقاً إلى أبي بكر، ذلك الخليفة الطيّب الذي حنّ قلبه على الأسير، فأطلق سبيله وزوّجه أخته، أمّ فروة[١].

وفي عمر ولاية أبي بكر القصير، الذي لم يدم سوى أكثر من سنتين بقليل، تمكّن جيش الإسلام بعد إخضاع الجزيرة العربيّة، من بدء مواجهة الروم في بلاد الشام ونواحيها.

إلاَّ أن أبا بكر، بالرغم من سلامة طويّته التي جعلت لقب «الصدّيق» يضاف إلى اسمه[٢]، حرص على ألاَّ يُشرك في الجهاد ضدّ الروم وفي فتح البلدان بعد حروب الردَّة أيّاً من أهل الردّة، رغم عودتهم إلى السنَّة وخضوعهم للخليفة. وقد بقي أبو بكر حذراً ودقيقاً في تقبّل المرتدّين واندماجهم في المجتمع الإسلاميّ. ويحدّثنا الشعبيّ[٣] عن أنّ أبا بكر «كان لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردَّة حتى مات[٤]». حتى إنّ الخليفة الأوّل جعل ذلك جزءاً من سياسته الداخليّة ونظام حكمه. فكتب إلى عمّاله: «لا تستعينوا بمرتدّ في جهاد عدوّ[٥]». وكتب إلى خالد ابن الوليد وعيّاض بن غنم: «ولا يغزونّ معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي[٦]». ولم يستطع «المثنّى[٧]» أن يثني أبا بكر عن رأيه، عندما استأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردّة ممّن يستطعمه الغزو، فيظلّ الصدّيق على خطّته

١ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣٢

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٨

٣ - عامر بن شرحبيل الشعبي. (توفي سنة ١٠٣ هـ ٧٢١ م) نسبته إلى شعب: بطن من همدان. تابعي، محدّث، راوية، حافظ ثقة. ولد ونشأ في الكوفة.

٤ - أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري، تاريخ الامم والملوك، طبعة ليدن (١٨٧٩ - ١٨٨١) ١ : ٢٤٥٧

٥ - الطبري (المرجع السابق)١ : ٢٠١٤

٦ - الطبري، ١ : ٢٠٢١

٧ - المثنّى بن حارثة الشيباني: من مشاهير القادة في عهد الخليفة أبي بكر. تعاون مع خالد بن الوليد في فتوح عدة واستشهد في إحدى المعارك.

التي انتهجها «فلا يشهد الأيّام مرتدّ[1]». ولن يبدأ هذا النهج الحذر من المرتدّين بالزوال قبل عهد الخليفة الثاني: عُمَر[2].

وقبل أن تدرك المنيّة خليفة المسلمين الأوّل، وهو في الثالثة والستّين من عمره، في العشرين من جمادي الآخرة، قبل نهاية العام الثالث عشر للهجرة بليلتين[3] (آب ـ أغسطس ٦٣٤). وقيل إنّ اليهود كانوا قد سمّموا له في شيء من الطعام قبل سنة من وفاته ممّا جعله يعلّ طويلاً[4]، كان أبو بكر قد أنفذ جيوش المسلمين إلى سورية وجوارها لمحاربة الروم وإخضاعهم، بقيادة كلٍّ من يزيد بن أبي سفيان، وأبي عبيدة ابن الجرّاح، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد. كما أرسل جيوشاً أخرى بقيادة عثمان بن أبي العاص، والعلاء ابن الحضرميّ، إلى تقرج ومكران والزارة ونواحيها من أرض البحرين.

وكان أيضاً قد أقدم على إنجاز كبير على صعيد آخر، رغم تردّده في البداية، وخوفه من أن «يفعل ما لم يفعله رسول الله». غير أنّه في النهاية، وبعد إلحاح عمر، أقدم أبو بكر على جمع القرآن وكتابته في صحف، بعد أن كانت الآيات متفرّقة في الجريد وسواها. فأمر خمسة وعشرين رجلاً من قريش، وخمسين من الأنصار، بكتابة القرآن، وعرَضه على سعيد بن العاص «فإنّه رجل فصيح».

وروى بعضهم أنّ عليّ بن أبي طالب كان قد جمع القرآن لمّا قُبض الرسول، وأتى به إليه يحمله على جمل، وقال: «هذا القرآن قد جمعته[5]».

... وإذ كان أبو بكر الصدّيق ابن الثالثة والستين، بنحافة بدنه، وبياض

---

١ ـ الطبري، ١ : ٢١٢٠ ـ ٢١٢١

٢ ـ راجع: الدكتور شكري فيصل، المجتمعات الاسلامية في القرن الاوّل، منشورات دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، (بيروت ١٩٨١) ص ٤٠ ـ ٤١

٣ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٣٨

٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٤٣

٥ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٣٥

محيّاه المعروق، وبعينيه الغائرتين، ولحيته المخضّبة، كما دوماً، بالحنّاء، يقترب من أجله، عهد إلى عمر بن الخطّاب كاتباً: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله إلى المؤمنين والمسلمين: سلام عليكم، فإنّي أحمد إليكم الله، أمّا بعد، فإنّي قد استعملت عليكم عمر بن الخطّاب، فاسمعوا، وأطيعوا، وإنّي ما ألوتكم نصحاً، والسلام[1]».

وكان آخر ما ذكره الخليفة الأوّل قبيل وفاته، ندمه على ثلاثة من أعماله، هي: تفتيشه لبيت فاطمة ـ وذكر في ذلك كلاماً كثيراً ـ وحرقه لأحدهم قصاصاً، وخصوصاً، ندمه لانّه قَبِل بالخلافة. وودَّ «لو أنّي كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين[2]، فكان اميراً... وكنت وزيراً». كما ودّ لو أنّه كان سأل الرسول فيمن يولّى الخلافة من بعد محمّد، فلا ينازِع الأمر أهلُه[3].

وفي البيت الذي دُفن فيه الرسول، قُبر أبو بكر، بعد أن صلّى عليه خليفته... الخليفة الجديد: عُمر.

عُمـــــــر وأيامـــــــه

لم يكن مفاجئاً، ولا غريباً، أن يعيِّن أبو بكر الصدّيق، عُمر بن الخطّاب، خلفاً له في الخلافة. فقد وقف عمر إلى جانب صديقه ورفيقه أبي بكر طوال مدة خلافته، وعمل معه مخلصاً وفيّاً مدّة سنتين كمستشار له دون أن يُبدي تذمّراً أو حسداً. ويقول لنا الرواة أنّه كان يعمل قاضياً عند أبي بكر في أيّام خلافته. ولقد كان أثر عمر، في حياة الإسلام الأولى، أبعد خطراً من كونه قاضياً. فهو الذي حاول أن يجمع القرآن الكريم، وأن يقضي على حروب الردّة، إذ يُعزى إليه الفضل

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٣٧

٢ ـ في المسعودي أن المقصودَين بـ «أحد الرجلين» هما: سعد بن عبادة، وعليّ بن أبي طالب. وقد جاء هذا في الحاشية.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٤٣؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٣٧

في أنّه كان أوّل من أوعز أنّ كلام الله يجب أن يُجمع وأن يدوّن في كتاب، لأنّ حفّاظ القرآن كانوا يُستشهدون بكثرة في الحروب التي كانت قائمة أنذاك... وكان لعمر أثر بارز في مشوراته أيّام النبيّ... وكانت يد عمر سريعة في امتشاقها السيف. فهو الذي، بعد موقعة بدر، إقترح قطع رؤوس الأسرى. وبعد ذلك عندما دخل النبيّ مكّة ظافراً أوصى عمر أن يُقتل أبو سفيان، زعيم قومه، ووالد معاوية الذي سيصبح خليفة فيما بعد. ومما يدلّ على المنزلة التي كانت لعمر عند النبيّ، اللّقب الذي جعله النبيّ له: الفاروق، أي الذي يفرّق بين الحقّ والباطل. ومن أحاديث الرسول قوله: «إنّ الله جعل الحقّ على لسان عمر، وقلبه» وقوله: «لو كان بعدي نبيّ لكان عمر بن الخطّاب[1]».

وإذا كان أبو بكر، وعليّ بن أبي طالب، قد سبقا عمر في دخول الإسلام، فإنّ اعتناقه من قبل عمر، كان مميَّزاً.

قبل ذلك، كان عمر من أشدّ أعداء الدعوة ومن ألدّ خصومها، وكانت معارضته للدين الجديد، صادرة عن تخوفُه من أن يُحدث ذلك الدين انشقاقاً في قريش. فإنّ العصبيّة القبَليّة المحبّبة إلى نفس كلّ عربيّ، وهي التي باتت حديثاً تُعرف بالقوميّة، كانت أمراً خطير الشأن بالنسبة لعمر. وكان عمر يعمل كسفير لقبيلته. ذلك أنّ قريشاً كانت إذا وقع نزاع فيما بينها، أو حرب مع غيرها من القبائل، تعهد إليه بالسفارة، وهي من أجلّ المناصب في الجاهليّة. فقد كان عمر يتميّز بموهبتين تؤهّلانه لهذا المنصب: قدرته الخطابيّة، وقوّة ملامحه الجسديّة. وقد نمت فيه مواهبه في سوق عكاظ بالقرب من الطائف، حيث كانت تُقام سوق سنويّة يحضرها رجال القبائل ونساؤهم في الأشهر الحرُم، ومعهم من نتاج أنعامهم، وغلال واحاتهم، وصنع أيديهم سلع وبضائع للمقايضة. وكان يفد معهم أهل الفكر: الشعراء والخطباء، وكان للرياضة الجسديّة يومُها في عكاظ. فكانت هذه السوق

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٣٧ ـ ٣٨

السنويّة سوقاً تجمع بين التجارة والرياضة والأدب. فكان الشعراء يتبارون في إلقاء قصائدهم لنيل الجائزة، وكانت الجائزة كتابةَ قصيدة الفائز بماء الذهب، وتعليقها عند باب الكعبة، وفي ذلك أكبر مكافأة يفخر بها الشاعر.

وفي أيّام شبابه، كان عمر يرتاد هذه الأسواق، وكان يميل إلى الشعر والخطابة، وينبغي أن يكون قد حفظ كثيراً ممّا سمعه... وكان قد نشأ على أفضل ما كان ينشأ عليه أبناء قريش من البراعة في الفروسية وحفظ الأخبار والشعر. ويقال إنّه كان يبرز في عكاظ للمبارزة، وفي ذات مرّة صرع إلى الأرض فارساً من فرسان البدو الصناديد. ويقال أيضاً أنّه كان يستطيع أن يمتطي صهوة جواد وهو يجري وبدون عنان فيستوي على ظهره. وكانت نساء مكّة تتغنّى بهيبته وبفروسيّته. وإذا انصرف عن هذه الأمور عاد إلى تجارته لأنّه كان تاجراً، ونحن نعلم أنّ مكّة كانت فيما مضى أشبه بجمهوريّة تجاريّة. ويُظنّ أنّ تجارة عمر كانت الشعير وغيره من أصناف الحبوب. وكان له مصالح في تجارة القوافل التي كان مركزها مكّة... والتجارة تتطلّب معرفة القراءة والكتابة. وكان عمر أوّل الذين كانوا يقرأون ويكتبون في قريش، وعددهم سبعة عشر نفراً على ما ذكر البلاذريّ... ويبدو أنّه كان لعمر أربع زوجات أو خمس، قبل إسلامه، وكان مغرماً بالخمر، وبالنساء.

كذا كان عمر، قبل اعتناقه الإسلام، يوم كان يصبّ جام غضبه على كلّ من اعتنق الإسلام، ومن بينهم جاريته، فكان يجلدها بالسوط، ويقسو في جلدها.

وفي ذات يوم من سنة٦١٦، عندما كان النبيّ مع رهط من صحبه محاصَراً في حيّ ضيق، والناس يقاطعونه، هبّ عمر والسيف في يده لمهاجمة الحيّ. فقال له حارس الباب: «ولِمَ لا تبدأ بأختك وصهرك؟» ـ وكانا قد اعتنقا الإسلام ـ فكان لكلام الحارس وقع السيف في نفسه. فارتدّ إلى بيت أخته، وعندما دخل رآها تخبّئ شيئاً لم يستبنه، ولكن ظنّ أنّه كتاب له علاقة بالدين الجديد، فانهال عمر

على شقيقته وعلى زوجها بالضرب، فقالت له، والدم يسيل من وجهها: «إفعل ما تشاء، فالإسلام لن يغادر قلوبنا». وبعد أن فاهت بهذه العبارة، سلّمته رقعة كُتب عليها: «تنزيلاً ممّن خلق الأرض والسموات العُلى، الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السرّ وأخفى... إنّني أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدني وأقم الصلوة لذكري[1]».

وكان هذا ما غيرّ قلب عمر، فراح يسعى إلى باب بيت الرسول، وسمع صوتاً من الداخل يقول: «أدخله. فإن كان قادماً للسلام فسلاماً يلقى، وإن كان قادماً للقتال فسيُقتل بحدّ سيفه». وكان السلام الذي سعى له عمر ووجده نقطة تغيّر في حياته الغنيّة بالأحداث الجسام، وأسلم عمر[2].

ما أن اعتنق عمر الإسلام، حتى اندفع إليه بالحماسة ذاتها، وبالشعور نفسه، اللذين أبداهما في عدائه له... فغدا بذلك أعظم شخصيّة عربيّة بعد النبيّ. وكان عمر عند اعتناقه الإسلام في الأربعين من عمره. ويجب أن يكون قد بلغ الثالثة والخمسين عندما جاء يوم مبايعته الخلافة، في نهاية العام الثالث عشر للهجرة[3].

***

يوم مبايعته الخلافة، صعد عمر بن الخطّاب المنبر في المدينة،وجلس دون مجلس أبي بكر بمرقاة، وكان أبو بكر قبل ذلك، قد جلس دون مجلس الرسول بمرقاة.

---

١ ـ سورة طه، ٣ ـ ١٤

٢ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٣٩ ـ ٤٢

٣ ـ يذكر حتّي ـ في المرجع السابق ـ أن عمر، كان في الخامسة والأربعين عندما اعتنق الاسلام، (صفحة ٣٩) ولكنّه يعود فيذكر أنه كان في الرابعة والثلاثين (صفحة ٤٠). إلاّ أننا نميل إلى الاعتقاد بأنّه كان في السادسة والثلاثين، لأن المؤرخين القدماء، يجمعون على أنه لمّا قتل، كان له من العمر ثلاث وستون، في العام ٢٣ هـ واعتنق الاسلام، قبل الهجرة بأربع سنوات.

وفي أوّل خطبة له، حمد عمر الله، وأثنى عليه وصلّى على النبيّ، وذكر أبا بكر، وفضله، وترحَّم عليه، ثم قال: «يا أيّها الناس، إنّي قد وُلّيت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدّكم استضلاعاً بما ينوب من مهمّ أموركم، ما تولّيت ذلك منكم».

وقال أيضاً: «ما أنا إلاّ رجل منكم ولولا أنّي كرهت أن أردّ أمر خليفة رسول الله لما تقلّدت أمركم». فأثنى الناس عليه خيرا[1].

كان أوّل ما قام به عمر بعد تولّيه الخلافة، أن ردّ سبايا أهل الردّة إلى عشائرهم، وقال: «إنّي كرهت أن يصير السبي سنّة على العرب[2]».

حتّى ذلك الوقت، كانت حالة المرتدّين: جماعة معاقبة تكفّر عن سيّئاتها بلون من النبذ والحرمان.. أمّا وقد قوي أمر المسلمين وامتدّت قوّتهم وغابت في ضباب رقيق من الماضي ذكريات الارتداد عنهم والانقضاض عليهم، إتّجه عمر بالمرتدّين وجهة جديدة. فلم يشأ الخليفة الثاني أن تظلّ هذه القوى معطّلة تفنى في قلقها وتذوب في أساها، ولم يشأ أن يحرم المجتمع الإسلاميّ ثمرة هذا العقاب وما تركه في نفوس المرتدّين من اندفاع ورغبة في التكفير، فأذن أن يشاركوا في الحرب، ورضي لهم أن يكونوا في الجند، ثم مضى خطوة أخرى فأذن لهم أن يلوا بعض المراتب في الجيش، ولكنّه لا يطمعهم، كما يقول الشعبيّ، في الرياسة[3]، وإنّما يحدّ سلطاتهم بما دون المائة، ويكتب إلى سعد: «أن لا يولي رؤساء أهل الردّة على مائة[4]» ويضطر سعد ليلة الهرير، تقيّداً بسياسة الدولة نحو هذه الطبقة من الناس، أن يبعث بقيس بن الكشوح، وكان من أولئك الرؤساء الذين نُهي عنهم أن يولّيهم المائة، في سبعين رجلا[5] فحسب.

---

١ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي. ص ٤٣؛ اليعقوبي. ج ٢ ص ١٣٩
٢ ـ اليعقوبي. ج ٢ ص ١٣٩
٣ ـ شكري فيصل، ص ٤٢، عن الطبري، المجلد الاول، ص ٢٤٥٨
٤ ـ الطبري، ١ : ٢٣٢٧
٥ ـ الطبري، ١ : ٢٣٢٨

كان المرتدون في عهد عمر، «ضمن هذا الحيّز الضيّق من المدى الإسلاميّ الواسع، في المشاركة الاجتماعيّة، يعانون هذه الأزمة العميقة في نفوسهم، فراحوا يسعون لتعويض الخطيئة السابقة بالحسنات الكثيرة اللآحقة، ولذلك اندفعوا في الفتوح اندفاعاً مشرّفاً وأقبلوا على الموت إقبالاً لا يعرف الهيبة.

وإذا كان المرتدّون قد ظلّوا، في عهد عمر، على حدّ تعبير الشعبيّ «من حشوة الناس[١] »، فإنّهم قد أحرزوا تقدّماً واسعاً في الاعتبار، قياساً على كانوا عليه في عهد أبي بكر، ويُعدّ هذا أحد إنجازات عمر.

في هذا الوقت، كانت جيوش الإسلام قد وصلت إلى الأراضي السوريّة، بناء على أمر أبي بكر. الذي لم يقدَّر له أن يعيش ليفرح بإنجازاتها.

وعندما تسنّم عمر سدّة الخلافة، كان خالد بن الوليد، بعد أن حقّق انتصارات هامّة للإسلام في محيط الفرات، حيث لم يُبد مسيحيّو الحيرة مقاومة تُذكر، وقبلوا بأن يدفعوا الجزية، وبأن تكون الحيرة منطلقاً للجيوش العربيّة في غزواتها إلى المناطق المجاورة لمناطق الفرس، قد تلقّى أمر الخليفة بأن يوقف زحفه ويرتدّ إلى سورية لمساندة الجيش العربيّ الذي كانت جيوش بيزنطية تشدّد عليه الخناق.

وإذ تضاربت الآراء حول أيّ من الخليفتين: أبي بكر، أَم عمر، قد أمرخالداً بهذا الانتقال، فالمهمّ أنّ أوّل انتصار حقّقه ابن الوليد هناك كان فتح دمشق، عاصمة البيزنطيّين في سورية، يوم كانت مملكتهم السوريّة تمتدّ من طوروس إلى سيناء، وقد فتحت دمشق أبوابها للفاتحين العرب سنة ٦٣٥ بعد حصار دام ستّة أشهر.

وكما تعاونت القبائل العربيّة المسيحيّة في الحيرة مع الفتح الاسلاميّ العربيّ،

---

١ ـ الطبري، ١ : ٢٤٥٨

كذلك فعلت في دمشق، وكان على رأس المتعاونين أسقف المدينة وصاحب الخزينة، وهو والد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ من مشاهير الكنيسة السريانيّة الشرقيّة. وقد استقبل أهل دمشق المسيحيّون الفاتحين العرب المسلمين «بالترحاب وبالهتاف ذلك أنّ العرب كانوا أقرب لغة وعرقاً إليهم ممّا كان أسيادهم من البيزنطيّين. فإنّ السريانيّة والعربيّة لغتان متقاربتان وتنتسبان إلى عائلة لغويّة واحدة، هي الساميَّة[1]». وعلى بعد خمسين ميلاً جنوب دمشق، كانت قبائل غسّان من العرب المتنصّرة، قد أسّست مملكةً عاصمتُها: الجابية. وقد تعاونت هذه القبائل المسيحيّة مع المسلمين كما فعل أهل شيزر، على ضفاف العاصي بالقرب من حماة، وهم مسيحيّون أيضاً، فاستقبلوا العرب بالغناء والأهازيج وضرب الطبول.

ذلك أنّ الدين الجديد: الإسلام، قد بدا لنصارى سورية والعراق وكأنّه فرقة دينيّة من فرق النصرانيّة[2]. وبدا العرب وكأنّهم المنقذ من نير الاستعمار الأجنبيّ!.

أمام هذا الواقع، عُقد الصلح بين خالد بن الوليد وأهل دمشق، بموجب كتاب أعطاه خالد إلى أهل المدينة، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها. أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيئاً من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلعم) والخلفاء والمؤمنين. لا يعرض لهم إلاّ بالخير إذا أعطوا الجزية[3]». ويمكن اعتبار هذا النص بمثابة مثال لغيره من عقود الصلح بين العرب والشعوب التي غلبوها.

نجد هنا بعض الخلاف بين المؤرّخين حول حقيقة موقف ابن الوليد من موضوع الصلح. فبينما يذكر بعضهم أنّ فتح دمشق قد تمَّ على يد خالد بن الوليد

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٤٥

٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٤٥

٣ - البلاذري، فتوح البلدان. (القاهرة ١٩٣٢) ص ١٢٨

على الشكل الذي ذكرنا، يذكر بعضهم الآخر أنّ ابن الوليد كان يعارض أبا عبيدة في عقد الصلح، إذ لمّا بلغه، بعد الحصار «أنّ أبا عبيدة عزم على أن يصالح القوم، وأنّ القوم قد وثقوا به للصلح ـ وكان موقع أبي عبيدة على باب الجابية ـ ألحّ خالد على الباب الشرقيّ للمدينة ففتحه عنوة، فقال خالد لأبي عبيدة: ـ إسبهم. فإنّي دخلتها عنوة! ـ فقال أبو عبيدة: ـ لا، قد أمنتهم! ـ ». ويروي الواقديّ أنّ خالد ابن الوليد صالحهم، وكتب للأسقف كتاباً للصلح، وأعطاهم الأمان، فأجاز أبو عبيدة ذلك[1] ».

وقبل تعداد الفتوحات هنا، لا بدّ من الإشارة إلى تذبذب المدوّنات حول هذه الفتوحات وما يليها، بين ردّ البطولة والقيادة فيها إلى أبي عبيدة، وبين ردّ ذلك إلى خالد بن الوليد. وسبب هذا أنّ الخليفة عمر بن الخطّاب، كان «سيّئ الرأي في خالد .. مع أنّه ابن خاله». ويردّ المدوّنون أصل هذا الجفاء إلى «قول كان قاله خالد في عمر» لذلك، عندما استقرّ الأمر للخليفة الجديد، كتب إلى أبي عبيدة يخبره أوّلاً، بوفاة أبي بكر، وبتولّيه الخلافة الثانية، ثم يعقد له ولاية الشأم مكان خالد بن الوليد، ويصيّر خالداً في موقع أبي عبيدة[2] ». ويؤكّد هذا المرجع، على أنّ خالد بن الوليد، كان قد فتح مرج الصّفر من أرض دمشق، وحاصر مدينة دمشق، قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام. ويروي أنّ أبا عبيدة قد سُرّ خبر أمر عمر عن خالد، حتّى ورد كتاب ثان عن عمر على أبي عبيدة، يأمره فيه بأن يتوجّه إلى حمص ونواحي الشام[3]، فكان عليه أن يُعلم خالداً بذلك، وهنا، قال خالد بن الوليد: «رحم الله أبا بكر! لو كان حيّاً ما عزلني».

ويروي اليعقوبيّ أنّ الخليفة كتب إلى أبي عبيدة: «إن كذّب نفسه (خالد)

---

١ ـ راجع، اليعقوبي، ج ٢ ص ١٤٠

٢ ـ راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ١٣٩

٣ ـ المقصود بـ «الشأم» عند المؤرخين القدماء، البلاد السورية، أما مدينة الشام، فكانوا يذكرونها بـ «دمشق».

فيما كان قاله، عَمِّله، وإلاّ فانزع عمامته وشاطره ماله.. فشاور خالد أخته، فقالت: والله ما أراد ابن حنتمة (عمر) إلاّ أن تكذّب نفسك. ثمّ ينزعك عن عملك، فلا تفعلنّ... فلم يكذّب نفسه، فقام بلال فنزع عمامته. وشاطره أبو عبيدة ماله، حتّى نعله فأفرد واحدة عن الأخرى[1] ».

وقد استخلص بعض البحّاثين المحدَثين، أنّ أسباب قيام عمر بإذلال خالد « سيف الإسلام » وبطل الفتوحات في سورية والعراق، بعد أن بلغ خالد علياء مجده، تعود إلى أنّ عمر« كان يضمر لخالد بعض السوء في عهد الخليفة أبي بكر، وقد بلغ مسمع عمر أنّ خالداً يعيش عيش البذخ والترف، ويغدق على أعوانه والمعجبين به من العطايا الشيء الكثير، فاستاء عمر وهو الخليفة الزاهد المتقشّف. وأُخبر عمر أنّ شاعراً مدح خالداً بمناسبة انتصاراته العسكريّة فنال منه جائزة قدرها عشرة آلاف درهم. ويقال إنّه عندما سأل عمر خالداً عن نفقاته وعن نصيب بيت مال المسلمين، أجابه جواباً جافاً « لا يخرج عن القول: إنّ الأمر لا يعنيك » . وكان نصيب بيت المال من الفيء الخمس[2] .

ويبدو أنّ خالداً تنازل طوعاً عن مركزه في سورية وسلّم نفسه لأمير المؤمنين[3] في المدينة، وأعاد إلى بيت المال مبلغ عشرين ألف درهم. عندها كتب عمر إلى الأمصار يقول: « إنّي لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة، ولكنّ الناس فخّموه وفُتنوا به فخِفت ان يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أنّ الله هو الصانع[4] ...» .

---

١ - راجع اليعقوبي، ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤٠

٢ - (سورة الحشر ٦ - ١٠)

٣ - يذكر المؤرخون القدماء أن كنية عمر الأساسية، هي « أبو حفص » وأنه « أول من سمّي بأمير المؤمنين، سمّاه عدي بن حاتم وقيل غيره والله اعلم؛ وكان أوّل من سلّم عليه بها (أمير المؤمنين) المغيرة بن شعبة، وأول من دعا له بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الاشعري. وابو موسى اول من كتب إليه: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي موسى الاشعري. فلمّا قرأ ذلك عمر قال: إني لعبد الله وإني لعمر وإني لأمير المؤمنين والحمد لله رب العالمين » - المسعودي، ج ٣ ص ٤٨

٤ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ج ٢ ص ٣٧٦

ويخلص البحّاثة إلى اعتبار أنّ «هذا الكتاب الذي كتبه عمر إلى الأمصار يُفصح عمَّا كان يضمره من حسد». وإلى أنّه «لا يمكن ان تلمع في فلك عمر شمسان[1]».

لكن، لنا رأي آخر في ذلك. فحواه أنّ مردّ إذلال عمر لخالد بن الوليد، يعود إلى اعتبارات دينيَّة. فإنّ الرسول، كان متواضعاً، وبعيداً عن البذخ، وقد أمر أتباعه بذلك. وكان الخليفة الأوّل، أبو بكر، «يأخذ من بيت المال ثلاثة دراهم أجرة كلّ يوم»، وكان متقشّفاً في حياته، بعيداً عن البذخ. وعمر نفسه، أصبح متقشّفاً إلى أقصى الحدود، بعد أن اعتنق الإسلام، وزاد تقشّفاً بعدما تسنّم سدّة الخلافة. وكان يوصي عمَّاله، حيث عيّنهم، بالزهد والتقشّف، ويعلّق على ذلك كبير أهمية. ومما يُروى في هذا المجال، أنّه «كان من عمّاله، سعيد بن عامر بن حذيم، فشكاه أهل حمص إليه، وسألوه عزله، فقال عمر: «اللّهمّ لا تُفلّ فراستي فيه اليوم»، وقال نهم: «ماذا تشكون منه؟» قالوا: «لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً بليل، وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا». فقال عمر: «عليَّ به»، فلمَّا جاء جمع بينه وبينهم وقال: «ما تنقمون منه؟». قالوا: «لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار». قال: «ما تقول يا سعيد؟». قال: «يا أمير المؤمنين إنّه ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني ثمّ أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي ثم أتوضّأ وأخرج إليهم». قال: «ماذا تنقمون منه؟». قالوا: «لا يجيب بلَيل». قال: «قد كنت أكره ذكر هذا، إنّي جعلت الليل كلّه لربّي وجعلت النهار لهم». قال: «وماذا تنقمون منه؟». قالوا: «له يوم في الشهر لا يخرج إلينا فيه». قال: «نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجفّفه فأمسي عنهم». فقال عمر: «الحمد لله الذي لم يُفلّ فراستي فيك! يا أهل حمص استوصوا بواليكم خيراً»؛ قال: ثم بعث إليه عمر بألف دينار وقال له: «إستعن بها»، فقالت له امرأته: «أغنانا الله عن خدمتك».

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٤٧ ـ ٤٨

فقال لها: «ألا ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج مما كنّا إليها؟». قالت: «بلى»، فصرَّها صررا ثم دفعها إلى من يثق به فقال: «إنطلق بهذه الصرّة إلى فلان وبهذه إلى يتيم بني فلان وبهذه إلى مسكين بني فلان»، حتى بقي منها شيء يسير، فدفعه إلى امرأته وقال: «أنفقي هذا»، ثم عاد إلى خدمته؛ فقالت له امرأته: «ألا نبعث بذلك المال فنشتري لنا منه خادماً؟». فقال: «سيأتيك أحوج مما تكونين اليه[1]».

أردنا من خلال نقل هذه الرواية أن نبيِّن نهج عمر، في انتقاء عملائه. وليست هذه الحالة وحيدة من نوعها، لكن يبدو أن هذا النهج في حكم عمر، كان عامّاً. فمن عمَّاله على المدائن، «سلمان الفارسيّ، وكان يلبس الصوف ويركب الحمار، ببرذعة بغير إكاف، ويأكل خبز الشعير، وكان ناسكاً زاهداً، فلمّا احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقّاص: «أوصني يا أبا عبد الله». قال: «نعم أذكر الله عند همّك إذا هممت وعند لسانك اذا حكمت وعند يدك إذا أقسمت»، فجعل سلمان يبكي فقيل له: «يا أبا عبد الله ما يبكيك؟». قال: «سمعت رسول الله (صلعم) يقول: ـ إنّ في الآخرة عقبة لا يقطعها إلاّ المخفُّون ـ وأرى هذه الأساود حولي» فنظروا فلم يروا في البيت الاّ ركوة وأداوة وقدراً ومطهرة».

وإنّ أبا عبيدة ابن الجرَّاح، الذي ولاَّه عمر مكان خالد بن الوليد «كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي، فعُذل على ذلك وقيل له: «إنّك بالشأم والي أمير المؤمنين، وأمير الجيش وحولنا الأعداء؛ فغيِّر من زيّك وأصلح من آلتك». فقال: «ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله[2]».

أمام هذه الوقائع يصبح من الطبيعيّ ألاَّ يرضى خليفة هذه سياسته بأن يتولّى دمشق رجل، يدفع عشرة آلاف درهم لشاعر يمدحه، ويبذخ، ويشوّه صورة الإسلام.

---

١ ـ المسعودي، ج ٣ ص ٤٨ ـ ٤٩

٢ ـ المسعودي، ج ٣ ص ٤٩

وقد تكون الصورة الأكثر تعبيراً عن هذه الحقيقة، تلك التي تركها لنا تيوفانس عن زيارة عمر بن الخطّاب، أمير المؤمنين، وصاحب الجيوش الجرّارة التي قهرت البيزنطيين، إلى بيت المقدس، وكان لزيارته وقع في نفوس نصارى المدينة لا يقلّ شأناً عن وقعه في نفوس المسلمين.

قال: «دخل المدينة المقدّسة، لابساً ثوباً رثّاً من وبر الجمل، وعلى محيّاه دلائل التقوى والورع، ثمّ طلب إلى أعوانه أن يُروه هيكل اليهود الذي بناه سليمان لكي يؤدّي صلاته فيه[1] ...»..

وعندما فتح المسلمون مصر بعهد عمر، وأرسل حاكمها وفداً مفاوضاً لقادة الفتح، فلمّا عاد رجال وفده سألهم: «كيف رأيتم القوم؟» فأجابوا: «رأينا قوما الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحبّ إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة، ولا مهمّة، إنّما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيِّد فيهم من العبد، وإذا حضرَت الصلاة لم يتخلّف عنها منهم أحد[2]».

إنّ ذلك الخليفة، الذي «ظلّ حتّى يومه الأخير رجلاً على غاية من البساطة والتقتير في عيشه، وظلّ أميناً وفيّاً لرسالته» قد لا يصحّ أن نفهم من الكتاب الذي جاء فيه عن أسباب عزله لخالد «... أنّ الناس فخّموه وفتنوا به، فخفِت أن يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أنّ الله هو الصانع...» قد لا يصحّ أن نفهم من هذا، أنّ عمر كان يضمر حسداً من خالد! إذ قد يكون من الأجدر اعتبار خوف عمر «من أن يوكل الناس» إلى نهج خالد، في الحياة، فتضيع رسالة الإسلام عن غايتها.

***

١ ـ راجع: حتّي: صانعو التاريخ العربي، ص ٥١

٢ ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، نشرة Torrey، (نيوهاڤن ١٩٢٢) ص ٦٥

بالعودة إلى الفتوحات التي جرت في عهد عمر، نجد أنّه بعد فتح دمشق، وجّه أبو عبيدة عمرو بن العاص إلى الأردنّ، وفلسطين، ثمّ أنجده بشرحبيل بن حسنة، ففتح الأردنّ عنوة، ما خلا طبريّة التي صالح أهلها على أنصاف منازلهم وكنائسهم. ثم وجّه أبو عبيدة إلى بعلبك وأرض البقاع خالد بن الوليد، حيث أنجز الفتح، ومن هناك توجّه إلى حمص، حيث لحقه أبو عبيدة، وحاصرا بجيوشهما المدينة حصاراً شديداً حتّى طلب أهلها الصلح الذي تمّ مقابل خراج قيمته مائة وسبعون ألف دينار. ثمّ دخل المسلمون المدينة وبثّ أبو عبيدة عمّاله في نواحي حمص.

غير أنّ جميع هذه الأعمال الحربيّة لا تُقاس بما جرى في اليرموك.

جنّد البيزنطيّون خمسين ألف مقاتل لصدّ المسلمين، الذين بعد مراجعتهم للخليفة، رابطوا عند سهل الواقوصة، حيث يلتقي أحد الروافد بنهر اليرموك، وكان عدد جيش المسلمين ٢٥ ألف مقاتل، وكان جيش البيزنطيّين خليطا من نصارى الشام المتعرّبين، ومن الأرمن، ومن مرتزقة لا تكنّ جماعتها شيئاً من الولاء للقسطنطينيّة، بينما كان المسلمون مصمّمين على النصر بكل مقاتل من جنودهم...

هبّت يومها عاصفة رمليّة عنيفة لم تزعج أبناء الصحراء، لأنّهم كانوا يألفون مثل هذه العواصف. وبعد مناورات... تمكّن العرب من حشر أعدائهم في مثلّث ضيّق بين واديَين، ووجوه الأعداء تواجه العاصفة، برملها الواخز كالأبر. ولم يكن لتراتيل الأساقفة الأثر الذي كان لتكبير العرب: «الله أكبر»! ومَن نجا من الجيش البيزنطيّ من حدّ السيف، إنتهى به الهرب إلى قاع الوادي، ولم ينجُ منهم سوى القليل. فكانت معركة اليرموك حاسمة فاصلة بالنسبة لمستقبل سورية التي كان البيزنطيّون يعتبرونها أفضل ولاياتهم، وأدرك هرقل الذي حشد أكبر قوّة، وعلّق عليها الآمال الجسام، خطورة الهزيمة. وكانت آخر عبارة فاه بها وهو في طريقه إلى بلاده: «عليك يا سورية السلام، ونِعم البلد هذا العدوّ[1]».

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٤٧

ولم تمضِ أيّام، حتّى سقطت قنسرين، ومنبج، وحلب، ووُضع عليها الخراج.

وكان أبو عبيدة قد أمر بجمع غنائم اليرموك، وكتب إلى الخليفة مبشّراً، فأمر الخليفة «بألاّ يحدثوا شيئاً حتى يفتحوا بيت المقدس[1]».

وبعد حصار طويل، سقط بيت المقدس - وهو المعروف بـ «إيلياء» - الذي يُعتبر ثالث المقدّسات الإسلاميّة بعد مكّة والمدينة، فدعا إذّذاك عمر قوّاده للاجتماع به في الجابية، حيث كان مقرّ قيادة جيش «الشأم»، ووصلها الخليفة (سنة ٦٣٨) راكباً جملاً ولابساً ثياباً رثّة يحيط به أعوانه وخواصُّه. ولم يكن في استقباله شيء يدلّ على عظمة القادم إليهم ورفعة مقامه، فلا أهازيج ولا قرع طبول؛ ثمّ قام بلال، مؤذّن الرسول، يدعو إلى الصلاة، وكان بلال قد انقطع عن الآذان بعد وفاة النبيّ. وأوّل بادرة بدرت عن عمر، شجبه قوّاده لقدومهم راكبين الجياد ولابسين الثياب السوريّة المزركشة المطرّزة[2]!».

وفي الجابية، «قال بلال، مؤذّن الرسول، لعمر: - يا أمير المؤمنين، إنّ أمراء أجناد الشام ما يأكلون إلاّ لحوم الطير والخبز النقيّ، وما يجد ذلك عامّة الناس! -. فما كان من عمر إلاَّ أن فرض على أمراء الشام الفاتحين أن يضمنوا له القُوت للمسلمين، بمعدّل رغيفين لكلّ رجل، وحاجته من الزيت والخلّ، كما أمر بأن تُقسم الغنائم بين الناس بالسويّة باستثناء قبيلتَي لخم وجذام، وقال: - لا أجعل من خرج من الشقَّة إلى عدوّه كمن خرج من بيته - . ولم يأبه عمر لاعتراض أحدهم إذ قال: - إن كان الله جعل الهجرة إلينا فخرجنا من بيوتنا إلى عدوّنا نحرم حظّنا[3]-؟».

رغم أنّ المدوّنات القديمة لم تاتِ على ذكر ما اتُّخذ من مقرّرات في اجتماع

---

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٤٢

٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٤٨

٣ - راجع اليعقوبي، ج ٢ ص ١٤٧

الجابية، فإنّ الظاهر يدلّ على أنّ الخليفة المسلم، قد أبقى على التنظيم الإداريّ الذي كان معمولاً به من قبل البيزنطيّين، إضافة إلى وضعه ما يشبه نظام الضرائب، من خلال ما فرض على قادته من أتاوى. وفرض عمر على من ولآهم أن يفتحوا السجلاّت للأموال التي تدخل بيت المال، لتوزّع على المسلمين بحسب قرابتهم من آل البيت، وبحسب أسبقيّتهم إلى الإسلام[1].

وعندما كان عمر في سورية، زار بيت المقدس (إيلياء) إذ كان أبو عبيدة قد كتب إليه، يُعلمه بأنّ أهل إيلياء الذين طال صبرهم (على الحصار) يطالبون بأن يكون الخليفة المصالح لهم...

وعندما قدم عمر إلى بيت المقدس، ولم يكن مضى على هجرة الرسول أكثر من ستة عشر عاماً، فتح المدينة المقدّسة صلحاً، وكتب لأهلها كتاباً، وقد اختلف المؤرخون فيما إذا كان هذا الصلح قد جرى مع اليهود أو مع النصارى، إلاّ أن المتّفق عليه عموماً هو أنّه قد جرى مع النصارى، وقد جاء في كتاب العهد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب كتبه عمر بن الخطّاب لأهل بيت المقدس. إنّكم آمنون على دمائكم وأموالكم، وكنائسكم لا تُسكن ولا تُخرب، إلاّ إن تحدثوا حدثاً عامّاً[2]».

وقبل أن يعود إلى المدينة، أذن عمر لعمرو بن العاص بأن يسير إلى مصر، بعد أن استأذنه هذا الأخير بقوله: «إنّا إن فتحناها كانت قوّة للمسلمين، وهي من أكثر الأرض أموالا ومن أعجزها عن القتال».

سقطت المدن المصريّة بيد المسلمين الواحدة تلو الأخرى، وكان سقوط العاصمة: الإسكندريّة، في أيلول (سبتمبر) ٦٤٢، وفي ذلك نصٌّ محفوظ للرسالة القصيرة التي أرسلها عمرو إلى الخليفة وجاء فيها: « ... أمّا بعد، فإنّي فتحت

---

١ - راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٤٩

٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٤٧

مدينة لا أصف ما فيها، غير أنّي أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمّام، وأربعين الف يهودي، عليهم الجزية، وأربعمئة ملهى للملوك[1] ».

وكانت شروط الصلح الذي عُقد بين المسلمين ومصر المسيحيّة يومها، مثل شروط الصلح التي فُرضت على بلاد الشام. وحافظ العرب على شؤون التنظيم القديم المتّبع في مصر. وأبقوا الموظّفين الأقباط في مراكزهم الإداريّة، وفرضوا الجزية[2]. وليس من إثبات على صحَّة الرواية التي تقول بأن عمر بن الخطّاب قد أمر بحرق مكتبة الإسكندريّة، وكان أوّل مَن ذكر هذه الرواية عبد اللطيف البغدادي بعد ستة قرون من تاريخ فتح مصر. والثابت، أنّ مصر غدت أهراء للجزيرة العربيّة كما كانت من قبل أهراء لرومة، وقد حكمها عمرو بن العاص، جاعلاً عاصمته الفسطاط.

***

في هذه الأثناء، كان الطاعون قد كثر في أرض الشام، بعد أن كان معظم المدن الفلسطينيّة قد سقط بيد المسلمين، وقد عُرف طاعون تلك السنة (٦٣٩) بطاعون عمواس، نسبة إلى قرية عمواس القريبة من القدس، والتي اشتهرت بظهور المسيح فيها لاثنين من تلاميذه. وقد قضى أكثر من ٢٥ ألف نسمة بهذا الطاعون، منهم أبو عبيدة ابن الجرّاح نفسه، الذي أصبح قبره هناك مزاراً يتبرّك به الناس.

وتقول الروايات بأنّ الخليفة كان عازماً على التوجّه إلى القدس عندما جاءه خبر طاعون عمواس، فكتب إلى أبي عبيدة يأذن له بالعودة إلى المدينة، فكان ردّ أبي عبيدة: «أفراراً من قدر الله؟» فأجاب عمر: «نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله[3] »!.

---

١ - ابن عبد الحكم، ص ٨٢
٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٥٢
٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٥٠

وقد دُوّنت هذه الرواية تبعاً لاعتبارات متناقضة، ومنها ما يذكر أنّ الخليفة عمر، كان قد خرج في تلك السنة، قاصداً الشأم، ولمَّا بلغ سرغ[1]، بلغــه أنّ الطاعون قد كثر، فرجع فلقيه أمراء الشام وكلّمه أبو عبيدة ابن الجرَّاح «أشدَّ كلام» وقال: «أفرار من قدر الله تعالى؟» فقال عمر: «نعم أفرّ من قدر الله إلى قدر الله[2]».

وكان في العام نفسه، قد أصاب أهل الجزيرة جرب وقحط ومجاعة، كان ذلك في السنة الثامنة عشرة للهجرة، وقد عُرفت بعام الرمَّادة. وقد أجرى عمر الأقوات في تلك السنة على عيالات قوم من المسلمين، وأمر أن تكون نفقات أولاد اللقط ورضاعهم من بيت المال.

في الوقت نفسه، كان قد بدأ إعمار الكوفة، حيث نزل المسلمون ومعهم من أصحاب الرسول ثمانون رجلاً، وراحوا يعمّرون المنازل ويشيّدون المباني، وقد تمكّن عيّاض بن غنم الفهريّ الذي وجّهه أبو عبيدة إلى الجزيرة، من فتح الرقّة وسروج والرها ونصيبين وسائر مدن الجزيرة، صلحاً، ووضعاً للخراج.

***

في مدوّنات فتح بلاد فارس، إضطراب. فمنهم من يجعله في العام الرابع عشر للهجرة، ومنهم من يجعله بعد ذلك بسنتين، وأحياناً أربع. والثابت أنّ الخليفة كان قد أمر بغزو بلاد فارس، بحسب الواقديّ[3]، عندما قام عمر في المسجد «فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ دعا الناس إلى الجهاد وحضّهم عليه وقال: ـ إنّكم قد

---

١ ـ سرغ: قد تكون سرغايا من محافظة الشام.

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٤٩ (وقد تكون هذه الرواية أقرب إلى الواقع، لأنّها تحدد مكان الحديث الذي جرى بين عمر وأبي عبيدة. إذ لا يمكن أن يكونا قد تحادثا من دون لقاء! وليس من ذكر في المدونات لانتقال ابي عبيدة إلى الجزيرة في هذه الحقبة ـ المؤلف)

٣ ـ الواقدي (محمد بن عمر) (٧٤٧ ـ ٨٢٢) من أقدم المؤرخين في الاسلام. ولد بالمدينة وأقام ببغداد حيث تولى قضاءها وفيها توفي. اتصل بخالد البرمكي فأجزل عليه عطاياه وقربه من الخليفة ـ المنجد ـ

أصبحتم في غير دار مقام بالحجاز، وقد وعدكم الله فتح بلاد كسرى وقيصر، فسيروا إلى أرض فارس - .

ولّى الخليفة أبا عبيد ابن مسعود قيادةَ الحملة، على أن لا يقطع أمراً دون مسلمة بن أسلم بن حريش، وسليط بن قيس، من أهل بدر.

عبر أبو عبيد الفرات بعد قهره لفرق صغيرة من الفرس ثمّ أمر ببناء جسر، ما أن عبر عليه جنوده حتى أمر بقطعه. فغدوا عمليّاً: العدوّ أمامهم والنهر خلفهم، ولا فرق، من هذه الناحية، بين النهر والبحر. ولم يأبه أبو عبيد لاعتراضات مسلمة، وسليط، الذي قال: « ... إجعل ملجأ ومرجعاً من هزيمة إن كانت ». فاتّهم أبو عبيد معاونيه بالجبن، وأمر بالالتحام مع جيش الفرس، فكانت النتيجة مأساوية على المسلمين الذين لم يألفوا مقاتلة الفيلة التي كانت فرسانهم تجفل منها، فقُتل غرقاً في الفرات من المنهزمين أكثر ممّن قُتلوا بحد السيف. وقُتل أبو عبيد نفسه، وسليط. وراح نفر من المقاتلين المسلمين يحاول عقد الجسر، وأنقذوا بذلك بضعة آلاف من رجالهم، بعد أن فقدوا أربعة آلاف غرقاً وقتلاً.

شقّ على المسلمين مقتل أبي عبيد الثقفيّ، وشقّ على عمر مقتل قائده وأربعة آلاف من جنده. فخطب ثانية في الناس وحضّهم على الجهاد وأمرهم بالتأهّب لأرض العراق، وتهيّأ عمر نفسه لقيادة الحملة، إلاّ أنّ كبار القوم عارضوا خروج الخليفة للقتال، ومنهم عثمان بن عفّان الذي نصح بإسناد قيادة الحملة إلى عليّ بن أبي طالب، لكن عليّا أبى ذلك وكرهه، فقرّ الرأي إذ ذاك على إرسال سعد بن أبي وقّاص، فكتب إليه الخليفة يأمره بالتّوجّه إلى العراق. وتوجّه في الوقت نفسه جرير ابن عبد الله البجليّ بعشرة آلاف مقاتل، وربص للفرس عند ضفّة الفرات دون أن يعبر النهر، وإذ عبر الفرس باتجاهه، صرعهم. ثمّ جاء المثنّى بن حارثة الشيبانيّ على رأس قوّة ثانية، ورابط مع جرير، حيث في المعركة الثانية قتل مهران، قائد الجيش الفارسيّ.

إثر ذلك جنّد الفرس جيشاً جرّارا للانتقام من المسلمين الذين تراجعوا إلى داخل العراق. وكان المثنّى قد أُصيب، وبعد أيّام توفّي بأرض العراق.

وسرعان ما وصل سعد بن أبي وقّاص وأتاه الرجال من محيط الشام وسواها، وأصبح جيش المسلمين بحدود الأربعين ألف رجل. بينما كان عدد الفرس المواجهين بحدود الستين ألفاً.

إلتقى الجيشان عند العُذيب، وهو على فم البر، وطرف السواد، مما يلي القادسيّة، وكان يقود الفرس رجل اسمه رستم.

في هذا اليوم من معركة القادسيّة، قُتل خمسمائة رجل من بني سعد، ما عدا سائر الناس. وكان السعديّون قد حاولوا صرع الفيلة بقيادة طلحة بن خويلد الأسديّ، وقد عُرف هذا اليوم بيوم أغواث.

ما أن أطلّ فجر اليوم الثاني، والمعارك حامية، حتى أشرفت على الميدان خيول المسلمين القادمة من الشام، وغبار حوافرها تحجب الشمس، وكان عليها هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص، في خمسة آلاف فارس، من ربيعة، ومضر، وألف من اليمن، ومعهم القعقاع بن عمرو، وكان قد مرّ شهر واحد على فتح دمشق.

حينها، أيقن أهل القادسيّة بالنصر على فارس.

وبرز القعقاع حين وصوله إلى المقدّمة، ونادى: «هل من مبارز؟»؛ فبرز إليه عظيم منهم، قال: «أنا بهمن بن جاذويه» وهو المعروف بذي الحاجب.

وإذ كان ذو الحاجب قائد جيش الفرس في يوم الجسر، يوم قُتل أبو عبيد وسليط وأربعة آلاف من المسلمين، نادى القعقاع: «يا للثأر». وسرعان ما صرع القعقاع ذا الحاجب. ورُوي أنّ القعقاع وحده قد قتل يومذاك ثلاثين رجلاً في ثلاثين حملة، وكان آخر من قتل عظيماً من الفرس، يقال له بزرجمهر.

وكان أشهر من أبلى في هذه الحرب، أبو محجن الثقفي، حتى ظنّ بعضهم أنّه «الخضر» جاء لنجدتهم.

وفي مساء اليوم الثالث للقتال، كان سقط للمسلمين ألفان وخمسمائة ما بين قتيل وجريح، وكان ذاك، يوم غماس. وقد سقط للفرس أضعاف هذا العدد. وأصبح الناس صبيحة ليلة الهرير (وتسمّى ليلة القادسيّة) والحرب ضروس، والموقف غير واضح النتائج، والكلّ بانتظار أعجوبة.

وحدث ما يشبه الأعجوبة، عندما هبّت ريح عاصفة قذفت بقائد الجيش الفارسيّ عن سريره، فسارع نحوه القعقاع ورفاقه وطاردوه حتى قتلوه. وإذ صاح قاتلُ رستم: «وربِّ الكعبة قتلت رستم...» حلّ الخوف بجنود فارس، الذين بدأوا الانهزام، فأخذتهم سيوف المسلمين، ومن لم يُقتل بالسيف، قضى غرقاً في الفرات[1].

بانتصار المسلمين في معركة القادسيّة[2]، أصبح جميع المناطق الواقعة إلى شرقيّ دجلة، تحت رحمة جيش المسلمين. وإذ كان الفرس يعتبرون دجلة خطاً دفاعيّاً حصيناً ضدّ أيّة هجمات على المدائن، أرعب خبر عبور المسلمين له، وهو في فيضانه، القيادة الفارسيّة، فأسرع الأمبراطور وحاشيته وقوّاده بالهرب، مخلّفين وراءهم الكنوز الثمينة التي تكدّست في إيوان كسرى عبر القرون.

وهكذا، وقعت أعظم مدينة في غربيّ آسية في يد المسلمين، وهي المدينة التي كانت وارثة نينوى وبابل ومنافسة القسطنطينيّة، واعتُبر دخولها أعظم يوم في تاريخ العرب العسكريّ، وهو اليوم الذي أذّن المؤذّن فيه من على شرفات إيوان كسرى[3].

---

١ ـ المسعودي، ج ٣ ـ ص ٥٠ ـ ٦٢

٢ ـ اختلف المؤرخون في تحديد زمن معركة القادسية. فالواقدي يذكرها في العام السادس عشر للهجرة (٦٣٧) وأبو بكر محمد بن اسحاق، صاحب السيرة النبوية، والمتوفي سنة ٧٦٨، يذكر انها وقعت في السنة الخامسة عشرة للهجرة (٦٣٦). بينما علي بن محمد المدائني (٧٥٢ ـ ٨٣٩) المؤرخ العربي الشهير، يذكر أنها حصلت في السنة الرابعة عشرة للهجرة (٦٣٥). إلاّ أن الأكثرية من المؤرخين، اعتمدت السنة السادسة عشرة للهجرة (٦٣٧) زمناً لمعركة القادسية. حتّي، ذكرها في ربيع ٦٣٧ ـ المؤلف ـ

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٥٥

أمَّا ما غنمه العرب من ثروات، فقد بهر المحاربين، ويحقُّ لهم أن يُبهروا، فالثروة كانت ثروة قصر كسرى.

وراحت المدن الفارسية تقع تباعاً بأيدي المسلمين. أمَّا الأمبراطور الهارب، يزدجرد، فقد قتله أعوانه الذين رأوا في هربه انهزاماً لبلاد فارس. وبذلك انتهى أمر تلك الأمبراطورية التي عمَّرت ألفاً ومائتي عام.

إلاَّ أنَّه، على ما يبدو، كان فتح بلاد فارس، سبباً مباشراً في مقتل الخليفة الثاني، أمير المؤمنين، قاهر البيزنطيّين والفرس في أقلّ من عشر سنوات: عمر بن الخطّاب.

بعد فتح فارس، لم يسمح عمر لأحد من العجم بدخول المدينة، فكتب إليه المغيرة بن شعبة يستأذنه بالسماح لغلام «نجّار، نقّاش، حدّاد، فيه منافع لأهل البلد» لأن يدخل المدينة، فأذن له عمر.

هذا الغلام، واسمه ابو لؤلؤة، كان مجوسيّاً[1] من أهل نهاوند، جاء يوماً إلى الخليفة شاكياً ثقل خراجه. إلاَّ أنَّ عمر، لم يجد أن خراجه بكثير طالما هو يحسن كلّ تلك الأعمال، فمضى عنه وهو يتذمَّر. «ثمّ مرَّ بعمر يوماً وهو قاعد، فقال له عمر: ـ ألم أحدَّث عنك أنَّك تقول: لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت؟ـ فقال أبو لؤلؤة: ـ والله لأصنعنَّ رحى يتحدَّث بها الناس ـ»؟ ومضى أبو لؤلؤة.

إعتبر الخليفة ردّ الغلام الفارسيّ بأنّه تهديد، فتمتم بقوله: «أمَّا العبد فقد توعدَّني آنفاً[2]».

صحيح أنّ الخليفة قد شعر بنوع من التهديد في جواب الغلام، ولكنّ ردّة فعله، بما قاله، كانت شيئاً من الهزء! فهو لم يدرك بالضبط خطر ما عناه الفتى!

---

١ ـ هذا ما ذكره المسعودي، ج ٣ ص ٦٤؛ بينما يقول حتّي بأن الغلام كان نصرانياً (صانعو التاريخ العربي: ص ٦١). ويلمّح آخرون إلى أنه كان «أحد الموالي... ممن يعيشون بين العرب أنفسهم ممن دخلوا الاسلام من الفرس» (سليمان مظهر. ص ٤٩١)

٢ ـ المسعودي، ج ٣ ص ٦٤ ـ ٦٥

ودخل الخليفة المسجد، ووقف عند القبلة... وبدأ الصلاة، وهو يقول: «الله أكبر».

وفجأة، سمع المصلّون خلفه صرخة خفيفة وصوتاً يهتف محشرجاً: «آه... قتلني الكلب».

وخرج المصلّون عن صلاتهم... صُرِع الخليفة! وكان عمر يخرُّ صريعاً على الأرض، وهو يتمتم: «وكان أمر الله قدراً مقدوراً».

وتلقّت الناس حولهم، فإذا أبو لؤلؤة، العبد الفارسيّ، يحاول أن يفرّ، وفي يده خنجر.. لا يقترب منه أحد الاّ طعنه. حتى بلغ جملة من أصابهم، سبعة رجال[١]، وقالوا اثني عشر رجلاً[٢]، وأسرع وراءه عبد الرحمن بن عوف فألقى عليه برنسا شلّ حركته، غير أنّ العبد الفارسيّ سارع إلى طعن نفسه، وقيل إنّ المصلّين هم الذين قطعوه إرباً[٣]. وهناك رواية أخرى تقول بأنّ عبيد الله، ابن عمر، هو الذي قتل أبا لؤلؤة وابنته وامرأته، كما أنّه قتل الهرمزان في الوقت عينه.

وهكذا قضت طعنة من خنجر مسموم بيد غلام حقير، على من كان «يجمع في شخصه في آن واحد: الإسكندر، وأرسطو، والمسيح المنتظر، وسليمان الحكيم، وتيمو أنوشروان، والإمام أبا حنيفة، وإبراهيم أدهم الصوفيّ[٤]»... وهو الرجل الذي «يحتلّ المرتبة الثانية في قائمة عظماء التاريخ العربيّ بعد محمّد، فقد كان مؤمناً، وقَف حياته في سبيل الإسلام، وقائداً يلتهب حماسة، ومقوّضاً لإحدى أعظم الامبراطوريّات في العالم، ومؤسّساً لمنصب الخلافة التي كانت قوّة تربط العالم الإسلاميّ في مدى ثلاثة عشر قرنا[٥]».

---

١ ـ سليمان مظهر، ص ٤٩١

٢ ـ المسعودي، ج ٣ ص ٦٥

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٦١

٤ ـ SHIBLI NUMANI: Umar the Great, Tv. Muhammed Salem. (Lahore, 1957) Vol: II, P. 351 وهو كاتب باكستاني.

٥ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٦٢

أمّا يوم وقوع هذا المصاب الجلل في تاريخ الإسلام، فكان «يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣[١] » (تشرين الثاني ـ نوڤمبر ٦٤٣م.).

وكان عمر بن الخطّاب، إضافة إلى كل مآثره، قد سنَّ قيام شهر رمضان، في السنة الرابعة عشرة للهجرة[٢] (٦٢١) وهو من كان إسلامه قبل الهجرة بأربع سنين[٣]، وقد «حجّ جميع سني ولايته، ما عدا الأولى منها[٤] »حيث حجّ الناسَ نيابة عنه «عبد الرحمن بن عوف ـ وكان الغالب عليه عبد الله بن عبّاس ـ وعثمان ابن عفّان[٥] ».

وهذا الأخير، هو الذي سيتولّى الخلافة الثالثة للمسلمين، وسط اضطراب للمدوّنات عن كيفيَّة اختياره.

فبينما يذكر بعضهم، أنّه «بعد أن قُتل عمر، صلَّى بالناس عبد الرحمن بن عوف، وصلَّى عليه صهيب الروميّ، وجعلها بعده شورى إلى ستّة، وهم: عليّ، وعثمان، وطلحة، والزُبَير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف. وكانت الشورى بعده بثلاثة أيّام[٦] »، يذكر بعضهم الآخر أنّه «لمَّا طُعن عمر» قال لابنه: إنّي كنت استسلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفاً، فليُردّ من مال ولْدي، فإن لم يفِ مالهم، فمال آل الخطّاب، فإن لم يفِ فمال بني عديّ، وإلاَّ قريش عامّة، ولا تعدوهم... ولمَّا حضرته الوفاة اجتمع إليه الناس فقال: إنّي قد مصَّرت الأمصار، ودوَّنت الدواوين، وأجريت العطايا وغزوت في البرّ والبحر، فإن أهلك، فالله خليفتي عليكم، وسترون رأيكم. إنّي قد تركتكم على الواضحة، إنّما أخاف عليكم

---

١ ـ اليعقوبي، ج٢ ص ١٥٩
٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٤٠ ؛ المسعودي، ج ٣ ص ٦٤.
٣ ـ المسعودي، ج ٣ ص ٦٥
٤ ـ المسعودي، ج ٣ ص ٤٧ ؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٥٩
٥ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٥٩
٦ ـ المسعودي، ج ٣ ص ٤٧

أحد رجلين: إمّا رجلاً يرى أنّه أحقّ بالملك من صاحبه فيقاتله، عليه[1] ...» وإنّي قد قرأت في كتاب الله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة. نِكالاً من الله، والله عليكم حكيم، فلا تهلكوا عن الرجم. وقد رجم رسول الله ورجمنا، ولولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي، فقد قرأتها في كتاب الله...» وصيّر الأمر شورى بين ستة نفر من أصحاب رسول الله: عليّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبَير بن العوام، وطلحة بن عبد الله، وسعد بن أبي وقّاص، وقال: «أخرجت سعيد بن زيد لقرابته منّي، فقيل له في ابنه عبد الله بن عمر[2]، قال: حسْب آل الخطّاب ما تحمّلوا منها! إنّ عبد الله لم يحسن يطلّق امرأته. وأمر صهيباً أن يصلّي بالناس حتى يتراضوا من الستة بواحد. واستعمل أبا طلحة زيد بن سهل الأَنصاريّ، وقال: إن رضي أربعة وخالف اثنان، فاضرب عنق الاثنين. وإن رضي ثلاثة وخالف ثلاثة، فاضرب أعناق الثلاثة الذين ليس فيهم عبد الرحمن. وإن جازت الثلاثة أيام ولم يتراضوا بأحد، فاضرب أعناقهم جميعاً.. وكانت الشورى بقيّة ذي الحجة سنة ٢٣، وصهيب يصلّي بالناس، وهو الذي صلّى على عمر، وكان أبو طلحة يدخل رأسه اليهم ويقول: العجَل العجَل، فقد قرب الوقت، وانقضت المدّة[3] ...».

غير أنّ المسعوديّ، يذكر في مكان آخر، أنّه بعد أن طُعن عمر، «دخل عليه ابنه عبد الله وهو يجود بنفسه، فقال له: يا أمير المؤمنين إستخلِف على أمّة محمّد فإنّه لو جاءك راعي إبلك أو غنمك وترك إبله أو غنمه لا راعي لها للمته وقلت له: كيف تركت أمانتك ضائعة؟ فكيف يا أمير المؤمنين بأمّة محمّد؟ فاستخلِف عليهم! فقال (عمر): «إن أَستخلف عليهم فقد استخلَف عليهم أبو بكر، وإن أتركهم فقد تركهم رسول الله» فيئس منه عبد الله حين سمع ذلك منه[4].

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٠ ومكان النقط بياض في الاصل

٢ ـ خلَف عمر ستة ذكور هم: عبد الله، عبيد الله، عبد الرحمن، عاصم، زيد، وأبو عبيدة الله. إضافة إلى حفصة زوجة الرسول، وفاطمة وبنات أخر: المسعودي: ج ٣ ص ٦٥؛ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٠

٣ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٥٩ ـ ١٦٠

٤ ـ المسعودي، ج ٣ ص ٦٥

على أيِّ حال، فمن المتّفق عليه، أنّه قبل انقضاء ثلاثة أيام تمّ اختيار عثمان ابن عفّان من بين الستة الذين قاموا بالشورى ليتولّى الخلافة الثالثة للمسلمين، بعد عمر بن الخطّاب.

وبذلك، صارت مسيرة الإسلام على مشارف مفترقات خطيرة. وشيئاً فشيئاً، ستتحوَّل تلك الروح الرسوليّة الوثّابة عن الخط الذي وضعه الرسول، لتتشعّب في تقاطعات ومنعطفات قد يكون توقّع بعضَها عمر، بنافذ بصيرته وثاقب رؤيته. ويتّضح ذلك في ما رُوي عن ابن عبَّاس[1] أنّه قال: «طرقني عمر بن الخطّاب بعد هدأة من الليل، فقال: أخرج بنا نحرس نواحي المدينة! فخرج، وعلى عنقه درَّته، حافياً، حتّى أتى بقيع الغرقد، فاستلقى على ظهره، وجعل يضرب أخمص قدميه بيده وتأوَّه صعداً. فقلت له: يا أمير المؤمنين ما أخرجك إلى هذا الأمر؟ قال: أمر الله يا ابن عبّاس!».

وإذ امتنع الخليفة عن الإفصاح عمَّا يغمّه، أسمعه ابن العباس كلاماً فحواه أنّه يعتقد بأنّ ما يغمّ عمر، إنّما هو أمر الخلافة من بعده، فقال عمر: «صدقت!» فقال له ابن العبّاس: أين أنت من عبد الرحمن بن عوف؟ فقال الخليفة: ذاك رجل ممسك، وهذا الأمر لا يصلح إلاَّ لمعطٍ في غير سرف ومانع في غير إقتار».

وفي تتمّة ما نُقل عن لسان ابن العبّاس:

«فقلت: سعد بن أبي وقّاص؟ قال: مؤمن ضعيف! فقلت: طلحة بن عبد الله؟ قال: ذاك رجل يناول للشرف والمديح، يعطي ماله حتى يصل إلى مال غيره، وفيه بأو وكبر. فقلت: فالزبير بن العوام فهو فارس الإسلام؟ قال: ذاك يومٌ إنسان ويومٌ شيطان، وعفّة نفس، إن كان ليكادح على المكيلة من بكرة إلى الظهر حتى

---

١ ـ ابن عباس (عبد الله) توفي سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٧م. ابن عم النبي. لقّب «حبر الأمة» حضر صفّين مع عليّ. كان سديد الرأي. روى الكثير من حديث الرسول. حاول التوفيق بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ـ المنجد ـ

يفوته الصلاة. فقلت: عثمان بن عفّان؟ قال: إن وُلّي حمّل ابن أبي معيط وبني أميَّة على رقاب الناس، وأعطاهم مال الله، ولئن وُلّي لَيفعلنّ والله، ولئن فعل لتسيرنَّ العرب إليه حتى تقتله في بيته. ثمّ سكت... ثم قال: أمضها يا ابن عبّاس!».

أي أنّ عمر، قال لابن العباّس، «أكمل! أكمل باستعراض الأسماء»! ثمّ ألمع عمر إلى عليّ بن أبي طالب بقوله: أترى صاحبكم (المقصود عليّ) لها موضعاً؟

ويكمل ابن العبّاس: «فقلت: وأين يتبعَّد من ذلك مع فضله وسابقته وقرابته وعلمه؟ قال: هو والله كما ذكرت ولو وُلّيهم تحمَّلهم على منهج الطريق، فأخذ المحجّة الواضحة، إلاّ أنّ فيه خصالاً: الدعابة في المجلس، واستبداد الرأي، والتبكيت للناس مع حداثة السنّ...، ثمّ قال: والله يا ابن عبّاس إنّ عليّاً ابن عمّك لأحقّ الناس بها، ولكنّ قريشاً لا تحتمله، ولئن وُلّهم ليأخذنَّهم بمرّ الحقّ لا يجدون عنده رخصة، ولئن فعل لينكُشُنَّ بيعته ثمَّ ليتحاربُنّ[1]!...».

يتّضح من ذلك تماماً، لِمَ لَمْ يعيّن عمر خليفة له، فهو ما أراد أن يتحمّل وزر العاقبة، وهو غير مرتاح لأحد في تولّيها. وقد صدقَت فيما بعد توقّعات عمر، الذي كان آخر من دُفن في قبر الرسول.

عثمان بن عفان... والثورة

إذا كان عمر بن الخطّاب، قد فضّل اتّباع خطى رسول الله في أمر عدم تعيين الخليفة من بعده، ولم يتّبع في ذلك خطى أبي بكر، الذي عيَّن عمرَ بذاته، فذلك لقناعة منه بأنّ أحداً لن يستطيع أن يسوس المسلمين، وقد كثروا، كما يجب. ذلك على الأقلّ ممّن لا يصحّ تعيين أحد من سواهم، لاعتبارات شتّى. وأمام هذا الوضع القلق، جعل عمر الستّة الأفضل، يختارون من بينهم واحداً بخلال ثلاثة أيّام.

---

١ - راجع اليعقوبي، ج ٢ ص ١٥٨

ولسنا ندري إن كان عمر، بثاقب بصيرته، قد أدرك أنّ خيار هؤلاء لن يقع حكماً على الأقوى. إنّما هذا الذي حصل فعلاً.

وقد كان الأقوى، من دون شكّ، ابن عمّ الرسول، وصهره، ووالد حفيديه من ابنته فاطمة اللذين لا أحفاد للرسول سواهما. وبالرغم من كل المؤهّلات التي كان يتمتّع بها عليّ، فإنّ خيار الخمسة الآخرين، لم يقع عليه.

وما دُوِّن عمّا حصل في شأن ذلك الانتخاب، إذا صحّ التعبير، هو أنّ أحد الأعضاء الستّة الشورى الذين سمّاهم عمر حين وفاته وأمر بأن ينتخبوا منهم خليفة بخلال ثلاثة أيّام، وهو عبد الرحمن بن عوف الزهريّ، في بداية الاجتماع، سأل زملاءه «أن يُخرج نفسه منها على أن يختار منهم رجلاً، ففعلوا ذلك». أي أنّه اقترح ألاّ يكون مرشّحاً للخلافة، على أن يفوّضوا إليه أمر اختيار واحد من الخمسة الباقين، خليفة، فقبلوا.

«أقام عبد الرحمن ثلاثة أيام، وخلا بعليّ بن أبي طالب، فقال: لنا الله عليك، إن وُلّيت هذا الأمر، أن تسير فينا بكتاب الله وسنّة نبيّه وسيرة أبي بكر وعمر؟ فقال عليّ: لكم أن أسير فيكم بكتاب الله وسنّة نبيّه ما استطعت. فخلا بعثمان فقال له: لنا الله عليك، إن وُلّيت هذا الأمر، أن تسير فينا بكتاب الله وسنّة نبيّه وسيرة أبي بكر وعمر؟ فقال: لكم أن أسير فيكم بكتاب الله وسنّة نبيّه وسيرة أبي بكر وعمر. ثمّ خلا بعلّي، مرّة ثانية، فقال له مثل مقالته الأولى، فأجابه مثل جوابه الأوّل. ثمّ خلا بعثمان، مرّة ثانية، فقال له مثل المقالة الأولى. فأجابه مثل ما كان أجابه. ثمّ خلا بعليّ، مرَّة ثالثة، فقال له مثل المقالة الأولى، فقال (عليّ): إنّ كتاب الله وسنّة نبيّه لا يحتاج معهما إلى أجيرَي أحد[1]. أنت مجتهد أنْ تزوي هذا الأمر عنّي. فخلا، للمرّة الثالثة، بعثمان، فأعاد عليه القول، فأجابه بذلك الجواب، وصفّق على يده... وخرج عثمان، والناس يهنّئونه[2]»....

---

١ ـ اجيري أحد: وكالة أحد: «إن كتاب الله وسنة نبيه لا يحتاج معهما إلى وكالة أحد» ـ المؤلف.

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٢

لا يمكن أن يكون عبد الرحمن بن عوف الزهريّ، قد استطاع ان يتمتّع بسلطة تعيين الخليفة، على ما لهذا الشأن من أهمّيّة، من دون تفاهم مع سائر الأعضاء، باستثناء عليّ. إلاّ أنّ كلّ هذا، يبقى من التكهّنات، ولا يمكن لرأي أن يكون فاصلاً في هذا الأمر، على ما سوف يكون له من خطورة، بلغت حدَّ انقسام الإسلام، واقتتاله.

عثمان، قرشيّ، هو الآخر، من عائلة أميَّة، من تجار مكّة الكبار، إعتنق الإسلام على يد أبي بكر. بينما كان عليّ، ثاني أو ثالث من اعتنق الإسلام، على يد الرسول، وهو هاشمي، وابن أبي طالب، عمّ الرسول الذي أوى محمّداً وربّاه يوم كان يتيماً. ولعليّ، مآثر كبرى، وبطولات، وصولات وجولات، في معارك الرسول الأولى، إبّان بدر وسواها.

جامع آخر، يجمع عثمان إلى عليّ، إضافة إلى قريش، والإسلام، هو أنّهما، صهرا الرسول. وفيما عدا ذلك، فالرجلان على طرفي نقيض، وأبرز ما في ذلك: ضعف عثمان، وقوّة عليّ.

وتبدأ المشاكل، في اليوم الأوَّل من ولاية عثمان، إذ ما أن خرج الخليفة الجديد من خلوة الشورى، وراح الناس يهنّئونه، وكان ذلك في مستهلّ محرّم سنة ٢٤ هـ. (تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ٦٤٣م.) حتّى صعد عثمان المنبر، وجلس في أرقى درجاته في الموضع الذي كان يجلس فيه الرسول، والذي جلس أبو بكر، الخليفة الأوّل، دونه بدرجة، إحتراماً للرسول، وجلس عمر، الخليفة الثاني، دونه بدرجتين، إعتباراً للرسول ولأبي بكر.

وكان ذلك أوَّل ما نفّر الناس من عثمان، حتّى إنّ بعضهم قال: اليوم وُلد الشرّ.

وأين وقفة عثمان المرتجف، المتلعثم في كلامه، على المنبر، من وقفة عمر التي تعوّدها الناس، وقد كان ذلك المديد الأصلع، الشديد الأدمة، ذا اللحية الكثّة

المحنّاة، صاحب الصوت الجهوريّ، والكلمة الحديديّة الثابتة. بينما عثمان، مربوع القامة، رقيق البشرة، عظيم الكرداس، كثير شعر الرأس واللحية، وأسنانه مشدودة بالذهب.

إرتجّ عثمان على المنبر، وبقي طويلاً لا يتكلّم، ثم قال: «إنّ أبا بكر وعمر كانا يُعدّان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام يشقّق الخطب، وإن تعيشوا فسيأتيكم الخطبة[1] ...» ثمّ نزل.

طبيعيّ، أن تشعر النخبة بشيء من الخيبة، ومن سوء الظنّ في ما يمكن تفسيره لقول عثمان من هزءٍ بخطابة كلٍّ من أبي بكر وعمر، وبعَدْلهما.

ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ، إذ خرج عثمان مساء إلى المسجد، لصلاة العشاء، وبين يديه شمعة! فلقيه المقداد بن عمرو، وقال له: ما هذه البدعة؟!

واستشرت النقمة... ومال قوم مع عليّ بن أبي طالب، وراحوا ينتقدون عثمان «ويتحاملون بالقول عليه». فجثى المقداد بن عمرو على ركبتيه داخل المسجد في المدينة «وراح يتلهّف وكأنّ الدنيا كانت له فسُلبها، وهو يقول: واعجباً لقريش ودفعهم هذا الأمر على أهل بيت نبيّهم، وفيهم أوّل المؤمنين، وابن عمّ رسول الله أعلم الناس وأفقههم في دين الله وأعظمهم غناءً في الإسلام، وأبصرهم بالطريق، وأهداهم للصراط المستقيم، والله لقد زووها عن الهادي المهتدي الطاهر النقيّ، وما أرادوا إصلاحاً للأمّة ولا صواباً في المذهب، ولكنّهم آثروا الدنيا على الآخرة، فبُعداً وسحقاً للقوم الظالمين»... وعندما سُئل عمّن يقصد بهذه الصفات الحميدة، قال: «إنّه عليّ بن أبي طالب[2]».

هنا، حرَّضه أحدهم «لأن يقوم بهذا الأمر»، أي أن يبدأ انتفاضة تهدف إلى تولية عليّ مكان عثمان، فقال: «إنّ هذا الأمر لا يجري فيه الرجل ولا الرجلان».

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٣

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٣

ولكن، سرعان ما انضمّ إلى هذا الرأي، أبو ذرّ، ثم عبد الله بن مسعود، وسواهما.

وبينما كان القوم يتآلفون ضدّ عثمان، برز آخرون يحمّلون عثمان دم الهرمزان.

فإنّ الهرمزان، وهو القائد الفارسيّ الذي أُسر قبيل معركة القادسيّة، كان قد قُتل، على ما رُوي، على يد ابن عمر: عبيد الله، الذي قتل الهرمزان انتقاماً لأبيه عمر، بعد أن اغتيل على يد المولى الفارسيّ، أبي لؤلؤة. ورُوي أنّ الهرمزان، عندما أحسّ بالسيف، قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله. وكان عبيد الله قد قَتل أيضاً، انتقاماً، زوجة قاتل أبيه: أبي لؤلؤة، وابنته الطفلة. والإسلام لا يسمح بقتل مسلم بريء، وهو الهرمزان، وامرأة لا ذنب لها، وطفلة لا شأن لها في كلّ ما جرى. وإذ تولّى عثمان الخلافة، أفرج عن عبيد الله، ممّا أثار نقمة الموالي بشدة.

أمّا الموالي، فيذكر أحد المحقّقين المحدثين، أنّهم «أولئك الذين كانوا يعيشون بين العرب أنفسهم، ممّن دخلوا الإسلام من الفرس، جاؤوا كأسرى حرب أو كصنّاع وتجّار ورقيق. وإذا كان بعض هؤلاء قد دخل الإسلام عن إيمان حقيقيّ به، إلاّ أنّ الإسلام لم يبلغ في قلوب بعضهم الآخر مبلغاً كبيراً، بل ربّما انطوت هذه القلوب على غير قليل من الحقد على هؤلاء العرب الذين مزّقوا أوصال بلادهم ووطئوا بأقدامهم سيادتها. وكان هؤلاء الحاقدون من أوّل أسباب الفرقة والخلاف بين المسلمين. وإذا كان مقتل عمر قد جاء على يد واحد منهم، فإنّ الفتنة التي حدثت بعد ذلك، أيام عثمان، ثمّ ما تبعها من انقسام المسلمين وظهور مختلف الفرق والأحزاب التي خرج بعضها على الإسلام نفسه، وإن تظاهر بالإيمان والشدّة فيه... كان وراءها نفس هؤلاء الحاقدين[1] ...».

---

١ ـ سليمان مظهر، ص ٤٩٢

وإذ كثر المطالبون بالاقتصاص من قاتل الهرمزان، صعد عثمان إلى المنبر، وخطب بالناس قائلاً: «إنّي وليّ دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر، وتركته لدم عمر». فقام المقداد بن عمرو فقال: «إنّ الهرمزان مولًى لله ولرسوله، وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله». قال عثمان: «فننظر وتنظرون». أي ما معناه: سنرى! ثمّ أخرج عثمان عبيد الله من المدينة إلى الكوفة، وأنزله داراً، فنُسب المكان إليه: كويفة ابن عمر[1].

لم تقتصر عوامل النقمة الشعبية ضدّ عثمان، على كلّ هذا. فإذا كان إقصاء عليّ بن أبي طالب عن الخلافة قد أثار نقمة الهاشميّين من قريش والمقرّبين منهم، وقضيّة الهرمزان قد أثارت نقمة الموالي، وبعض تصرّفات عثمان، لجهة اعتلائه مرقاة الرسول في المسجد ولجهة بدعة حمل الشمعة بخلال الصلاة، إضافة إلى عدم قدرته على التفوّه، قد أثارت المتديّنين، فإنّ إجراءات وتصرفات أخرى من قبل عثمان، قد أثارت غير هؤلاء أيضاً ضدّه. منها تقريبه بعض من كان الرسول قد أبعدهم عن المدينة، ومنها إبعاده من كان لهم شأن في المدينة، ومنها ما نُسب إليه من «إثراء غير مشروع، ومن تصرّف بأموال بيت المسلمين، ومن إغداق هذا المال على أقربائه. أضف إلى ذلك ظهور الغنى الفاحش في أوساط الذين ولاّهم، وابتعاد بعضهم عن سنّة الله، ورسوله». وسوف يقتصر العرض على نماذج من كلّ هذه الاحوال.

فقد حضر مجلس عثمان ذات يوم، كعب الأحبار[2] وأبو ذرّ الغفاري، وهو صحابي من أقدم المؤمنين، إشتهر بتقواه وتقشّفه. وفي هذا المجلس، قال عثمان: «أرأيتم من زكا ماله هل فيه حقّ لغيره؟» فقال كعب: «لا يا أمير المؤمنين»، فدفع

---

١ ـ راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٣ ـ ١٦٤

٢ ـ هو أبو اسحق كعب بن ماقع الملقب بكعب الاحبار. توفي سنة ٣٢هـ / ٦٥٢م. من أقدم رواة الحديث. كان يهودياً يمنياً فاعتنق الاسلام وقدم المدينة في أيام عمر. ثم خرج إلى الشام فاستصفاه معاوية وجعله من مستشاريه. توفي في حمص ـ المنجد ـ

أبو ذرّ في صدر كعب وقال: «كذبت يا ابن اليهودي»!، ثم تلا: «ليس البرُّ أن تولُّوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب[1] »؛ فقال عثمان: «أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه؟» فقال كعب: «لا بأس بذلك»؛ فرفع أبو ذرّ العصا فدفع بها في صدره وقال: «يا ابن اليهوديّ ما أجرأك على القول في ديننا؟». فقال عثمان له ـ لأبي ذرّ ـ : «ما أكثر أذاك لي! غيِّب وجهك عنّي فقد أذيتني[2] ».

وإذ طرد عثمان أبا ذرّ، كان لا بدّ من حدوث تململ من قبل المؤمنين. فانتقل أبو ذرّ إلى بلاد الشأم، حيث اجتمع إليه الفقراء والصعاليك، وكان يروي لهم أحاديث الرسول بذمّ الأغنياء، ونعى على معاوية الترف والإثراء والإسراف بمال المسلمين. «فكتب معاوية إلى عثمان: إن أبا ذرّ تجتمع إليه الجموع ولا آمَن أن يفسدهم عليك؛ فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك».

وهكذا، عرف معاوية كيف لا يحمّل نفسه وزر أبي ذرّ، إذ أمر الخليفة بإرسال الأخير إليه، فجعله معاوية «على بعير عليه قَتَب[3] يابس، معه خمسة من الصقالبة[4]، يطردون به، حتّى أتوا به المدينة، وقد تسلّخت بواطن أفخاذه وكاد يتلف؛ فقيل له: «إنّك تموت من ذلك!». فقال: «هيهات لن أموت حتّى أُنفى». وذكر جوامع ما ينزل به بعد، ومن يتولّى دفنه؛ فأحسن إليه عثمان في داره أيّاماً، ثم أُدخل عليه، فجثى على ركبتيه وتكلّم بأشياء وذكر الخبر في وِلد أبي العاص:

---

١ ـ سورة البقرة، ٢ : ١٧٧

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٨٣

٣ ـ قَتَب: القَتَب: ما يجعل على ظهر البعير كالسرج: الرَّحْل. ـ المنجد ـ

٤ ـ الصقالبة: SLAVES، هم عند مؤرخي العرب الشعوب السلاقية القاطنة بين جبال أورال والبحر الادراياتيكي في أوروبة الشرقية والوسطى. وهم فرعان: صقالبة الشمال (الروس والروس البيض والبولونيون) وصقالبة الجنوب أو اليوغوسلاڤيون (الصرب والكرواتيون والسلوڤاكيون والبلغاريون). أطلق العرب اسم الصقالبة على جماعة من العبيد المجنَّدين في الخدمة العسكرية وهم إما من الصقالبة الاصليين أو من غيرهم من العبيد القادمين من الغرب. ـ المنجد ـ

إذا بلغوا ثلاثين رجلاً اتَّخذوا عباد الله خولاً، ومرّ في الخبر بطوله وتكلّم بكلام كثير... وكان في ذلك اليوم قد أُتي عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف الزهريّ من المال، فنُثرت البِدَر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم، فقال عثمان: «إنّي لأرجو لعبد الرحمن خيراً لأنّه كان يتصدّق ويقري الضيف، وترك ما ترون». فقال كعب الأحبار: «صدقت يا أمير المؤمنين». فشال أبو ذرّ العصا فضرب بها رأس كعب ولم يشغله ما كان فيه من الألم وقال: «يا ابن اليهوديّ تقول لرجل مات وخلف هذا المال إنّ الله أعطاه خير الدنيا والآخرة وتقطع على الله بذلك، إنّما سمعت رسول الله يقول: «ما يسرّني أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً». فقال له عثمان: «وارِ عنّي وجهك!». قال (أبو ذرّ): «أسير إلى مكّة؟». فقال: «لا والله!». قال: «فتمنعني من بيت ربّي أعبده فيه حتّى أموت؟». قال (عثمان): «إي والله!». قال: «فإلى الشأم؟». قال: «لا والله!» ـ قال: «البصرة؟». قال: «لا والله فاختر غير هذه البلدان». قال: «لا والله لا أختار غير ما ذكرت لك ولو تركتني في دار هجرتي ما أردتُ شيئاً من البلدان فسيّرني حيث شئت!». قال (عثمان): «فإنّي مسيّرك إلى الرَبذَة»؛ قال: «الله أكبر! صدق رسول الله صلعم قد اخبرني بكلّ ما أنا لاقٍ!». قال عثمان: «وما قال لك؟». قال: «أخبرني بأنّي أُمنع عن مكّة والمدينة وأموتُ بالربذة ويتولّى دفني نفر يردُون من العراق إلى الحجاز»...

وبُعث أبو ذرّ إلى جمل له فحمّل عليه امرأته (وقيل ابنته) وأمر عثمانُ أن يتحاماه الناس حتى يسير إلى الربذة؛ فلمّا طلع عن المدينة ومروان يسيّره عنها، طلع عليهم عليّ بن أبي طالب ومعه إبناه الحسن والحسين، وعقيل أخوه، وعبد الله ابن جعفر، وعمّار بن ياسر؛ فاعترضه مروان بقوله: «يا عليّ، إنّ أمير المؤمنين نهى الناس أن يصحبوا أبا ذرّ ويشيّعوه، فإن كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمتك»؛ فحمل عليه عليّ بن أبي طالب بالسوط وضرب بين أذنيّ ناقة مروان وقال: «تنحَّ نحّاك الله إلى النار!»، ومضى مع أبي ذرّ فشيّعهُ ثمّ ودّعه وانصرف؛ فلمّا أراد عليّ

الانصراف بكى أبو ذرّ وقال: «رحمكم الله أهل البيت إذا رأيتك يا أبا الحسن وولْدك ذكرت بكم رسول الله صلعم»... فشكا مروان إلى عثمان ما فعل به عليّ فقال عثمان: «يا معشر المسلمين من يعذرني من عليّ؟ ردّ رسولي عمّا وجّهته له وفعل، والله لنعطينّه حقّه!». فلمّا رجع عليّ إستقبله الناس فقالوا: «إنّ أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذرّ». فقال عليّ: «غَضَبَ الخيلِ على اللُّجُم»؛ ثمّ جاءَ؛ فلمّا كان بالعشيّ جاء إلى عثمان فقال له: «ما حملك على ما صنعت بمروان ولمَ اجترأت عليّ ورددت رسولي وأمري؟». قال: «أمّا أمرك فلم أردّه». فقال عثمان: «أوَلم يبلغك أنّي قد نهيت الناس عن أبي ذرّ وعن تشييعه؟». فقال عليّ: «أوَكُلّ ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحقّ في خلافه اتّبعنا فيه أمرك؟ لعمر الله لا نفعل!». قال عثمان: «أقِدْ[1] مروان». قال: «ومَّ أقيده؟» قال: «ضربت بين أذني راحلته وشتمته فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك». قال عليّ: «أمّا راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل، وأمّا أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنّك مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلاّ حقّاً!». فقال عثمان: «ولمَ لا يشتمك إذا شتمته؟ فوالله ما أنت عندي بأفضل منه»؛. فغضب عليّ وقال: «ألي تقول هذا القول وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك وأبي افضل من أبيك وأمّي أفضل من أمّك وهذه نبْلي قد نثلتها وهلمَّ فأَنثِل نبلَك!»؛ فغضب عثمان وأحمرّ وجهه فقام ودخل داره وانصرف عليّ؛ فاجتمع إليه أهل بيته ورجال من المهاجرين والأنصار؛ فلمّا كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكا اليهم عليّاً وقال: «إنّه يعيبني ويظاهر من يعيبني»، يريد بذلك أبا ذرّ وعمّاراً؛ فدخل الناس حتّى أصلحوا بينهما وقال عليّ: «والله ما أردت بتشييعي أبا ذرّ إلاّ الله تعالى[2]».

من هو عمّار، الذي قصده عثمان بقوله أنّ عليّا يظاهره على من يعيبه؟

---

١ ـ بمعنى الاقتداء. أي فَلْيكُن لمروان منك مثلما كان لك منه.

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٨٢ ـ ٨٦

هو عمّار بن ياسر، صحابيّ من المسلمين الأوائل، وممن عُذّب لإسلامه. أبوه ياسر وأمّه سميّة، أوّل شهيدين في الإسلام، ماتا في التعذيب. كان أقرب المقرّبين إلى النبيّ، هاجر إلى الحبشة والمدينة وشهد جميع المشاهد مع النبيّ.

«وقد كان عمّار، حين بويع عثمان، بلغه قول أبي سفيان صخر بن حرب (بن أمـيّة)[1] في دار عثمان عُقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أميّة؛ فقال (يومذاك) أبو سفيان: «أفيكم أحدٌ من غيركم؟» وقد كان عَميَ: قالوا: «لا» قال: «يا بني أميّة تلقّفوا تلقّفَ الكرة. والذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرَنّ إلى صبيانكم وراثة!» فانتهره عثمان وساءَه ما قال. ونُمي هذا القول إلى المهاجرين والأنصار وغير ذلك من الكلام؛ فقام عمّار بن ياسر في المسجد فقال: «يا معشر قريش، أمّا إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم هاهنا مرّة وهاهنا مرّة فما أنا بآمن أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله»... وقام المقداد[2] فقال: «ما رأيت مثل ما أوذي به أهل هذا البيت بعد نبيّهم». فقال له عبد الرحمان بن عوف[3]: «وما أنت وذلك يا مقداد؟». فقال: «إنّي والله لأحبّهم لحبّ رسول الله صلعم إيّاهم وإنّ الحقّ معهم، وفيهم يا عبد الرحمن أعجب من قريش وإنّما تطوّلهم على الناس بفضل أهل هذا البيت وقد اتّفقوا على نزع سلطان رسول الله صلعم بعده من أيديهم، وأيمُ الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصاراً لقاتلتهم كقتالي إيّاهم مع رسول الله (صلعم) يوم بدر[4]!».

---

١ ـ أبو سفيان (صخر بن حرب بن أمية) توفي سنة ٣١ هـ / ٦٥٢ م. ثري مكّي من قريش. كان من أشد المناوئين للاسلام. قاد المشركين ضد المسلمين في أحد والخندق. أسلم يوم فتح مكّة ثم جاهد مع المسلمين. وهو والد معاوية مؤسس الدولة الاموية. ـ المنجد ـ

٢ ـ المقداد بن الاسود، توفي سنة ٣٣ هـ / ٦٥٣ م. هو صحابي من الابطال. نسب إلى الأسود بن عبد يغوث. هو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الاسلام. هاجر إلى الحبشة، قاتل في بدر وأحد. لقّب «حب الله وحب رسول الله». توفي بالمدينة ـ المنجد ـ

٣ ـ عبد الرحمن بن عوف، توفي سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م: قرشي زهري. كان تاجراً واسع الثراء. من أكابر الصحابة. ثامن من أسلم في مكة. من العشرة المبشرة. هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة. روي عنه حديث كثير ـ المنجد ـ

٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٦ ـ ٨٧

وفيما هذه الأسباب تتفاعل، كانت أسباب من نوع آخر، تزيد النقمة على عثمان، الذي «كتب إلى الحكَم بن أبي العاص أن يقدم عليه. وكان (هذا) طريد رسول الله، وقد كان عثمان لمّا وُلّي أبو بكر اجتمع هو وقوم من بني أميّة إلى أبي بكر، فسألوه في الحكَم، فلم يأذن له، فلمّا وُلّي عمر فعلوا ذلك، فلم يأذن، فأنكر الناس إذنه (عثمان) له. وقال بعضهم: رأيت الحكَم بن أبي العاص يوم قدم المدينة عليه فَزَر خلق، وهو يسوق تيساً، حتّى دخل دار عثمان، والناس ينظرون إلى سوء حاله وحال من معه، ثم خرج وعليه جبّة خزّ وطيلسان[1]».

أمرٌ كهذا، لم يكن سهلاً على أهل المدينة تقبُّله، اللهمّ باستثناء بني أميّة. ومما زاد في النقمة، تحوّل نهج الخلافة الذي اتّسم بالتقشّف أيّام الرسول والخليفتين: أبي بكر وعمر، إلى النقيض تماماً. وشاعت الأخبار حول ذلك.

فقد كان عثمان «في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد[2]». بمعنى آخر، كان مبذّراً. بينما كان عمر، قد حدّد بأنّ خليفة المسلمين «يجب أن يكون مُعطياً في غير سرفٍ ومانع في غير إقتار...». وقد صدقت توقّعات عمر، بأنّه «إذا ولّي عثمان بن عفّان، حمل ابن أبي معيط وبني أميَّة على رقاب الناس، وأعطاهم مال الله، ولئن ولّي ليفعلنّ والله، ولئن فعل لتسيرنّ العرب إليه حتى تقتله في بيته[3]...».

في الواقع، سلك عثمان كما توقّع عمر، «وسلك عمّاله وكثير من أهل عصره طريقته، وتأسّوا به في فعله؛ فقد بنى عثمان داره في المدينة وشيّدها بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة؛ وذكر عبد الله بن عُتبة أنّ عثمان يوم قُتل كان له عند خازنه من المال خمسون

---

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٤

٢ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٧٦

٣ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ١٥٨

ومائة ألف دينار وألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحُنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلاً وإبلا كثيرة... وفي أيّام عثمان[1]، إقتنى جماعة من الصحابة الدور والضياع، منهم الزبَير بن العوام الذي بنى داره بالبصرة... وابتنى أيضاً دوراً بالكوفة ومصر والإسكندريّة، وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول....، وبلغ ثمن مُلك الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار... وكذلك طلحة بن عبيد الله اليتميّ ابتنى داره بالكوفة في الكناسة المشهورة في هذا الوقت بدار الطلحيّين، وكانت غلّته من العراق في كلّ يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك. وبناحية الشراة أكثرها مما ذكرنا؛ وشيّد داره بالمدينة وبناها بالجصّ والآجرّ والساج. وكذلك عبد الرحمان بن عوف الزهريّ ابتنى دارة ووسّعها، وكان على مربطه مائة فارس، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم؛ وبلغ بعد وفاته الرَّبع من ماله أربعة وثمانين الف دينار... وابتنى سعد بن أبي وقّاص داره بالعتيق فرفع سمكها ووسّع فضاءها وجعل على أَعلاها شرّافات. وقد ذكر سعيد بن المسيّب أن زيد بن ثابت، حين مات، خلّف من الذهب والفضّة ما كان يُكسر بالفؤوس، غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة الف دينار... وابتنى المقداد داره بالمدينة في أعلاها شرّافات وصيّرها مجصّصة الظاهر والباطن؛ ومات يعلى بن مُنية وخلّف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة، ما قيمته ثلاثمئة ألف دينار؛ وهذا باب يتّسع ذكره ويكثر وصفه فيما تُملّك من الأموال في أيّامه (عثمان) ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطّاب بل كانت جادّة واضحة وطريقة بيّنة؛ وحجّ عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستّة عشر ديناراً وقال لولده عبد الله: «قد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا[2]».

إضافة إلى كلّ هذا، روى بعضهم «أنّ عثمان زوّج ابنته من مروان بن

---

١ ـ راجع مقدّمة ابن خلدون.

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٧٦ ـ ٧٧

الحكَم، وأمر له بخُمس غنائم غزو إفريقية التي بلغت ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار.. وزوّج عثمان ابنته من عبد الله بن خالد بن أسيد، وأمرَ له بستمائة ألف درهم، وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة... وحدّث أبو إسحاق عن عبد الرحمن بن يسار قال: رأيت عامل صدقات المسلمين على سوق المدينة إذا أمسى أتاها عثمان، فقال له: إدفعها إلى الحكَم بن أبي العاص. وكان عثمان اذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها فرضاً من بيت المال» وعندما اعترض خازن بيت المال على هذا، وطالب الخليفة بردّ هذه الأموال إلى بيت المسلمين، جعل عثمان «يدافعه ويقول له: يكون فنعطيك إن شاء الله، فألحّ عليه، فقال: إنّما أنت خازن لنا، فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت. فقال: كذبت والله! ما أنا لك بخازن، ولا لأهل بيتك، إنّما أنا خازن المسلمين. وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب، فقال: أيُّها الناس زعم عثمان أنّي خازن له ولأهل بيته، وإنّما كنت خازناً للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالك. ورمى بها، فأخذها عثمان، ودفعها إلى زيد بن ثابت[1]».

***

عند مقتل الخليفة الأصيل، عمر بن الخطّاب، كان سعد بن أبي وقّاص[2] على الكوفة (وقيل المغيرة) وأبو موسى الأشعريّ[3] على البصرة، وعمير بن سعد الأنصاريّ على حمص، ومعاوية بن أبي سفيان على بعض الشأم، وعمرو بن العاص

---

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٦ و ١٦٨ - ١٦٩

٢ - سعد بن أبي وقاص، توفي سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م. قرشي زهري. صحابي خامس السابقين إلى الاسلام. أحد العشرة المبشرة. قاتل إلى جانب النبيّ في جميع الغزوات. كان رامياً ماهراً. قاد جيوش فتح فارس، وانتصر على رستم في القادسية. اتخذ الكوفة مقرّاً له وشيَّد فيها أول مسجد. أدخله عمر في أهل الشورى للخلافة. مستجاب الدعوة. توفي في المدينة - المنجد -

٣ - أبو موسى الاشعري، توفي سنة ٤٤ هـ/ ٦٦٥م. صحابي. أحد الحكَمين مع عمرو بن العاص، اللذين رضي بهما عليّ ومعاوية في تحكيم اذرح بعد صفّين. ارتدّ بعد التحكيم إلى الكوفة وفيها توفي - المنجد - (راجع جزء الشيعة من هذا المؤلَف)

على مصر، وزياد بن لبيد البياضيّ على بعض اليمن، وأبو هريرة[1] على عُمان، ونافع بن الحارث على مكّة، ويعلى بن منية التميميّ على صنعاء، والحارث بن أبي العاص الثقفيّ على البحرين، وعبد الله بن أبي ربيعة على الجَنَد[2].

بدأ عثمان تغييراته على هذا الصعيد، بعزل عمرو بن العاص، عن ولاية مصر، وولّى مكانه عبد الله بن أبي سرح. فكان ذلك سبب العداوة بين عثمان وعمرو.

كان ذلك سنة ٢٦ هـ. (٦٤٦م.) ولم يكن قد مرّ على ولاية عثمان سنتان. وفي السنة التالية، ولّى الوليد بن عقبة بن أبي معيط[3] الكوفة مكان سعد. وصلّى (الوليد) بالناس الغداة، وهو سكران، أربع ركعات، ثم تهوّع في المحراب، والتفت إلى من كان خلفه، فقال: أزيدكم؟ ثمّ جلس في صحن المسجد، وأتى بساحر يدعى بطروى من الكوفة، فاجتمع الناس إليه، فجعل يدخل من دبر الناقة ويخرج من فيها، ويعمل أعاجيب. فرآه جندب بن كعب الآزديّ، فخرج إلى بعض الصياقلة، فأخذ منه سيفاً ثم أقبل في الزحام وقد ستر السيف حتى ضرب عنقه، ثم قال له: أحيِ نفسك، ان كنت حاذقاً! فأخذه الوليد، فاراد أن يضرب عنقَه، فقام قوم من الآزد، فقالوا: لا تقتل والله صاحبنا. فصيّره في الحبس. وكان يصلّي الليل كلّه، فنظر إليه السجّان، وكان يُكنَّى أبا سنان، فقال: «ما عذري عند الله إن حبستك على الوليد يقتلك؟» فأطلقه، فصار جندب إلى المدينة، وأخذ الوليد أبا سنان فضربه مائتي سوط، فوثب عليه جرير بن عبد الله، وعدي بن حاتم، وحذيفة ابن اليمان، والأشعث بن قيس، وكتبوا إلى عثمان مع رسلهم، فعزله وولّى سعيد

---

١ - أبو هريرة، هو عبد الرحمن بن صخر الازدي. توفي سنة ٥٩ هـ /٦٧٨م. من كرام الصحابة. لازم النبيّ مدة طويلة. تولّى إمارة البحرين ثم المدينة وقضاء مكة. روى الكثير من حديث الرسول - المنجد -

٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦١

٣ - الوليد بن عقبة (أبو ذهب) توفي سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م. أخو عثمان بن عفّان لأمّه. من فتيان قريش وشعرائهم. أسلم يوم فتح مكة. مات بالرقّة.

ابن العاص مكانه. فلمّا قدم الوليد قال عثمان: من يضربه؟ فأحجم الناس لقرابته، وكان أخًا لعثمان لأمّه، فقام عليّ فضربه؛ ثمّ بعث به عثمان على صدقات كلب وبلقين[1] ... ولّما دخل الوالي الجديد سعيد بن العاص الكوفة أبى أن يصعد المنبر إلاّ بعد «غسله من نجس الوليد ورجسه[2]».

غير أنّ سعيداً هذا، ما لبث أن استبدّ بالأموال، مما جعل مالك بن الحارث النخعيّ، الأمير الشاعر الملقّب بالأشتر، يخرج إلى الخليفة عثمان في سبعين راكباً من أهل الكوفة، «فذكروا سوء سيرة سعيد وسألوه عزله عنهم؛ فمكث الأشتر وأصحابه أيّاماً لا يخرج إليهم من عثمان في سعيد شيء».

وبينما كان وفد الكوفة في المدينة، قدم إلى المدينة عدد من ولاة الأمصار، ولا يذكر لنا التاريخ ما هي المناسبة التي جعلت هؤلاء يجتمعون إلى عثمان في الوقت نفسه، ومنهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح من مصر، ومعاوية من الشأم، وعبد الله بن عامر من البصرة، إضافة إلى سعيد بن العاص نفسه، الذي قدم من الكوفة.

في هذه الأثناء، كتب إلى الخليفة عدد من الولاة الذين في باقي الأمصار، يشكون «كسر الخراج وتعطيل الثغور».

في خضمّ هذه النقمة، جمع عثمان ولاته، وبعد عرض الحال، سألهم: «ما ترون؟» فكان معاوية أوّل المتحدّثين، وقد اكتفى بالدلالة على أن لا مشكلة فيما يتعلّق بولايته شخصيّاً، إذ قال: «أمّا أنا فراضٍ بي جندي». إلاّ أنّ بعضهم، أدلى بدلوه حول موضوع الكوفة، ومن جملة هؤلاء، عبد الله والي مصر، الذي صرّح بأنّه «ليس بكثير عزل عامل للعامّة وتولية غيره». هذا يعني أن لا بأس من الاستجابة إلى مطالبة أهل الكوفة بتنحية سعيد بن العاص. إلاّ أن سعيداً، الذي

---

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٤ - ١٦٥

٢ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٠

كان حاضراً، أشار إلى الخليفة بأنّه إذا استجاب لهذا المطلب «كان أهل الكوفة هم الذين يولّون ويعزلون». ثمّ اقترح على الخليفة أن يجهّز هؤلاء في الحروب، حتّى يتلهّوا عن «الأحاديث والخوض في المسجد». وعندما بلغ الأشتر وأهل الكوفة عمّا يجري، عاد الأشتر، بتشجيع من طلحة والزبير، إلى الكوفة قبل أن يعود سعيد، وصعد الأشتر «المنبر، وسيفه في عنقه، ثم وضعه عنه، وقال: أمّا بعد، فإنّ عاملكم الذي أنكرتم عداه وسوء سيرته قد رُدّ عليكم وأُمر تجهيزكم في البعوث، فبايعوني على أن لا يدخلها».

وعلى هذا الأساس، بايع الأشتر عشرةُ آلاف من أهل الكوفة. وبعد مبايعته، منع سعيداً من دخول الكوفة، وكتب للخليفة: «إنّا والله ما منعنا عاملك الدخول لنُفسد عليك عملك، ولكن لسوء سيرته فينا وشدّة عذابه، فابعث إلى عملك من أحببت».أمام هذا الواقع، كتب عثمان إلى أهل الكوفة: «أنظروا من كان عاملكم في أيّام عمر بن الخطّاب فولّوه». فنظروا، فإذا هو أبو موسى الأشعريّ، فولّوه[1].

قبل ذلك التاريخ، كان عثمان قد «عزل أبا موسى الأشعريّ (عن البصرة) وولّى مكانه عبد الله بن عامر بن كُرَيزْ، وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة. فلمّا بُلّغ أبو موسى ولاية عبد الله بن عامر، قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على نبيّه، ثم قال: «قد جاءكم غلام كثير العمّات والخالات والجدّات في قريش، يفيض عليكم المال فيضا[2]».

***

كانت الإنجازات التي حقّقها عثمان محدودة بالقياس إلى إنجازات الخليفة الذي سبقه. لذلك لم تكن أعمال الخليفة الثالث بارزة لتطغي على أسباب الثورة.

أمّا تلك الإنجازات، فيمكن تلخيصها في سطور.

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٠ ـ ٨١

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٦

ففي السنة الأولى من ولايته، وكان قد مضى ٢٤ سنة على الهجرة (٦٤٤م.) إفتتح المغيرة بن شعبة[١] همذان، وكتب إلى عثمان أنّه دخل الريّ وأنزلها المسلمين. وكانت الريّ قد فُتحت في حياة عمر؛ وقيل لم تفتح، ولكنها كانت محاصرة[٢].

وفي السنة التالية (٦٤٥م.) «إنتفضت الإسكندريّة، وحاربهم عمرو بن العاص، حتّى فتحها وسبى الذراري، ووجّه بهم إلى المدينة، فردّهم عثمان إلى ذمّتهم الأولى...».

«ووسّع عثمان في المسجد الحرام، وزاد فيه، (٦٤٦م.) وابتاع من قوم منازلهم، وأبى آخرون، فهدِّمت عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصاحوا بعثمان، فأمر بهم للحبس. وقال: ما جرّأكم عليّ إلاّ حلمي، وقد فعل عمر، فلم تصيحوا[٣]»... كذلك جدّد أنصاب الحرم[٤]. وفي السنة نفسها، افتتح عثمان بن أبي العاص[٥] الثقفيّ سابور.

وفي السنة الثالثة من عهده (٦٤٧م.) «أغزى عثمان الناس إفريقية، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح... وكثرت الغنائم حتّى بلغت ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار... كما افتتح معاوية قبرس... وبعد سنتين وسّع مسجد الرسول. وفي السنة التالية (٦٥٠ م.) إفتتح عبد الله بن[٦]

---

١ ـ المغيرة بن شعبة (توفي سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م) ثقفي. من دهاة العرب. صحابي. قاتل في وقعة اليمامة وفي فتوح الشام وفارس. ولاه عمر البصرة والكوفة. عزله عثمان. ثم ولاه معاوية الكوفة. شدّد التنكيل بشيعة عليّ. كان مزواجاً مطلاقاً ـ المنجد ـ

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٤

٣ ـ كان عمر بن الخطاب قد وسّع المسجد الحرام على حساب هدم بعض المنازل، إلاّ أن ذلك تمّ بالتراضي.

٤ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٤ ـ ١٦٥

٥ ـ عثمان بن أبي العاص (توفي ٥١هـ/٦٧١م.) صحابي من أهل الطائف. أسلم في وفد ثقيف، فاستعمله النبيّ على الطائف. ولاّه عمر عُمان والبحرين. له فتوح وغزوات بالهند وفارس. توفي بالبصرة ـ المنجد

٦ ـ عبد الله بن عامر القرشي، توفي نحو ٥٩ هـ/ ٦٧٩م. أمير فاتح من الولاة. ولد وتوفي بمكة. اشترك في فتوح فارس وحاز أموالاً كثيرة. ولاه عثمان البصرة (عندما كان في عمر الخامسة والعشرين) فأحسن التدبير والانشاء. التزم جانب عائشة مخالفة لعليّ. ولاّه معاوية البصرة مرة ثانية ثم صرفه عنها فأقام في المدينة ـ المنجد ـ وقد جئنا على ذكر توليته على يد عثمان

عامر نيسبور، وأبرشهر، وطوس، ومرو الروذ، والطالقان، والفارياب، وطخارستان، وسرخس، وغيرها من البلدان الفارسيّة. كما فتح حبيب بن مسلمة[1] بعض أرمينية وتولّى عليها[2] ».

وسنة ٣١هـ /٦٥٢م. «أغزى عثمان جيشاً، أميرهم معاوية، على الصائفة، فبلغوا إلى مضيق القسطنطينية، وفتحوا فتوحاً كثيرة. وصيّر عثمان إلى معاوية غزو الروم، على أن يوجّه من رأى إلى الصائفة. فولّى معاوية سفيان بن عوف الغامدي فلم يزل عليها أيّام عثمان[3] ».

ومن إنجازات عثمان، أنّه «جمع القرآن وألّفه، وصيّر الطوال مع الطوال، والقصار مع القصار من السُّور، وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جُمعت، ثم سلقها بالماء الحارّ والخلّ؛ وقيل أحرقها، فلم يبقَ مصحف إلاّ فعل به ذلك خلا مصحف ابن مسعود[4]. وكان ابن مسعود بالكوفة، فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر، وكتب إليه عثمان: «أن أشخِصْه، إنّه لم يكن هذا الدين خبالاً وهذه الأمّة فساداً». فدخل المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان: «إنّه قد قدمت عليكم دابّة سوء». فكلّمه ابن مسعود بكلام غليظ فأمَر به عثمان، فجرّ برجله حتّى كُسر له ضلعان، فتكلّمت عائشة، وقالت قولاً كثيراً».

وبعث عثمان، بعد ذلك، بالمصاحف إلى الأمصار... وأمر الناس أن يقرأوا على نسخة واحدة... وكان سبب ذلك أنّه بلغه أن الناس يقولون: قرآن آل فلان، فأراد أن يكون نسخة واحدة، وقيل: إنّ ابن مسعود كان كتب بذلك إليه، فلمّا

---

١ - حبيب بن مسلمة، فهري قرشي، قائد من كبار الفاتحين. ولاّه عثمان على آذربيجان. كان موالياً لمعاوية، رافقه في صفّين. وُلي أرمينية وتوفي فيها سنة ٤٢هـ/٦٦٢ م. ـ المنجد ـ

٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٨

٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٠

٤ - ابن مسعود (عبد الله) صحابي، هُذلي، خدم النبيّ مدة حياته. سادس من أسلم. أول من جهر بالقرآن في مكة، هاجر إلى الحبشة. أحد المبشّرين بالجنة. ممن أتقنوا تلاوة القرآن. روى عن النبيّ. توفي سنة ٣٢هـ/٦٥٢م. ـ المنجد ـ

بلغه أنّه يحرّق المصاحف، قال: «لم أرد هذا». وقيل كتب إليه بذلك حذيفة بن اليمان[1]. واعتلّ ابن مسعود، فأتاه عثمان يعوده، فقال له: «ما كلام بلغني عنك؟». قال: «ذكرت الذي فعلته بي، إنّك أمرت بي فوُطئ جوفي، فلم أعقل صلاة الظهر، ولا العصر، ومنعتني عطائي». قال: «فإنّي أقيدك من نفسي فافعل بي مثل الذي فُعل بك!». قال: «ما كنت بالذي أفتح القصاص على الخلفاء». قال: «فهذا عطاؤك، فخذه». قال: «منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطينيه وأنا غنيّ عنه؟ لا حاجة لي به». فانصرف. وأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتى توفّي[2]».

هذا جلّ ما يذكره المؤرّخون عن إنجازات عثمان. مع كلّ ما قد رافق تلك الإنجازات من إجراءَت كانت تساهم في نقمة الرعيّة، ممّا زاد في طين التململ، بلّة. ولن يطول الوقت حتّى يتحوّل ذلك التململ إلى الثورة... وهي، دون شك، الثورة الأولى في الإسلام.

***

ليس بوسْع الباحث في خلفيّات الثورة على الخليفة الثالث: عثمان بن عفّان، إلاّ أن يجد ما كان لمروان بن الحكَم من مسؤوليّة في رجرجة وضع الخليفة الذي كان قرّب مروانَ إليه، وجعله مستشاره الأوّل، حتى أصبح لمروان تأثير واضح في مواقف عثمان وتصرّفاته. حتّى إنّ بعض مواقف عثمان، تنمّ عن حبّ ومعزّة لمروان، واضحي المعالم. فبالإضافة إلى أنّ عثمان قد أزوج مروانَ ابنته، فهو كان ابن عمّه: الحكَم بن العاص، الذي كان نفاه الرسول إلى الطائف، إلاّ أنّ عثمان ردّ طريد الرسول، الحكَم، إلى المدينة، بعد أن ملك زمام الحكم، وأكرمه، ومنحه الهبات.

---

١ ـ حذيفة بن اليمان، صحابي من الولاة الفاتحين. ولآه عمر على المدائن فتغلّب على الفرس في نهاوند (٦٤٢) وغزا همذان والري. توفي بالمدائن سنة ٣٦هـ/٦٥٦م. ـ المنجد ـ

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٠ ـ ١٧١

وبمجرّد أن يكون مروان، ابن طريد الرسول، فهو لم يكن محبوباً من المسلمين عامّة. أضف إلى ذلك ما كان يتّصف به مروان من مكر، وقساوة، وما كان يخطّطه للوصول إلى الخلافة يوماً. وهذا ما سوف يحقّقه فعلاً في يوم من الايّام، عندما يصل، وبوصوله سينقل الخلافة من السفيانيّين إلى المروانيّين. إلاّ أنّ ذلك الحدث لا يزال بعيداً، يفصل بينه وبين اليوم الذي نحن بصدده سبع وعشرون عاماً.

وإذا كان المؤرّخون يحكمون على مروان، كلٌّ بحسب انتمائه، فيقسو الشيعة عليه كما لا يفعل السنّة، فإنّهم يُجمعون على أنّ عثمان كان ضعيف الشخصيّة، وعلى أنّ مروان كان له تأثير واضح عليه.

وعندما تسنّم عثمان بن عفان كرسيّ الخلافة في العام الرابع والعشرين للهجرة، كان الإسلام قد غدا مشروع أمبراطوريّة، ولم يعد أمر تدبير الأمور مقتصراً على مكّة والمدينة وبعض الجزيرة كما كان في عهد الخليفة الأوّل: أبي بكر. فإنّ الخليفة الثاني: عمر بن الخطّاب، أورث خليفته مشروع أمبراطوريّة ضمّت، إلى الجزيرة: بلاد الشأم وفلسطين وأمصار مصر وأرض العراق وبعضاً من فارس. وإذ كان الإسلام في بداية ظهوره، والمسلمون، بعضهم أسلم عن إيمان، وبعضهم عن مصلحة، وبعضهم لأسباب أخرى، لم يعد الأمر مجرّد مركز، بل، وقد أصبحت الخلافة أكثر من دولة، توجّب أن يكون الخليفة، أكثر من رمز بكثير.

فقد ذكر بعض رواة السنّة أن آخر ما قاله عمر بن الخطّاب، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، يوم طعنه الفارسيّ أبو لؤلؤة: «الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجّني عند الله بسجدة سجدها له قط.... ما كانت العرب لتقتلني». ويضيف ناقل هذا القول، بأنّ «كانت هذه هي الحقيقة، فما كان في العرب من يجرؤ على قتل عمر خليفة رسول الله! ولكن كان هناك من يعيشون بين العرب أنفسهم، ممّن دخلوا الإسلام من الفرس. جاؤوا كأسرى حرب أو كصنّاع وتجّار ورقيق. وإذا كان

بعض هؤلاء قد دخل الإسلام، عن إيمان حقيقيّ به، إلاّ أنّ الإسلام لم يبلغ في قلوب البعض الآخر منهم مبلغاً كبيراً، بل ربّما انطوت هذه القلوب على غير قليل من الحقد والموجدة على هؤلاء العرب الذين مزّقوا أوصال بلادهم ووطئوا بأقدامهم سيادتها».

وإن كرّرنا هذا الرأي، وقد ذكرناه في خبر مقتل عمر، فبهدف الإحاطة. إذ يضيف صاحبه بأنّه «كان هؤلاء الحاقدون من أوّل أسباب الفرقة والخلاف بين المسلمين. وإذا كان مقتل عمر، قد جاء على يد واحد منهم، فإنّ الفتنة التي حدثت بعد ذلك أيّام عثمان بن عفّان، ثمّ ما تبعها من انقسام المسلمين وظهور مختلف الفرق والأحزاب التي خرج بعضها على الإسلام نفسه، وإن تظاهر أصحابها بالإيمان والشدّة فيه، كلّ ذلك كان وراءه نفس هؤلاء الحاقدين».

ولكن إذا دقّقنا في أحداث الثورة على عثمان، نجد أنّ من كانوا وراءها، كانوا من كلّ الفئات، ومن جميع المشارب، ومن غير مصر. فقد اشترك فيها من أهل المدينة، كما اشترك من الموالي، ومن مصر، ومن العراق. فقد كان واضحاً «منذ أوّل خلافة عثمان، أنّ شيئاً سيحدث. فما كان عثمان بالذي يستطيع ملء مكان عمر بن الخطّاب الذي عرف كيف يسوس أمور الأمبراطورية الإسلاميّة التي اتّسعت خارج الجزيرة العربيّة اتساعاً هائلاً... وما كان الخليفة الجديد بقادر على أن يمسك بيديه المرتعشتين دفّة السفينة في حزم وقوّة كما فعل عمر في أدقّ فترة من فترات الإسلام وأخطرها... من أجل ذلك برزت عوامل النكسة لتسيطر على أقدار المسلمين، ونهض العداء الدفين للإسلام داخل الجزيرة وخارجها، يستغلّ فرصة عدم التكافؤ بين شخصيّة الخليفة عثمان، بشيخوخته وتساهله وضعفه أمام أسرته، فراح يعمل عمله في جسم الإسلام القويّ الصلب. وأطلّت العصبيّة القبليّة بوجهها الكئيب، لتجعل الأمويّين يضمرون العداء للهاشميّين الذين كانوا أعداء لهم في الجاهليّة[١]».

---

١ ـ سليمان مظهر، ص ٤٩٢

ثمّ إنّ عائشة، أمّ المؤمنين، والتي كان لا يزال لها تأثيرها الكبير في المدينة، كان لها مآخذ كبرى على عثمان. وهذا ما سوف يؤدّي، في النهاية، إلى عدم قيام أحد من أصحاب الشأن لنصرة عثمان في اليوم العصيب، وإن كان الإمام عليّ بن أبي طالب قد بذل جهوداً لمنع حصول الكارثة، بحسب روايات بعض المؤرّخين، كما سيأتي.

وقبل سرد أهمّ مجريات أحداث الثورة على عثمان، لا بدّ من الإشارة إلى بدعة دينيّة كانت قد ظهرت يومذاك، هدّدت، لأوّل مرّة، وحدة الإسلام. وهناك من يعتبرون بأنّ تلك البدعة، كانت من جملة العوامل التي أدّت إلى ترجرج وضع الخلافة. وإذا لم يكن الأمر كذلك، يكفي أن تكون تلك البدعة قد ظهرت، لتزيد من المؤشّرات على سوء إدارة عثمان.

إنّها بدعة ابن سبأ، ومذهبه الجديد. وهي فكرة قامت بنفس يهوديّ، هو ابن السوداء عبد الله بن سبأ، وهو من صنعاء، خرج منها، ونزل المدينة وتظاهر بإسلامه، وتغلغل بين صفوف الجماهير الإسلاميّة «حيث عرف مراميهم، ومقاصدهم، وعرف أنّ منصب الخلافة أصبح واهي الدعائم، تحت عثمان، وعرف أنّ النفوس تنزع إلى عليّ بن أبي طالب، وهو الرجل الذي يريد أن يستغلّ اسمه في فكرته الجديدة ومذهبه الجديد، وإن كان عليّ نفسه لا يتقبّلها ولا تنطلي عليه، وإن كانت تهدف إلى توليته وتنصيبه. ولعلم هذا السبئيّ بأنّ تربة المدينة لا تصلح لبذر فكرته ومذهبه، فلا بدّ من أن يجد لها تربة خصبة تنمو فيها وتؤتي ثمارها، وإن كان في المدينة من يتقبّل الفكرة ما دامت تقوم على رفع شأن عليّ، ففي المدينة كثير ممّن يحبّونه ويوالونه... رأى ابن سبأ أن خير تربة لفكرته هي تلك التي تكون بعيدة عن مرأى ومسمع عليّ، حتّى لا ينهض لمحاربتها... فاختار البصرة، حيث يوجد أذهان تتقبّل الفكرة ما دامت غايتها الظاهرة القضاء على الحكم القائم. وهناك، بثّ ابن سبأ مشروع دعوته القائمة على تفسير الآية: «إنّ

الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد[1] » بأنّها تعني أن محمّداً سيعود إلى الأرض. وراح يردّدها، ويقول: « العجب ممن يزعم أنّ عيسى يرجع، ويكذّب بأنّ محمّداً يرجع »... وإذ ارتاح الناس لأن يجدوا مسلماً منهم يبشّر بعودة نبيّهم ثانية إلى الحياة، وهنالك وفرة قليلة المعرفة بتفسير الآيات القرآنية، تبعه بعضهم. وراح ابن سبأ يوسّع دعوته بسمات سياسيّة كفيلة بتغيير الحكم وتبديله، ممّا زاد النفوس ارتياحاً اليه، بسبب استيائهم من الحكم القائم... وسرعان ما راح ابن سبأ يتقدّم من أنصار عليّ بن أبي طالب ومريديه في البصرة، ويفسّر مبدأه ويؤوّله ويلخّصه بالتالي:

« إنّه كان ألفا نبيّ ولكلّ نبيٍ وصيّ. وكان عليّ وصيّ محمّد، ومحمّد خاتم الأنبياء، وعليّ خاتم الأوصياء. فمن أظلم ممّن لم يُجزِ وصيّة رسول الله ووثب على وصيّ رسول الله، وتناول أمر الأمّة[2] ».

يفسّر الشيعة هذا الكلام بأنّه حقّ أريد به باطل. إلاّ أنّه كلام نزل في نفوس العامّة منزلة الرضى... وإذا كان فيهم من لم ترتح نفسه إلى « الرجعة » فقد سرّه في الدعوة المسلّمة بوصية رسول الله استخلاف ابن عمّه وصهره عليّ بن أبي طالب...

« وحين لقيت دعوة ابن سبأ آذاناً صاغية وقلوباً منفتحة... فرّق أنصاره في البلاد والأمصار، ينشرون هذا المذهب ويدعون له من بعد أن يخطّط طرق العمل بعد الكلام. قال لهؤلاء الأنصار: « إنّ عثمان قد أخذها بغير حقّ » ثم قال: « هذا

---

١ ـ جاء في تفسير هذه الآية ـ وهي خطاب للرسول ـ عند ابن عبّاس، ومجاهد، والجبائي: (إن الذي فرض عليك القرآن) أي « ان الذي اوجب عليك الامتثال بما تضمنه القرآن وانزله عليك » (لرادّك إلى معاد) أي: « يردك إلى مكة ». وقد صدقت الآية. وقال القتيبي: « معاد الرجل، بلده لأنه يتصرف في البلاد ثم يعود اليه... وقيل إلى معاد: إلى الموت ». وبعضهم اعتبر « المعاد »: يوم القيامة. وبعضهم الآخر اعتبر « المعاد »: الجنّة.

٢ ـ الامام عليّ في فضائله (مجهول المؤلف) منشورات مكتبة الحياة (بيروت) ص ٩٤ ـ ١٠٠

(عليّ) وصيّ رسول الله، فانهضوا في الأمر فحرّكوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس[1] »...

وعندما رأى والي البصرة الفتيّ، أنّ دعوة إبن سبأ قد اتّسعت وكثر أتباعه، نفاه من البصرة. فخرج هذا الأخير إلى الكوفة، مسروراً، ليبثّ دعوته في الكوفة. بيد أنّ والي الكوفة سعيد بن العاص طرده، بعد أن تمكّن ابن سبأ من تدعيم مذهبه هناك، فانتقل إلى الشأم. ولكنّ معاوية، هو الآخر، قد سارع إلى إبعاده عن الشأم «وحرّم عليه المكوث في كلّ البقاع التابعة لها »... وينتهي المطاف/بابن سبأ في مصر، وهناك حطّ رحاله، وأخذت دعوته تنمو وتنتشر حتى أصبحت مصر مقرّاً رئيسيّاً للسبئيّين.

إذن: كلّ الأجواء تلبّدت في سماء الخلافة، وأصبحت التربة مهيّأة تماماً لبذور الثورة الأولى في الإسلام. فكيف جرت؟

***

حدث ذلك في السنة ٣٥ للهجرة (٦٥٥ م.) من دون مقدّمات. فقد جاءت الوفود، في وقت واحد، من الأمصار، إلى المدينة، فسار« مالك بن الحارث النخعيّ من الكوفة في مائتي رجل. وحُكيم بن جبلة العبديّ من البصرة في مائة رجل. وعبد الرحمن بن عديس البلويّ من مصر بستمائة رجل. كذلك قدم من مصر، عمرو بن الحمق الخزاعيّ، وسودان بن حمران التجيبيّ، ومعهم... محمّد بن أبي بكر، الذي كان تكلّم بمصر، وحرّض الناس على عثمان... » والذي سيكون له اليد الطولى في مقتل الخليفة.

نزل هؤلاء جميعاً بذي خشب من المدينة. ولا يذكر لنا التاريخ كيف حصل التواعد على هذه العاميّة. إلاّ أنّ بعضهم روى أنّه « لمّا بلغ عثمان أنّ أهل مصر

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٨٧

قدموا، وعليهم السلاح، وجّه إليهم عمرو بن العاص وكلّمهم، فقال لهم: - إنّه - أي الخليفة - يرجع إلى ما تحبوّن - ... ثم كتب لهم بذلك، وانصرفوا[1] ». وبعضهم يذكر أنّ من كلّفه عثمان بالتحدّث إلى المصريّين، إنّما هو عليّ بن أبي طالب إذ «بعث - عثمان - إلى عليّ بن أبي طالب، فأخبره وسأله أن يخرج إليهم ويضمن لهم عنه كلّ ما يريدون من العدل وحسن السيرة. فسار عليّ إليهم، فكان بينهم خطب طويل فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا[2] ».

إنّما المُتَّفق عليه، أنّ المصريّين، قد غادروا متَّجهين إلى مصر، بعد حصولهم على وعد من الخليفة بأنّه سيعدل. ولكنّهم ما أن وصلوا، إذا براكب على جمل يمرّ من هناك، فاشتبهوا به، وفتّشوه، فوجدوا معه كتاباً من عثمان إلى عامله في مصر: عبد الله بن سعد، يطلب منه فيه أن يقطع أيدي أولئك الذين ساروا إلى المدينة وأرجلهم، فور عودتهم[3] ». وعلم القوم «أنّ الكتاب بخطّ مروان (بن الحكم) فرجعوا إلى المدينة[4] ... وكان على رأس هؤلاء «محمّد بن أبي بكر، ومحمّد بن أبي حذيفة، وكنانه بن بشر، وابن عديس البلويّ[5] ... ».

بعض البحّاثين يعتقد بأنّ الخليفة بريء من هذه الرسالة، إذ لا علم له بها. ومنهم من يقول بأنّها مدسوسة. ومنهم من يعتقد بأنّها من صنع مروان. إنّما حامل الرسالة، على ما يبدو، كان «ورش... غلام عثمان[6] » وبعضهم ذكره باسم «أبي الأعور ابن سفيان السلميّ[7] ».

---

١ - اليعقوبي، ج ٢ - ص ١٧٤
٢ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٧
٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٥
٤ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٨
٥ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٥
٦ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٨
٧ - الطبري، ١ : ٢٩٦٤، ١ : ٢٩٨٤

على أيّ حال، فما حصل إثر ذلك، هو أنّ القوم عادوا ثائرين غاضبين إلى المدينة، حيث اجتمعوا إلى من قدم من العراق، وتوافقوا، ونزلوا المسجد، وراحوا يتداولون في الثورة. فاتّفق رأيهم على محاصرة الخليفة حتّى النهاية.

بدأ الحصار بمنع وصول الماء إلى قصر الخليفة الذي «أشرف على الناس وقال: «ألا أحد يسقينا؟». وقال: «بماذا تستحلّون قتلي وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول: - لا يحلّ دم امرئ مسلم إلاّ باحدى ثلاث: كفر بعد إيمان أو زنًى بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس - والله ما فعلت ذلك في جاهليّة ولا في إسلام!». فبلغ عليّاً (بن أبي طالب) طلبه الماء، فبعث إليه بثلاث قرب ماء، فما وصل ذلك إليه حتّى خرج من موالي بني هاشم وبني أميّة جماعة وارتفع الصوت وكثر الضجيج وأحدقوا بداره بالسلاح وطالبوه بمروان؛ فأبى أن يخلّيَ عنه؛ وفي الناس بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنّه كان من أحلافها، وهُذيل لأنّه منها، وبنو مخزوم وأحلافها لعمّار، وغفّار وأحلافها لأجل أبي ذرّ، وتيم بن مرّة مع محمّد بن أبي بكر، وغير هؤلاء.. فلمّا رأى عليّ (بن أبي طالب) أنّهم يريدون قتل عثمان، بعث بإبنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه، نصرة له، وأمرهم أن يمنعوه منهم. وبعث الزبَير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه محمَداً، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم إقتداء بمن ذكرنا، فصدّوهم عن الدار، فرمى من وصفنا بالسهام. واشتدّ (واشتبك) القوم وجرح الحسن، وشُجّ قنبر وجُرح محمّد بن طلحة، فخشي القوم أن يتعصّب بنو هاشم وبنو أميّة، فتركوا القوم في القتال على الباب. ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوّروا عليه (على عثمان)، وكان ممّن وصل إليه محمّد بن أبي بكر ورجلان آخران. وعند عثمان زوجته وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال؛ فأخذه محمّد بن أبي بكر بلحيته، فقال: - يا محمّد والله لو رآك أبوك لساءَه مكانك! -؛ فتراخت يده وخرج عنه إلى الدار ودخل الرجلان فوجآه[1] فقتلاه، وكان المصحف بين يديه يقرأ فيه؛ فصعدت امرأته فصرخت: - قد

١ - وجأ فلانا بالسكّين أو بيده: ضربه في أيّ موضع كان - المنجد -

قُتل أمير المؤمنين ـ، ودخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بني أميّة وغيرهم فوجدوه قد فاضت نفسه، فبكوا. فبلغ ذلك عليّاً وطلحة والزبير وسعدا وغيرهم من المهاجرين والأنصار، فاسترجع القوم، ودخل عليّ الدار وهو كالواله الحزين، فقال لابنَيه: ـ كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ ـ، ولطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم محمّد بن طلحة ولعن عبد الله بن الزبير؛ فقال له طلحة: ـ لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن! لو دفع إليهم مروان ما قُتل ـ؛ وهرب مروان وغيره من بني أميّة وطُلبوا ليُقتلوا فلم يوجدوا. وقال عليّ لزوجته (زوجة عثمان) نائلة بنت الفرافصة: ـ من قتله وأنت كنت معه؟ـ فقالت: ـ دخل إليه رجلان ـ وقصّت خبر محمّد بن أبي بكر في دخوله إليه وما خاطبه به عثمان، فأُحضر محمّد بن أبي بكر فلم ينكر ما قالت وقال: ـ والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله، فلمّا خاطبني بما قال خرجت ولا أعلم بتخلّف الرجلين عنّي. والله ما كان لي في قتله من سبب ولقد قُتل وأنا لا أعلم بقتله[1] ـ».

***

إذا كان خبر حصار دار الخليفة، قبل قتله، قد اختُصر في سطور، فإنّ «مدّة ما حوصر عثمان في داره كانت تسعاً وأربعين يوماً، وقيل أكثر من ذلك[2]». وفي أمدٍ كهذا، لا بدّ من أن يكون قد حدث الكثير...

من ذلك مثلاً، أنّ الخليفة قد أرسل مروان بن الحكم إلى أمّ المؤمنين: عائشة، مستغيثاً. فقال: «يا أمّ المؤمنين! لو قمتِ فاصلحتِ بين هذا الرجل وبين الناس!». قالت: «قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحجّ». قال: «فيدفع إليك بكلّ درهم أنفقته درهمين». قالت: «لعلّك ترى أنّي في شكّ من صاحبك؟ أمّا والله لوددت أنّه مقطّع في غرارة من غرائري، وأنّي أطيق حمله، فأطرحه في البحر[3]».

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٩ ـ ٩٠

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٩٠

٣ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٦

سبب ذلك أنّه «كان بين عثمان وعائشة مناحرة، ذلك أنّه نقّصها ممّا كان يعطيها عمر بن الخطّاب، وصيّرها أسوة غيرها من نساء رسول الله؛ فإنّ هذا الخليفة قام يوماً ليخطب إذ دلّت عائشة قميص رسول الله، ونادت: «يا معشر المسلمين! هذا جلباب رسول الله لم يُبلَ، وقد أبلى عثمان سنّته!». فقال: «ربِّ اصرف عنّي كيدهنّ إنّ كيدهنّ عظيم[1]».

وقيل أنّه كان طرق «مسمعها التدهور الخلقيّ بين الناس، فنقمت على عثمان لأجله، وراحت ترميه بكلّ ما يثير عليه النفوس، ولم تقف هذا الموقف وهي الحافظة لتراث الرسول ولها من العلم ما يجعل رأيها في عثمان حكماً قاطعاً مبرماً ليس له من ينقضه أو يغضّ منه. وأطلقت عائشة لسانها ينال من عثمان وراحت تؤلّب الناس ثورة ونقمة على عثمان، فعمدت إلى قميص لرسول الله ونشرته في بيتها وكلّما مرّ به أحد قالت: «هذا قميص رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنّته[2]».

وإذا كان الرواة يختلفون في من حرّض وخطّط للثورة على عثمان، فإنّهم لا يختلفون في خبر تلكّؤ معاوية عن نصرته. ويذكر جلّهم أن الخليفة، وهو محاصر، «وأكثر من يؤلّب عليه طلحة والزبير وعائشة، كتب إلى معاوية يسأل تعجيل القدوم عليه، فتوجّه إليه في اثني عشر ألفاً، ثم قال (معاوية): - كونوا بمكانكم في أوائل الشأم، حتى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحّة أمره - . فأتى (معاوية) عثمان، فسأله عن المدّة (المدد) فقال: - قد قدمت لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيئك بهم -. قال (عثمان): - لا والله، ولكنّك أردت أن أُقتَل فتقول: - أنا وليُّ الثأر... إرجع، فجئني بالناس! -؛ فرجع... ولم يعد إليه حتى قُتل[3]».

---

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٥
٢ - الإمام عليّ في فضائله، ص ١٠٠ - ١٠١
٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٥

على أيّ حال، فإنّ المحظور قد وقع، وكان مقتل الخليفة الأمويّ، عثمان بن عفّان، ثالث الخلفاء الراشدين، «لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٣٥[١])- ١٧ حزيران - يونيو سنة ٦٥٦[٢] » - (وهو «ابن ثلاث وثمانين سنة، وقيل ست وثمانين... وكان الذين تولّوا قتله: محمّد بن أبي بكر، ومحمّد بن أبي حذيفة، وابن حزم، وقيل كنانة بن بشر التجيبيّ، وعمرو بن الحمق الخزاعيّ، وعبد الرحمن بن عديس البلويّ، وسودان بن حمران... وأقام ثلاثاً لم يدفن، وحضر دفنه حكيم بن حزام، وجُبير بن مطعم، وحويطب بن عبد العزّى، وعمرو ابن عثمان. ودُفن بالمدينة ليلاً في موضع يعرف بحشّ كوكب[٣]. وفيه مقابر بني أميّة، ويُعرف أيضاً بحلّه[٤] ». وكان لعثمان « من الولْد: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، أمّهما رقيّة بنت رسول الله؛ وأبان، وخالد، وسعيد، والوليد، والمغيرة، وعبد الملك، وأمّ أبان، وأمّ سعيد، وأمّ عمرو، وعائشة[٥].

وبمقتل عثمان، بدأ صراع خطير في الإسلام، لن تقتصر عواقبه على الخلافة، بل ستتعدّاها إلى نشوء المذاهب والطوائف والملل، ليس في مدّة محدّدة، بل على مدى الأجيال اللاّحقة.

---

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٦
٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٦٤
٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٦
٤ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٩٠
٥ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٧٥

الفصل الثالث

عليّ . . . والانقسام

- مبايعة عليّ
- يوم الجمل
- صفّين
- التحكيم . . . ومحضره
- الانقسام
- مقتل عليّ



مـــــبـــــايعــــة عليّ

أدرك عليّ بن أبي طالب قبل تسنّمه سدّة الخلافة أنّ أحداثاً مقلقة تنتظره. ونستشفّ هذا الإدراك من قوله لمن كانوا يطلبون منه القبول بالولاية: «ألا فاعلموا أنّي إن أجبتكم، ركبت بكم ما أعلم[1]». وقد يكون إدراكه هذا، السبب الرئيس في تردّده بقبول تولّي الخلافة بعد عثمان.

والواقع، أنّه «لم يكن إنسان مثل عليّ في ورعه وتقواه، وحفاظه على الشعائر الإسلاميّة، وفي تزهّده في عيشه وانصرافه عن ملاذّ الدّنيا... كما أنّ لعليّ سجلاً رائعاً في الأعمال البطوليّة في الحرب، بدأ بموقعة بدر، التي أبلى فيها بلاء حسناً وأصبح بعدها حامل راية النبيّ؛ وكان سيفه «ذو الفقار» مضرب المثل[2]». وإنّ رجلاً ورعاً تقيّاً محافظاً متزهّداً شجاعاً محارباً وأبيّاً، لا يمكن، إذا ما ترأس سلطة، الاّ أن يكون محارَباً... ومحارِباً. وقد يكون هذا ما جعل عمر بن الخطّاب، الذي تنبّأ بالثورة على عثمان، وصدق، يتنبّأ بحروب عليّ، إذ قال يوماً: «إنّ عليّاً ... لأحقّ الناس بها، ولكنّ قريشاً لا تحتمله، ولئن وُلّيهم ليأخذنّهم بمرّ الحقّ لا يجدون عنده رخصة؛ ولئن فعل لينكُثُنَّ بيعته ثمَّ ليتحاربُن[3]».

***

بعد مقتل عثمان «احتشد في المسجد (بالمدينة) جمع غفير من الناس، فيهم الصحابة، ومنهم طلحة والزّبير وسعد، وفيهم عدد وافر من أهل الكوفة والبصرة والمصريّين. ونهض رجل من المصريّين يقول: «يا أهل المدينة، إنّكم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة وأمركم عابر على الأمّة، فانظروا رجلاً تنصّبونه ونحن لكم تبع». فتعالت الهتافات من كلّ صوب: «عليّ، عليّ بن أبي طالب نحن

---

١ ـ الامام عليّ وفضائله، منشورات مكتبة الحياة (بيروت) ص ١٦٧
٢ ـ الدكتور فيليب حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٦٤
٣ ـ اليعقوبي، دار صادر (بيروت) ج ٢ ص ١٥٩

به إخوان». ثم يتابع ذلك الرجل قوله: «فدونكم، وإنّا لمؤجّلوكم يومين اثنين، فوالله لئن لم تفرَغوا لنقتلنَّ غداً عليّاً وطلحة والزبَير وأناساً من رجالكم كثيرين[1]».

وبينما كانت الوفود تتوالى إلى المسجد، حتّى غصّ وباحاته بالجموع، يتبادلون الآراء ويتذاكرون في أمر الخلافة، قام صحابيّ من المسلمين الأوائل، كان أقرب المقرّبين إلى النبيّ، والداه أوّل شهيدين في الإسلام، ماتا في التعذيب في مكّة قبل هجرة الرسول، هو: عمّار بن ياسر، يقول: «أيّها الناس، قد سار فيكم عثمان بالأمر إلى ما رأيتموه، وأنتم اليوم على شرف من الوقوع في مثله، إن لم تنظروا لأنفسكم. وإنّ عليّاً أولى الناس بهذا الأمر لفضله وسابقته». فعلت الأصوات: «رضينا به»... ومضت طوائف من هذه الجموع، وفيهم طلحة والزبَير، إلى عليّ بن أبي طالب، وهو معتزل في بيته لا يبرحه، فأحاطوا بداره حتّى أخرجوه والتفّوا حوله يهيبون به أن يقبل مبايعتهم ... غير أنّ عليّاً أجابهم «لا ... فأن أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً». وكان الهتاف: «أنت، أنت لنا رضى». ويصرُّ عليّ: «لا حاجة لي في أمركم أيّها الناس. أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت»... ويبرز من بينهم الأمير الشاعر، مالك بن الحارث الأشتر النخعيّ، ويخاطب عليّاً بشيء فيه نبوَة، إلاّ أنّها لم تُغضب عليّاً. قال الأشتر: «والله لتمدّن يدك نبايعك أو لتعصرنّ عينك عليها ثالثة». ومن جواب عليّ هنا، يبرز الإدراك الذي كان يمنعه عن الإقدام على القبول، فيقول: «دعوني والتمسوا غيري أيّها الناس. إنّا مستقبِلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تثبت عليه العقول ولا تقوم له القلوب».

واستمرّت المناشدة من قبل الجموع، إلى أن قال عليّ، بعد لأي، كلمته الأخيرة:

---

١ ـ الامام عليّ وفضائله، ص ١٥٧

«قد أجبتكم لما أرى منكم. ألا فاعلموا أنيّ إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنّما أنا كأحدكم، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم».

فصاح الجميع: «ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك». وكان موعدهم، الغد، في المسجد، وتفرّقت الجموع.

***

ما كاد يشرق صباح يوم الجمعة ١٨ ذي الحجّة سنة ٣٥ لهجرة النبي (حزيران ـ يونيو ٦٥٦) حتّى كانت الحشود تحفُّ بدار عليّ، إلى أن خرج، فالتفّوا حوله، ومشوا به إلى المسجد في عاصفة من التهليل والتكبير. وسط هذا الحماس، وصلوا المسجد، فصعد عليّ المنبر، ورحاب المسجد تضيق بالمجماهير، وقال:

«يا أيّها الناس، (...) إنّ هذا أمركم، ليس لأحد فيه حقّ إلاّ من أمّرتم، وقد افترقنا بالأمس على هذا الأمر، فإن شئتم قعدت لكم، وإلاّ فما أجدّ على أحد». وعلا هتاف: «نحن على ما فارقناك بالأمس».

ويتابع عليّ قوله:

«ألا إنّي كنت كارهاً لأمركم، فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم، رضيتم؟»

ـ «نبايعك على كتاب الله»

ويقول عليّ:

ـ «اللهمّ إشهد عليهم[1]».

وكانت المبايعة.

كان أوّل من بايعه وصفّق على يده، الصحابيّ القرشيّ التيميّ، أحد العشرة

---

١ ـ راجع: الامام عليّ وفضائله، ص من ١٥٥ إلى ١٦١

المبشّرة، وأحد أغنياء قريش: طلحة بن عبيد الله، الذي كان يلقَّب بطلحة الفيّاض، وطلحة الجود، لسخائه.

ثمّ الأشتر الذي قال: «أبايعك يا أمير المؤمنين على أن عَليَّ بيعة أهل الكوفة».

ونهض صحابيّ آخر، قرشيّ أسديّ، ابن عمّة الرسول... وعليّ. إعتنق الإسلام بأوّل صباه، وكان هو الآخر، أحد العشرة المبشّرة. قاتل في جميع غزوات النبيّ، وكان من أهل الشورى في انتخاب عثمان. إنّه: الزبَير بن العَوَام. وبايع، مع طلحة ـ مرّة ثانية ـ بالقول: «نبايعك يا أمير المؤمنين على أن علينا بيعة المهاجرين».

ثم قام أبو الهيثم بن التيهان، وعقبة بن عمرو، وأبو أيّوب، وبايعوا، «على أن عليهم بيعة الأنصار، وسائر قريش[1]».

وبايع الجميع، من مهاجرين وأنصار، باستثناء ثلاثة من قريش: أحدهم مروان بن الحكم[2]، وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبة. أولئك كانوا: حزب عثمان.

وهنا، كان أوّل غيث الأيّام العصيبة. واتّضح أنّ بني أميّة، لم ينسوا ما كان من حمزة، وعليّ، لمّا صرع أكبر رجالهم في يوم بدر. وأمام هذا الواقع، يجب ألاّ يكون بنو هاشم قد نسوا ما كان من هند حين لاكت كبد حمزة ومثّلت به يوم أُحد. وإذا كان حمزة قد استشهد، فإنّ عليّا اليوم، في يوم مبايعته.

قال الوليد بن عقبة ـ وهو أخ عثمان لأمّه ـ، متحدّثاً باسم حزب عثمان، موجّهاً كلامه لعليّ: «يا هذا، إنّك قد وترتنا جميعاً. أمّا أنا فقتلت أبي صبراً يوم

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٨

٢ ـ من المستغرب أن يكون مروان بن الحكم في المبايعة، في الوقت الذي ذكر فيه المؤرخون أنه كان فاراً من الجموع الذين كانوا «يطلبونه ليقتلوه!» إلاّ أن هذا ما ورد في المدوّنات!

بدر، وأمّا سعيد فقتلت أباه يوم بدر، وكان أبوه من نور قريش، وأمّا مروان فشتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمّه إليه... على ذلك بنو عبد مناف. فتبايعنا على أن تضع عنّا ما أصبنا وتعفي لنا عمّا في أيدينا، وتقتل قتلة صاحبنا (عثمان)».

يمكن تصوّر جرأة الوليد بن عقبة في هذا المقام. ذلك ليس فقط، لأنّه وجّه مثل هذه الشروط لعليّ، في مثل هذه المناسبة، ولكن، خاصة، لأنّ الجموع التي كانت تحيط بالمسجد والمدينة، كانت مهيّأة تماماً لأسوأ الاحتمالات! وقد كانت إشارة من عليّ، كافية من أجل وضع حدٍّ مخيف لمثل هذه الجرأة.

غضب عليّ، ولكنه تمالك نفسه، وأجاب:

«أمّا ما ذكرت من وتري إيّاكم، فالحقّ وتركم؛ وأمّا وضعي عنكم ما أصبتم، فليس لي أن أضع حقّ الله تعالى؛ وأمّا إعفائي عمّا في أيديكم، فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم؛ وأمّا قتلي قتلة عثمان، فلو لزمني قتلهم اليوم لزمني قتالهم غداً، ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنّة نبيه، فمن ضاق عليه الحقّ، فالباطل عليه أضيق، وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم».

إستدراكاً لنتائج هذا الموقف الصارم، تفتّق دهاء مروان عن موقف مناسب، فقال: « بل نبايعك، ونقيم معك، فترى ونرى[1] ».

وعقب ذلك خطُب المديح، بعليّ، من قبل بعض مبايعيه.

***

عندما تسلّم عليّ بن أبي طالب الخلافة الرابعة للمسلمين بعد الرسول، كانت تشكيلة عثمان، على الأمصار، كما يلي:

«على اليمن، يعلى بن منيّة التميمي. وعلى مكّة عبد الله بن عمرو

---

١ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٩

الحضرميّ. وعلى همذان جرير بن عبد الله البجليّ. وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفيّ. وعلى الكوفة أبو موسى الأشعريّ. وعلى البصرة عبد الله بن عامر بن كريز. وعلى مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح... وعلى الشأم معاوية بن أبي سفيان[1].

وبينما كان الخليفة الجديد في صدد دراسة أمر الولاة، جاءه ثقفيّ من دهاة العرب، صحابيّ، قاتل في وقعة اليمامة وفي فتوح الشأم وفارس، كان ولاّه عمر البصرة والكوفة، وعزله عثمان. إنّه المغيرة بن شعبة. جاءَ عليّاً، ونصحه بألاّ يعزل عمّال عثمان في أوّل سنة من عهده، بل بأن يكتب إليهم بتثبيتهم على أعمالهم، فإذا «بايعوا لك واطمأنّ أمرك عزلتَ من أحببت وأقررت من أحببت». غير أنّ جواب عليّ الذي ينمّ عن حقيقة شخصيّته، كان: «والله لا أدهن في ديني ولا أعطي الرياء في أمري».

عندها، نصحه المغيرة بألاّ يعزل معاوية، على الأقلّ: «فإنّ له جرأة... وهو في أهل الشأم مسموع منه، ولك في إثباته حجّة: فقد كان عمر ولاّه الشأم كلّها».

أجاب عليّ: «والله لا أستعمل معاوية يومين ابدا[2]».

وبخلال استشاراته هذه، أخبر عليّ ابن عمّه عبد الله بن عبّاس، الملقّب بـ«حَبر الأمّة» لما كان عليه من صوابية الرأي، أخبره عن نصيحة المغيرة له، فأشار ابن العبّاس عليه «بأن يثبّت معاوية: فإن بايعك فَعلَيّ أن أقلعه من منزله». فقال عليّ: «والله لا أعطيه إلاّ السيف»؛ وعندما قال له ابن العبّاس: «يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع، أما سمعت رسول الله يقول: الحرب خدعة؟»؛ وعند ردّ عليّ بالايجاب، استأنف: «أمّا والله لئن أطعتني لأصدرنّ بهم بعد ورِدٍ ولأتركنّهم ينظرون في أدبار الأمور ولا يدرون ما كان وجهها في غير نقص لك ولا إثم عليك». إلاّ أن جواب عليّ كان:

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٦

٢ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٩٩ ـ ١٠٠؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٨٠؛ الطبري، ١ : ٣٠٨٥

- «يا ابن عبّاس، لست من هنّاتك ولا من هنّات معاوية في شيء. تشير به عليّ برأي فإذا عصيتك فأطعني».

ويروي ابن العبّاس كلّ هذا، ويقول إنّه هنا، أجاب عليّاً بقوله: «أنا أفعل، فإنّ أيسر ما لك عندي الطاعة[1]».

***

قبل أن يتّخذ عليّ قراره النهائيّ بشأن معاوية، كان قد عزل أكثر عمّال عثمان عن البلدان، ولم يثبّت منهم سوى أبي موسى الأشعريّ، الذي «كلّمه فيه الأشتر، فأقرّه. وولّى قثم بن العبّاس مكّة. وعبيد الله بن العبّاس اليمن. وقيس بن سعد بن عبادة مصر. وعثمان بن حنيف الأنصاري البصرة. وأتاه طلحة والزبَير فقالا: إنّه قد نالتنا بعد رسول الله جفوة، فاشركنا في أمرك. فقال: أنتما شريكاي في القوّة والاستقامة، وعوناي على العجز والأَود... وروى بعضهم أنّه ولّى طلحة اليمن، والزبَير اليمامة والبحرين، فلّما دفع إليهما عهديهما قالا له: «وصلتك رحم!». قال: «وإنّما وصلتكما بولاية أمور المسلمين»... واستردّ العهد منهما، فعتبا على ذلك، وقالا: «آثرت علينا!». فقال: «لولا ما ظهر من حرصكما لقد كان لي فيكما رأي[2]».

يــوم الجـــــــــمـل

وقبل أن يتمّم عليّ تشكيلته الجديدة للولاة، واجهته مشكلة طارئة، ربّما كانت في حسبانه، ولكن، ليس إلى هذا الحدّ. إنّها تلك المشكلة التي أدّت إلى أحد أرهب أيّام الإسلام: يوم الجمل.

في الوقت نفسه، ظهر تمرّد معاوية في الشأم، إذ أرسل هذا الأخير، إلى

---

١ - راجع المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ١٠١؛ الطبري، ١ : ٣٠٩٠.

٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠.

الخليفة الجديد، بدل المبايعة، قائلاً: «سلّم قتلة عثمان خليفة الرسول الذي بايعته الأمّة أوّلاً، فإنّك شريك لهم في الجريمة[1]». وكان معاوية يُخرج قميص عثمان الملوّث بالدم، وأصابع زوجته نائلة التي قُطعت حين اتّقت ضربة السيف عنه عندما قُتل وهو يقرأ القرآن الذي كان قد جمعه. وكان المصحف الذي جمعه عثمان، القرآن المعترف به، وقد سال دم عثمان فلطّخ صحائف القرآن الكريم ومنها الآية: «فسيكفيكم الله وهو السميع العليم[2]».

وجاء من يخبر عليّاً بما ظهر من أمّ المؤمنين: عائشة، عندما علمت بمبايعته خليفة على المسلمين، وهي في طريق عودتها من الحجّ في مكّة، إلى المدينة.

فما أن قالوا لها بأنّ عثمان بن عفّان قُتل، وبويع بعده عليّ بن أبي طالب، حتّى قالت: «والله ما كنت أبالي أن تقع هذه على هذه». ثمّ رجعت إلى مكّة.

وفجأة، أتاه طلحة والزبَير يستأذنانه السفر، قائلَين: «إنّا نريد العمرة، فأذن لنا في الخروج...» وبعد خروجهما، يُروى أنّ عليّاً قال: «والله ما أرادا العمرة، ولكنّهما أرادا الغدرة[3]». وكان عليّ قد ردّ عليهما مشكّكاً وهما في صدد استئذانه: «لعلّكما تريدان البصرة أو الشأم؟». فأقسما أنّهما لا يقصدان غير مكّة[4].

وهناك، إلتأم شمل كلٍّ من أمّ المؤمنين: عائشة، وعامل البصرة المخلوع من قبَل عليّ: عبد الله بن عامر، وعامل اليمن المخلوع أيضاً: يعلى بن منبّه، ومروان ابن الحكم، إضافة إلى طلحة والزبَير، وبعض من بني أميّة.

كان أوّل من حرّض على المطالبة بدم عثمان، يعلى بن منبّه، الذي كان قد تهيّأ للتمرّد، وجاء من اليمن هارباً... مزوّداً بالأموال. «فأعطى عائشة وطلحة

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٦٥
٢ ـ سورة البقر، ١٣١
٣ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٨٠
٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٠٢

والزبير أربعمائة ألف درهم وكراعاً وسلاحاً، وبعث إلى عائشة بالجمل المسمّى عسكراً، وكان شراؤه عليه باليمن مائتي دينار».

بعد المداولة، قرّر المجتمعون في مكّة الانتقال إلى دمشق، للانضمام إلى معاوية، وبدء الانقضاض على عليّ من هناك. إلاّ أنّ ابن عامر، عارض ذلك بقوله: «إنّ معاوية لا ينقاد إليكم ولا يعطيكم من نفسه النصفة، لكن هذه البصرة، لي بها صنائع وعدد»... «فجهّزهم بألف ألف درهم، ومائة من الإبل، وغير ذلك. فسار القوم نحو البصرة في ستمائة راكب». ويُجمع المؤرّخون على أنّه عند وصول القوم إلى نبع، أو بئر، لبني كلاب، يعرف بالحوأب، وكان عليه أناس من بني كلاب «عوت كلابهم على الركب، فقالت عائشة: ما اسم هذا الموضع؟ فقال لها السائق لجملها: الحوأب، فاسترجعت وذكرت ما قيل لها في ذلك، وقالت: رُدّوني إلى حرم رسول الله.. لا حاجة لي في المسير. فقال الزبير: ـ تالله ما هذا الحوأب! وقد غلط فيما أخبرك به!ـ . وكان طلحة في ساقة الناس فلحقها فأقسم بالله تعالى أنّ ذلك ليس بالحوأب. وشهد معهما خمسون رجلاً ممّن كان معهم، فكان ذلك أوّل شهادة زور أقيمت في الاسلام...»

ذلك أنّ رسول الله كان قد قال لعائشة يوماً: «لا تكوني التي تنبحك كلاب الحوأب[1]».

تمكّن طلحة والزبير من إقناع أمّ المؤمنين عائشة باستئناف المسير، وهي التي كان «النبيّ قد تزوّج منها وهي صغيرة السنّ لا تزال تلهو بالدمى التي جاءَ بها من بيت أبيها أبي بكر. وكانت تضمر البغضاء لعليّ بسبب حادثة جرت لها يوم تخلّفت عن الموكب عندما كانت في سفر مع الرسول. فارتاب عليّ في سلوكها، ونزل الوحي ببراءَتها[2]... ولكنها لم تنسَ ذلك لعليّ[3]».

---

١ ـ راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ١٨١، المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٠٢ ـ ١٠٣
٢ ـ سورة النور، ١١ : ٢١
٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٦٤

وصل القادمون من مكّة، البصرة وعلى رأسهم أمّ المؤمنين، فخرج إليهم عامل عليّ: عثمان بن حنيف. وبعد قتال قصير، تمّ التوافق على كفّ الحرب إلى حين قدوم عليّ. لكنّ القادمين من مكّة «غدروا بعامل عليّ، فأسروه، ونتفوا لحيته، وشاربه، وأشفار عينيه، وحاجبيه، وانتهبوا بيت المال، وأخذوا ما فيه... وراح يصلّي بالناس طلحة يوماً والزبير يوماً، بعد أن حصل خلاف بين الاثنين وكلٌّ منهما يريد الصلاة، إلى أن أفتت عائشة بالمداورة[1].

أمام هذا الواقع، وإذ كان الخليفة الجديد بخلاف أسلافه وبخلاف الذين أتوا بعده، يقود جنوده بنفسه، انطلق عليّ ليقمع الفتنة، فسار من المدينة على رأس سبعمائة مقاتل، منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار، بينهم سبعون من الذين اشتركوا بواقعة بدر إلى جانب الرسول، والباقون من الصحابة. واستخلف على المدينة ابن حنيف الأنصاريّ. وقصد الرّبذة، بين مكّة والكوفة، طالباً طلحة والزبَير وأصحابهما. غير أنّ هؤلاء كانوا قد فاتوه إلى العراق، فاتّجه بطلبهم. ولحق بعليّ جماعة من الأنصار من أهل المدينة... وكان عليّ كاتَب من الربذة أبا موسى الأشعريّ ليستنفر الناس، لكنّ هذا الأخير رفض إطاعة الخليفة قائلاً: «إنّما هي فتنة». وعندما بلغ عليًا موقف أبي موسى، كتب إليه: «إعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموماً مدحوراً، فما هذا أوّل يومنا منك، وإنّ لك فينا لهنّات وهنّات» وولّى مكانه على الكوفة قرظة بن كعب الأنصاري، وأرسل ابنه الحسن وعمّار بن ياسر إليها يستنفران الناس. وسار إلى ذي قار، حيث لاقاه الحسن وعمّار ومعهما حوالى سبعة آلاف مقاتل من الكوفة، من بينهم الأشتر. ومن هناك، توجّه الجيش إلى البصرة، وفور وصوله، راسل عليّ القوم وناشدهم الاستسلام، إنّما هم أبوا إلاّ قتاله. وقد أصرّوا على موقفهم رغم تكرار محاولة الخليفة «حقن دماء المسلمين[2]».

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٠٢ - ١٠٣؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٨١

٢ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٠٥ - ١٠٦

يُجمع المؤرّخون على أنّ الثائرين على عليّ، كانوا البادئين بالقتال. واذ فشلت جميع محاولاته لإبعاد شبح الحرب، أمام إصرار مناوئيه، قام عليّ في الناس خطيباً، رافعاً صوته، يقول: «أيّها الناس، إذا هزمتموهم فلا تُجهزوا على جريح ولا تقتلوا أسيراً ولا تتبعوا مولّيا ولا تطلبوا مُدبِراً ولا تكشفوا عورة ولا تمثّلوا بقتيل ولا تهتكوا سترا ولا تقربوا شيئاً من أموالهم إلاّ ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كُراع أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث ورثَتهم على كتاب الله تعالى».

وخرج عليّ بنفسه، حاسرا على بغلة رسول الله، فنادى: «يا زُبير أخرج إليّ». فخرج إليه الزبير شاكّا سلاحه. فقيل ذلك لعائشة، فقالت: «واحزنَكِ يا أسماء!». فقيل لها أن عليّا حاسر، فاطمأنّت... قال عليّ للزبَير: «ما الذي أخرجك؟». قال: «دم عثمان». قال: « قتل الله أولانا بدم عثمان! أما تذكر يوم لقيت رسول الله في بني بَياضة وهو راكب حماره فضحك إليّ رسول الله وضحكت إليه وأنت معه، فقلت أنت: يا رسول الله ما يدعُ عليٌّ زهوه، فقال لك: ليس به زهو، أتحبّه يا زبَير؟ فقلت إي والله إنّي لأحبّه؛ فقال لك: إنّك والله ستقاتله وأنت له ظالم»؟. فقال الزبَير: «أستغفر الله لو ذكرتها ما خرجت» ـ فقال له: «يا زبَير إرجع». فقال: «وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان[1]؟» هذا والله العار الذي لا يُغسل!». فقال: «يا زبَير إرجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار». وإذ رجع، قال له ابنه عبد الله: «أين تذهب وتذرنا؟». قال: «ذكّرني يا بني بأمر كنت نسيته». فقال: «لا والله ولكن خفت من سيوف بني عبد المطّلِب فإنّها طوال حداد تحملها فتية أنجاد». فقال: «لا والله ولكنّي ذكرت ما أنسانيه الدهر فاخترت العار على النار! أبا لجبن تعيّرني لا أبا لك!؟». ثمّ قلع سِنانه من قناته وشدّ في ميمنة عليّ فقال عليّ: «أفرجوا له فقد هاجوه». ثمّ رجع فشد في الميسرة، ثمّ رجع فشد في القلب، ثم عاد إلى ابنه فقال: «أيفعل هذا جبان؟». ثمّ

---

١ ـ مثل يضرب في الحادثة إذا بلغت النهاية.

مضى منصرفاً حتّى أتى وادي السباع والأَحنف بن قيس معتزل في قومه من بني تميم؛ فأتاه آت فقال له: «هذا الزبَير ماراً». فقال: «ما أصنع بالزبير وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضاً وهو مارٌّ إلى منزله سالماً؟». فلحقه نفر من بني تميم، وسبقهم إليه عمرو بن جرموز وقد نزل الصلاة، فقتله عمرو في الصلاة. وقيل أنّ الأحنف بن قيس قد أرسل من قتله[1]. وكان الزبَير قد بلغ إذ ذاك الخامسة والسبعين من عمره.

كان عليّ، بعد أن ابتعد الزبَير عن أرض المعركة، قد نادى طلحة: «يا أبا محمّد ما الذي أخرجك؟». قال: «الطلب بدم عثمان». قال عليّ: «قتل الله أولادنا بدم عثمان! أما سمعت رسول الله يقول: اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه، وأنت أوّل من بايعني ثم نكثت، وقد قال الله عزّ وجل: ـ فمن نكث فإنّما ينكثُ على نفسه[2]». فقال: «أستغفر الله». ثمّ رجع. فقال مروان بن الحكم: «رجع الزبير ورجع طلحة ما أبالي رميتُ ها هنا أم ها هنا» ورمى مروان طلحة في أكحله فقتله[3].

ما أن رُمي طلحة، حتّى شنّ عليّ بن أبي طالب هجومه الشهير، وقد توسّع المدوّنون في وصف بلائه الحسن في تلك المعركة التي جرت في التاسع من كانون الاول (ديسمبر) سنة ٦٥٦، والتي عُرفت بيوم الجمل، لأنّ عائشة كانت تبعث الحماسة في نفوس الثائرين وهي راكبة ذلك الجمل الذي قدّمه لها يَعلى بن منبّه، مموّل الثورة، وهدفه الثأر لدم عثمان.

على خطام هذا الجمل، «قُطع سبعون يداً من بني ضبّة، وكلّما قطعت يد واحد منهم فصرع، قام آخر فأخذ الخطام وقال: ـ أنا الغلام الضبّيّ ـ. ورمي هودج

---

١ ـ راجع: الطبري،١ : ٣١٦١؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٠٧ ـ ١٠٨؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٨٢ ـ ١٨٣

٢ ـ سورة الفتح، ٤٨ : ١٠

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٠٩

الجمل بالنشّاب، والنبل، حتّى صار كأنّه قنفذ، وهو لا يقع، وقد قُطعت أعصابه وأخذته السيوف حتّى سقط... ولمّا ـ سقط الجمل ووقع الهودج، جاء محمّد بن أبي بكر فأدخل يده فقالت ـ من أنت؟ ـ فقال: «أقرب الناس منكِ قرابة وأبغضهم إليكِ: أنا محمّد أخوك؛ يقول لك أمير المؤمنين: هل أصابك شيء؟ـ . قالت: ـ ما أصابني إلاّ سهم لم يضرّني ـ. فجاء عليّ حتّى وقف عليها وضرب الهودج بقضيب وقال: ـ يا حُميراء أرسول الله أمرك بهذا؟ ألم يأمرك أن تقرّي في بيتك؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوكِ إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك ـ. وأمر أخاها محمّداً بإنزلها دار صفيّة بنت الحارث، أمّ طلحة الطلحات[1] ... وبعد انتهاء المعركة، أمر عليّ أن تُردّ عائشة أمّ المؤمنين إلى المدينة المنوّرة يرافقها حرس يليق بمكانتها ... وكان من نبل عليّ أنّه جزع على منافسَيه اللذين سقطا، طلحة والزبَير، وبكاهما، ثم صلّى عليهما[2] ».

وقد ذكر المدوّنون والرواة، أنّه قُتل من أصحاب عليّ في هذه المعركة، حوالى خمسة آلاف نفس، ومن أصحاب الجمل من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفا[3].
وبعد المعركة، أعطى عليّ الأمان لابن أخت عائشة: ابن الزبَير عبد الله، ولمروان ابن الحكم، ولوليد بن عقبة، ولأبناء عثمان، وسواهم من بني أميّة، لا بل أمّن الناس جميعاً. وقد كان نادى يوم الواقعة: «من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن». وكان من أبرز من قُتل في معركة الجمل، من أنصار عليّ: عمّار ابن ياسر، الذي بكاه عليّ من جملة من بكاهم من مشايعيه... وخصومه.

وبمقتل طلحة والزبير، وانكسار مروان بن الحكم، وخيبة الولاة الثائرين، لم يعد أمام الخليفة الثالث سوى خصم عنيد واحد لا بدّ من تصفية الحساب معه، هو والي الشام المتمرّد: معاوية.

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ١١٦
٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٦٥
٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ١١٦

بعد يوم الجمل الذي حقّق فيه عليّ نصراً ساحقاً على معارضيه الذين انضووا جميعاً تحت لواء استنسبوه لهذه الغاية: لواء حزب عثمان، انتقلت هذه الراية إلى الشأم، وأصبح على رأس هذا الحزب، عاملها المتمرد، معاوية.

وكان أبو بكر قد أرسل معاوية قائداً للجيش في الشأم، ثم ولاّه عمر عليها، وأقرّه عثمان على هذه الولاية... وهو ابن صخر بن حرب بن أميّة: أبي سفيان، الذي كان قد قاد المشركين ضدّ المسلمين، يوم كان عليّ يجاهد إلى جانب الرسول. وإذا كان الإسلام قد جمع فيما بعد بين الهاشميين وبني أميّة، إذ أسلم أبو سفيان، والد معاوية، يوم فتح مكّة، يظهر للمحقّق أن الحقد كان لا يزال دفيناً في النفوس بين الأمويّين والهاشميّين. واليوم، أصبح عليّ الخليفة، على رأس الهاشميّين، ومعاوية، عامل الشأم المتمرّد، على رأس الأمويّين. أضف إلى ذلك أنّ معاوية «كان يطمح بالخلافة، وقد أخفى ما كان يضمره متحيّنا الفرصة... وعندما حانت الفرصة، لم يبدُ معاوية للناس كرجل قام يطالب بالثأر من قاتلي قريب له، بل تظاهر لهم أنّه يناصر الشرعيّة في أمر الخلافة[1].

وبينما كان عليّ يجيّش جيشه للزحف إلى الشأم، بهدف تأديب المتمرّد معاوية، كان الأخير يستنفر أهل الشأم لمقاتلة أهل العراق. وإذا كان العراقيّون، على ما بدا، قد تحمّسوا لمحاربة معاوية، رفضاً منهم للسيطرة الشأمية، فإنّ أهل الشأم كانوا على استعداد للنضال من أجل هذه السيطرة.

ويختلف المؤرّخون في عدد كلّ من الجيشين اللذين جمع كلٌّ منهما، عليّ ومعاوية، بيدَ أنّ أكثرهم يتّفق على أنّ جيش عليّ قد بلغ حوالى تسعين ألفاً، جلّهم من أهل العراق، وجيش معاوية، قد بلغ خمسة وثمانين ألفاً، وهم من الشأم. كما

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٦٥

أنّهم يجمعون على وصف هذه الحرب، التي عُرفت بمعركة صفّين، بأنّها معركة بين أهل العراق وأهل الشأم.

وصفّين، موضع على الحدود السوريّة، على شاطئ الفرات الأيمن بين الرقّة وإسكي مسكنة. ويبدو أنّه كان يستحيل الحصول على الماء من النهر، في تلك المنطقة، لوعورة الضفّة، إلاّ من موضع واحد، يُقال له «شريعة»، حيث يُمكن ورود الخيل.

سبق معاوية عليّاً بجيوشه إلى صفّين، ووضع عند «شريعة» أربعين ألفاً من جنوده بقيادة أبي الأعور السلميّ. وهذا الأخير سفيانيّ، من كبار رجال معاوية، كان تولّى فرقة من الجيش لحصار طبريّة في معركة فحل بعد اليرموك واحتلال دمشق عام ٦٣٥.

وبوصول عليّ وجيشه إلى قرب الفرات، إستحال عليهم الحصول على الماء، فبات الجيش في حالة عطش.

وكان معاوية، بدهائه، قد تمكّن من استقدام عمرو بن العاص إلى جانبه، واعداً إيّاه بتوليته مصر إذا انتصر على عليّ[١]. وعندما بلغ الموقف هذا الحدّ، نصح عمرو معاوية بفكّ الحصار عن «شريعة» قائلاً: «إنّ عليّاً لا يموت عطشاً هو وتسعون ألفاً من أهل العراق وسيوفهم على عواتقهم، ولكن دعهم يشربون ونشرب...»، فقال معاوية: «لا والله أو يموتوا عطشاً كما مات عثمان[٢]!».

وسرعان ما شنّ عليّ هجوماً على شريعة، أدّى إلى انسحاب الجيش الشأميّ منها، «بعد أن غرق منهم، في الفرات، بشر وخيل...». وبعد سيطرة عليّ على مورد الماء، سمح لجيش معاوية بالورود والاستقاء من النهر[٣].

---

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٦

٢ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٢١

٣ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٢٣؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٨٨

وإذ تمركز جيش عليّ في سهل صفّين، بعث إلى معاوية بعد يومين «يدعوه إلى اجتماع الكلمة، والدخول في جماعة المسلمين... وطالت المراسلة بينهما، فاتّفقا على الموادعة (الهدنة) إلى آخر المحرّم من سنة ٣٧ (٦٥٧ م.)... وامتنع المسلمون عن الغزو في البرّ لشغلهم بالحرب؛ وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه. لشغله بعليّ[١]».

وفي مساء اليوم الأخير من المحرّم[٢]، بعث عليّ إلى أهل الشأم ما يلي: «إنّي قد أحججت عليكم بكتاب الله تعالى، ودعوتكم إليه، وإنّي قد نبذت[٣] إليكم على سواء ـ أنّ الله لا يَهدي كيد الخائنين[٤] ـ. لم يردّوا عليه جواباً إلاّ!: السيف بيننا وبينك حتّى يهلك الأعجز منّا[٥]».

وبدأت المناوشات في اليوم التالي، بين الجيشين، واستمرّت أسابيع، إلى أن كان السادس والعشرون من تمّوز (يوليو) سنة ٦٥٧، لمّا زحف جيش عليّ وأزال أهل الشام عن مراكزهم، وظهرت أمارات النصر لعليّ. فأشار قائد الفرسان الداهية، عمرو بن العاص، على معاوية، برفع خمسمائة مصحف على أسنَّة الرماح، علامة على النزول عند «حكم الله» لا عند حكم السيف. ويبدو أنّ الحرب كانت قد أنهكت قوى الجيشين، وقد أسرف المؤرّخون في عدد القتلى الذي كما يقولون، بلغ سبعين ألف قتيل. فحثّ عليّاً أعوانُه على قبول التحكيم حقنا لدماء المسلمين[٦].

قبْل ذلك التاريخ، كان عليّ قد يئس من إقناع معاوية بالمبايعة وإنهاء التمرّد، وقد استعمل من أجل هذه الغاية كلّ الوسائل. منها أنّه «نادى: يا معاوية

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٢٣
٢ ـ راجع الطبري، ١ : ٣٢٨١
٣ ـ أنظر: سورة الأنفال، ٨ : ٥٨
٤ ـ سورة يوسف، ١٢ : ٥٢؛ وفي الطبري: «إنّ الله لا يحب الخائنين ـ سورة يوسف: ١٢ : ٦٠ ـ
٥ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٢٤
٦ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٦٦

على أيّ شيء تقتل الناس بيني وبينك؟ هلمّ أحاكمك إلى الله؛ فأيّنا قتل صاحبه استقامت له الأمور[1] ». وإذ كان رأي عمرو بن العاص أن يقبل معاوية بمبارزة عليّ، معبّراً عن ذلك بقوله لمعاوية: « قد أنصفك الرجل »؛ فقال معاوية: « ما أنصف وإنّك لتعلم أنّه لم يبارزه رجل قطّ إلاّ قتله أو أسره ». قال عمرو: « وما يجمل بك الاّ مبارزته ». فقال معاوية: « طمعت فيها بعدي[2] ». وتكثر هنا الأقاويل حول أخبار تلك المبارزة التي، في النهاية، لم تحصل[3].

التحكيم

لا بدّ من التوقّف مليّاً عند ذلك التحكيم الذي حصل، بين عليّ ومعاوية، في صفّين. ذلك لأنّ هذا التحكيم سيؤدّي فيما بعد، إلى نشوء فرقة في الإسلام، بعد السبئيّة، هي: الخوارج. ولا يمكن الإحاطة بموضوع الخوارج، دون معرفة تفاصيل التحكيم.

كانت تلك، « ليلة الهرير »... كانت ليلة جمعة... وكانت الالتحامات قد ألغت ضرب النبال، وبات القتال التماماً بالسيوف والخناجر والتكادم. وكان الفارس يعتنق الفارس حتّى يقعا جميعاً على الأرض مع فرسيهما... « وأصبح القوم

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، ص ١٣٤؛ وراجع: الطبري، ١ : ٣٣٢٢

٢ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٤٣؛ وعنه: « وقد ذكر هشام بن محمّد الكلبي عن الشرقي بن القطامي أن معاوية قال لعمرو بعد انقضاء الحرب: « هل غششتني منذ نصحتني؟ » - قال: « لا »؛ قال: « بلى والله يوم أشرت عليّ بمبارزة علي وأنت تعلم من هو »؛ قال: « دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسنتين: إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران فتزداد شرفاً إلى شرفك، وإما أن يقتلك فتكون استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحُسن أولئك رفيقاً »؛ فقال معاوية: « يا عمرو الثانية أشد من الاولى »

٣ - يذكر المسعودي (مروج الذهب، ج ٣ ص ١٣٤) « قيل في بعض الروايات أن معاوية أقسم على عمرو لمّا أشار عليه بهذا أن يبرز إلى عليّ، فلم يجد عمرو من ذلك بدّاً. فبرز، فلمّا التقيا عرفه عليّ، وشال السيف ليضربه، فكشف (عمرو) عورته وقال: « مكرهٌ أخوك لا بطل » فحوّل عليّ وجهه عنه وقال: « قبحت! » ورجع عمرو إلى مصافّه؛ راجع: الميداني، ٢ : ٢٧٤

على قتالهم، وكسفت الشمس وارتفع القتام[1]، وتقطّعت الألوية والرايات ولم يعرفوا مواقيت الصلاة... فنادت مشيخة الشأم: - يا معشر العرب الله الله في الحرمات والنساء والبنات -. وقال معاوية: - هلمَّ مخبّآتك يا ابن العاص فقد هلكنا وتذكّر ولاية مصر[2]! - . فقال عمرو: - مُر الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه - . فكثر في الجيش رفع المصاحف وارتفعت الضجّة ونادوا: - كتاب الله بيننا وبينكم مَن لثغور الشأم بعد أهل الشأم؟ مَن لثغور العراق بعد أهل العراق؟ مَن لجهاد الروم ومَن للتُّرك وللكفّار؟-. ورُفع في عسكر معاوية نحو خمسمائة مصحف؛ وفي ذلك يقول نجاشي بني الحارث[3].

فأصبح أهل الشأم قد رفعوا القنا   عليها كتاب الله خير قرآنِ
ونادوا عليّاً: يا ابن عمّ محمّدٍ   أما تتّقي أن يهلكَ الثقلانِ؟

فلمّا رأى كثير من أهل العراق ذلك قالوا: - نُجيب إلى كتاب الله ونُنيبُ إليه -؛ وأحبّ القوم الموادعة، وقال لعليّ كثير من أصحابه: - قد أعطاك معاوية الحقّ ودعاك إلى كتاب الله تعالى فاقبل منه[4] -؛ وكان أشدّهم في ذلك الأشعث بن قيس[4]؛ فقال عليّ! «أيّها الناس إنّه لم يزل بي من أمركم ما أحبُّ حتى قرحتكم الحرب وقد والله أخذت منكم وتركت. وإنّي كنت بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً وقد أحببتم البقاء!». فقال الأشتر[5]: «إنّ معاوية لا خلف له من رجاله ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك لما كان له مثل نصرك ولا صبرك؛ فأقرع

---

١ - القتام: غبار الحرب.
٢ - ذلك أن معاوية كان قد وعد عمرو بن العاص بولاية مصر إن هو انتصر. فذكّره بذلك وقال له ما معناه: «افعل شيئاً من مفاجآتك» بالنظر لحراجة الموقف - المؤلف -
٣ - النجاشي (قيس بن عمرو الحارثي) المتوفى حوالى سنة ٦٦٠، شاعر يمني عاش في نجران وملّة. ناصر عليّاً في صفّين. أدمن السكر فطرد ولجأ إلى معاوية ثم عاد إلى اليمن وتوفي فيها - المنجد -
٤ - الأشعث بن قيس الكندي: (٦٠٠ - ٦٦١) من أمراء كندة. وفد على النبيّ مع جماعة من قومه ليعلن إسلامهم سنة ٦٣١ .شهد اليرموك والقادسية ونهاوند إضافة إلى صفّين. توفي في الكوفة - المنجد -
٥ - راجع: شرح نهج البلاغة، ١ : ١٨٥

الحديد بالحديد واستعن بالله تعالى! ـ؛ وتكلّم رؤساء أصحاب عليّ بنحو من كلام الأشتر. فقال الأشعث بن قيس: ـ إنّ لك اليوم على ما كنّا عليه أمس ولسنا ندري كيف يكون غداً وقد والله كلّ الحديد وقلّت البصائر ـ؛ وتكلّم معه غيره بكلام كثير، فقال علي[1]: ـ ويحكم إنّهم ما رفعوها لأنّهم يعلمونها ولا يعلمون بها وما رفعوها لكم إلاّ دهاءً وخديعة ومكيدة!ـ. فقالوا له: ـ إنّه ما يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله، عزّ وجل، فنأبى أن نقبله ـ، فقال: ـ ويحكم! إنّما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب، فقد عصوا الله فيما أمرهم به ونبذوا كتابه فأمضوا على حقّكم وصدقكم وجدّوا في قتال عدوّكم؛ فإنّ معاوية وابن العاص وابن أبي مُعيط وحبيب ابن سلمة وابن النابغة وعدداً غير هؤلاء ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرَف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً ورجالاً، فهم شرّ أطفال ورجال ـ؛ وجرى له مع القوم خطب طويل... وتهدّدوه أن يُصنع به ما صُنع بعثمان[2] ».

ويذكر بعض المؤرّخين أنّ الأشعث، وجّه كلامه هنا إلى عليّ قائلاً: ـ والله لئن لم تُجبهم إنصرفت عنك ـ. ومالت اليمانيّة مع الأشعث، فقال الأشعث: ـ والله لتجيبنّهم إلى ما دعوا إليه، أو لندفعنَّك إليهم برمّتك ـ... فتنازع الأشتر والأشعث في هذا كلاماً عظيماً، حتى كاد أن يكون الحرب بينهم، حتّى خاف عليّ أن يفترق عنه أصحابه. فلمّا رأى ما هو فيه أجابهم إلى الحكومة[3] »...

بعد أن رضخ عليّ لرأي المطالبين بالتحكيم « قال الأشعث: ـ إن شئت أتيتُ معاوية فسألته ما يريد ـ. فقال: ـ ذلك إليك، فائته إن شئت. فأتاه الأشعث فسأله فقال له معاوية[4]: ـ نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه؛ تبعثون منكم رجلاً ترضونه وتختارونه ونبعث برجل ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما

---

١ ـ راجع: شرح نهج البلاغة، ١ : ١٨٦؛ وتاريخ الطبري، ١ : ٣٣٣٠.
٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ١٣٧ ـ ١٣٩؛ وراجع: الطبري، ١ : ٣٣٢٩.
٣ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٨٩ (والمقصود بالحكومة هنا: التحكيم)
٤ ـ راجع الطبري، ١ : ٣٣٣٣

في كتاب الله ولا يخرجا عنه، وننقاد جميعاً إلى ما اتّفقا عليه من حكم الكتاب ـ؛ فصوّب الأشعث قوله وانصرف إلى عليّ؛ فأخبره بذلك، فقال أكثر الناس: ـ رضيناوقبلنا وسمعنا وأطعنا ـ؛ فاختار أهل الشأم عمرو بن العاص، وقال الأشعثُ ومن ارتدّ بعد ذلك من الناس إلى رأي الخوارج: ـ رضينا نحن بأبي موسى الأشعريّ ـ. فقال عليّ: ـ قد عصيتموني في أوّل هذا الأمر، فلا تعصوني الآن. إنّي لا أرى أن أولّي أبا موسى ـ. فقال الأشعث ومن معه[1]: ـ لا نرضى إلاّ بأبي موسى ـ قال: ـ ويحكم! ليس هو بثقة وقد فارقني وخذل الناس منّي، وفعل كذا وكذا[2] (وذكر أشياء فعلها أبو موسى الأشعريّ) ثمّ إنّه هرب شهوراً حتّى آمنته؛ لكن هذا عبد الله بن عبّاس أوليه[3] ذلك ـ. فقال الأشعث وأصحابه: ـ والله! لا يحكم فينا مضريّان ـ. قال عليّ: ـ فالأشتر ـ. قالوا: ـ وهل أشعل ما نحن فيه إلاّ الأشتر؟ ـ . قال: ـ فاصنعوا الآن ما شئتم وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه ـ؛ فبعثوا إلى أبي موسى وكتبوا القصّة؛ وقيل لأبي موسى: إنّ الناس قد اصطلحوا فقال: ـ الحمد لله رب العالمين!ـ. قيل: ـ وقد جعلوك حكماً ـ. قال: ـ إنّا لله وإنّا إليه راجعون[4]ـ».

إنّ المدقّق في التاريخ، يتأكّد من أنّ الخروج على عليّ من قبل بعض من كانوا حتّى موقعة صفّين من أنصاره، لم يأتِ بعد التحكيم كما هو شائع، بل هو بدأ عند رفع المصاحف من قبل فريق معاوية. فإضافة إلى ما ظهر من خلاف حول القبول بمبدأ التحكيم أو رفضه، برز هذا الخروج واضحاً عندما نصّ، عبد الله بن أبي رافع، كتاب عليّ في صلح التحكيم. وإذ وردت في هذا الكتاب تسمية عليّ بأمير المؤمنين، برز قوم من صفّ عليّ، وعلى رأسهم أبو الأعور السلميّ، ليعترضوا على هذه الصفة. غير أنّ أصحاب عليّ، رفضوا إلاّ أن تبقى صفة أمير المؤمنين

---

١ ـ وفي تاريخ الطبري: ١ : ٣٣٣٣ : وزيد بن حصين الطائي ومسعر بن فدكي.
٢ ـ في اليعقوبي: إنه عدو... وقد خذّل الناس عني بالكوفة ونهاهم أن يخرجوا معي.
٣ ـ في الطبري: نوليه بدل أوليه. وللفارق معنى ينم عن وضع علي يومذاك.
٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٣٩ ـ ١٤٠

تابعـة، في الكتـاب، لعليّ. «فـتنازعـوا على ذلك منازعـة شـديدة حتّى تضـاربوا بالأيدي، فقال الأشعث: ـ أمحوا هذا الاسم! ـ . فقال له الأشتر: ـ والله يا أعور لهممت أن أملأ سيفي منك. فلقد قتلت قوماً ما هم شرٌّ منك، وإنّي أعلم أنّك ما تحاول إلاّ الفتنة، وما تدور إلاّ على الدنيا وإيثارها على الآخرة ـ. فلمّا اختلفوا قال عليّ: ـ الله أكبر! قد كتب رسول الله يوم الحديبيّة لسهيل بن عمرو: ـ هذا ما صالح رسول الله ـ. فقال سهيل: ـ لو علمنا أنّك رسول الله ما قاتلناك ـ؛ فمحا رسول الله اسمه بيده، وأمرني فكتبت: ـ من محمّد بن عبد الله ـ وقال: ـ إنّ اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوّتي ـ وكذلك كتبت الأنبياء، كما كتب رسول الله إلى الآباء، وإنّ اسمي واسم أبي لا يذهبان بإمرتي. ـ وأمرهم، فكتبوا: ـ من عليّ ابن أبي طالب[1] ـ».

وفي النهاية، نُصّت الوثيقة، وجاء فيها أنّ «الفريقين يرضون بذلك بما أوجبه كتاب الله». واشترطت الوثيقة «على الحَكَمين أن يحكما بما في كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته لا يتجاوزان ذلك، ولا يحيدان عنه إلى هوى، ولا إدهان[2]»، كما نصّت الوثيقة على «أنْ يُحيي الحكمان ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن[3]»... وقال عليّ للحكمين: «إن لم تحكما الاّ بما في كتاب الله تعالى فكتاب الله كلّه لي؛ فإن لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكم لكما[4]». ونصّ الاتّفاق على أن يكون موعد التحكيم، في دومة الجندل، وهي بين الكوفة والشأم، بعد حوالى سنة ونصف من تاريخ الاتّفاق، أي في كانون الثاني (يناير) سنة ٦٥٩ (رمضان ٣٨ هـ). أمّا تاريخ هذا الاتّفاق، فكان في نهاية «صفر سنة سبع وثلاثين من الهجرة، وقيل بعد هذا الشهر[5]».

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٨٩
٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٩٠
٣ ـ راجع الطبري، ١ : ٣٣٣٦
٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٤١
٥ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٤٢

وبذلك انتهت واقعة صفّين، وهي تُعدُّ من أرهب المعارك التي جرت بين المسلمين، إذ قدّر المدوّنون عدد الذين سقطوا في هذه المعركة، التي دامت مائة وعشرة أيّام، بحوالى مائة وعشرة آلاف من الفريقين: منهم تسعون ألفاً من أهل الشأم، وعشرون ألفاً من أهل العراق[1]. ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أنّ عدد الذين قاتلوا في صفوف معاوية كان يزيد على مائة وخمسين ألف مقاتل، خلافاً للتقديرات التي ذكرت بأنّهم حوالى ٨٥ ألفاً، ويقولون أنّ عدداً مماثلاً لهذا، كان يرافقهم، من خدم وسواهم، أي أنّ مجموع جيش معاوية كان بحدود الثلاثمائة ألف، على الأقلّ. ويقول هذا الرأي بأنّ أهل العراق كانوا في حدود المائة وعشرين ألف مقاتل، ما عدا الأتباع والخدم. إلاّ أنّ رواة آخرين، يقدّرون أنّ عدد قتلى صفّين، قد بلغ حوالى سبعين ألفاً: خمسة واربعين ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرين ألفاً من أهل العراق، فيهم خمسة وعشرون بدريّاً[2].

***

بتفسّخ صفّ عليّ، وكان قد بدأ حربه الثالثة، بعد الجمل، وصفّين، مع الخوارج - وسنأتي على تفصيلها في مكانه[3]- وبسبب «نفور عدد كبير من أعوان عليّ نتيجة السياسة المتردّدة المتقلّبة التي كان يمارسها[4]»، وفي الوقت الذي كان الحكّمان المعيّنان، يُميلان الدفّة لمصلحة معاوية، فعندما حصل مؤتمر التحكيم، كان الاتّجاه سائراً نحو تنحية عليّ عن الخلافة، حقناً لدماء المسلمين.

وكان عليّ، قد وجّه إلى المؤتمر، ابن عمّه: عبد الله بن العبّاس، السديد الرأي الملقّب بحبر المسلمين، في أربعمائة من أصحابه، كما أرسل معاوية عدداً

---

١ - أحمد بن ابراهيم الدّورقي عن يحيى بن معين: المسعودي. ج ٢ ص ١٤٢

٢ - الهيثم بن عدي. الشرقي بن القطامي. أبو مخنف لوط بن يحيى. المسعودي، ج ٣ ص ١٤٣

٣ - راجع: الفصل التالي: نشوء الطوائف في الإسلام. مقطع: الخوارج ص ١٥١.

٤ - حتّي، صانعو التاريخ العربي. ص ٦٧

مماثلاً[1]، على رأسه، إضافة إلى الحكَم، عمرو بن العاص، شرحبيل بن السِّمط. وكان هذا العدد، ليس لإلقاء الرهبة، إنّما ليكون أعضاؤه شهوداً.

يتَّضح حذر عليّ، وأصحابه، من تحكيم أبي موسى الأشعريّ، من الكلام الذي وجَّهه عبد الله، حبر الإسلام، إلى الأشعريّ، قبيل وصول الوفد إلى المؤتمر، إذ قال له: «إنّ عليّاً لم يرضَ بك حكماً لفضل غيرك، والمتقدِّمون عليك كثير، وإنّ الناس أبوا غيرك، وإنّي لأظنّ ذلك لشرّ يُراد بهم وقد ضُمّ داهية العرب معك. فمهما نسيت فلا تنسَ أنّ عليّاً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليست فيه خصلة تباعده من الخلافة، وليست في معاوية خصلة تقرّبه من الخلافة[2]».

في هذه الأثناء، كان معاوية يوصي مندوبه بقوله: «يا أبا عبد الله، إنّ أهل العراق قد أكرهوا عليّاً على أبي موسى، وأنا وأهل الشأم راضون بك؛ وقد ضُمَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي، فأخّر الحزَّ وطبّق المفصل[3]، فلا تلقه برأيك كلّه[4]».

محضر التحكيم

وفيما يلي، محضر التحكيم على ما جاءَ في... المدوّنات:

كان التقاء عمرو وأبي موسى في شهر رمضان من سنة ثمان وثلاثين؛ فقال عمرو لأبي موسى: «تكلّم وقل خيراً» ـ فقال أبو موسى: «بل تكلّم أنت يا عمرو» ـ فقال عمرو: «ما كنت لأفعل وأقدّم نفسي قبلك، ولك حقوق كلّها واجبة لسنّك وصحبتك رسول الله (صلعم)، وأنت ضيف[5]»؛ فتكلّم أبو موسى، فحمد الله

---

١ ـ اختلفت المدونات حول مكان هذا المؤتمر، بين: إذْرِعَ، محطة القوافل بين معان والبتراء على طريق الحج. ودومة الجندل: واحة وبلدة في جوف السرمان. وأرض البلقاء في الاردن.

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٤٥

٣ ـ انظر المثل: انّك لتكثر الحز وتخطئ المفصل (الميداني، ١ : ٥٩)

٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٤٥

٥ ـ إذا صحَّ هذا الكلام، وقد اعتبر مندوب معاوية أن مندوب عليّ «ضيف» فيكون المؤتمر قد عقد في أرض تابعة لحكم معاوية. ـ المؤلف ـ

وأثنى عليه وذكر الحدث الذي حلّ بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال: «يا عمرو هلمّ إلى امرء[1] يجمع الله به الإلفة ويلمّ الشعَث ويصلح ذات البين»؛ فجزاه عمرو خيراً وقال: «إنّ للكلام أوّلا وآخراً ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتّى ننسى أوّله، فاجعل ما كان من كلام بيننا في كتاب يصير إليه أمرنا». قال: «فاكتب». فدعا عمرو بصحيفة وكاتِب وكان الكاتب غلاماً لعمرو، فتقدّم إليه أن يبدأ به أوّلاً دون أبي موسى لما أراد به من المكر به؛ ثمَّ قال له بحضرة الجماعة: «أكتب، فإنّك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً أمرك به أحدنا حتّى تستأمر الآخر فيه؛ فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فاصبر حتى يجتمع رأينا؛ أكتب: باسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان» (فكتب الكاتب وبدأ بعمرو) فقال له عمرو: «لا أمّ لك! أتقدّمني قبله كأنّك جاهل بحقّه؟ (فبدأ باسم عبد الله بن قيس وكتب:) تقاضيا على أنّهما يشهدان أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله «بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلِّه ولو كره المشركون[2]». ثمّ قال عمرو: «ونشهد أنّ أبا بكر خليفة رسول الله (صلعم) عمل بكتاب الله وسنّة رسوله حتّى قبضه الله إليه وقد أدّى الحقّ الذي عليه» ـ فقال أبو موسى: «أكتب»؛ ثم ذكر في عمر مثل ذلك، فقال أبو موسى: «أكتب»؛ ثم قال عمرو: «إنّ عثمان وُلّي هذا الأمر بعد عمر على اجتماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله (صلعم) ورضى منهم وإنّه كان مؤمناً» ـ قال أبو موسى: «ليس هذا ممّا قعدنا له» ـ فقال عمرو: «لا بدّ من أن يكون كافراً أو مؤمناً»؛ قال أبو موسى: «كان مؤمناً» ـ قال عمرو: «فمره يكتب» ـ فقال أبو موسى: «أكتب» ـ قال عمرو: «وظالماً قُتل عثمان أو مظلوماً؟»؛ ـ قال أبو موسى: «مظلوماً» ـ قال: «أفليس قد جعل الله لوليّ المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟» ـ قال أبو موسى:

---

١ ـ يستدل من هذه العبارة أن بداية التحكيم كانت تتجه إلى تسمية خليفة جديد: «هلم إلى امرءٍ يجمع الله به الالفة...» إلاّ أن خلافاً قد سجّل حول كلمة «امرءٍ» وقد وردت في بعض المدونات «أمرٍ» وليس «امرءٍ» عندها يتغير المعنى تماماً ـ المؤلف ـ

٢ ـ سورة التوبة، ٩ : ٣٣؛ وسورة الصف، ٦١ : ٩

« نعم » ـ قال عمرو : « فهل تعلم لعثمان وليّاً أقوى من معاوية؟ » قال أبو موسى : « لا » ـ قال عمرو : « أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتّى يقتله أو يعجز عنه؟ » ـ قال : « بلى » ـ قال عمرو للكاتب : « أكتب » وأمره أبو موسى فكتب ؛ ـ فقال عمرو : « فإنّا نقيم البيّنة أنّ عليّاً قتل عثمان » ـ قال أبو موسى : « هذا أمر قد حدث في الإسلام وإنّما اجتمعنا لغيره ؛ فهلمّ إلى أمر[1] يصلح الله تعالى به أمر أمّة محمّد (صلعم) » ـ فقال عمرو : « وما هو؟ » ـ قال أبو موسى : « قد علمت أنّ أهل العراق لا يحبّون معاوية أبداً ، وأهل الشأم لا يحبّون عليّاً أبداً ، فهلمّ نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر » (وكان عبد الله بن عمر على بنت أبي موسى) فقال عمرو : « أيفعل ذلك عبد الله؟ » ـ قال أبو موسى : « نعم ، إذا حمله الناس على ذلك » ؛ فعمد عمرو إلى كلّ ما مال إليه أبو موسى فصوّبه وقال : « هل لك في سعد؟ » ـ قال أبو موسى : « لا » . وعدّد له عمرو جماعة وأبو موسى يأبى ذلك الاّ ابن عمر ؛ فأخذ عمرو الصحيفة فطواها ووضعها تحت قدمه من بعد أن ختماها جميعاً ، وقال عمرو : « أرأيت إن رضي أهل العراق بعبد الله بن عمر وأباه أهل الشأم أتقاتل أهل الشأم؟ » ـ قال أبو موسى : « لا » ـ قال عمرو : « فإن رضي أهل الشأم وأبى أهل العراق أتقاتل أهل العراق؟ » ـ قال أبو موسى : « لا » ـ فقال عمرو : « أمّا إذا رأيت الصلاح في هذا الأمر والخير للمسلمين فقم واخطب الناس واخلع صاحبينا معاً وتكلّم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه » ـ فقال أبو موسى : « بل أنت فقم فاخطب ، فأنت أحقّ بذلك » ـ فقال عمرو : « ما أُحبّ أن أتقدّمك وما قولي وقولك للناس إلاّ واحد فقم راشداً » .

« فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله (صلعم) ، ثم قال : « أيّها الناس إنّا نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح ولمّ الشعَث وحقن الدماء وجمع الإلفة خلعنا عليّاً ومعاوية ، وقد خلعت عليّاً كما خلعت عمامتي هذه (ثم أهوى إلى عمامته فخلعها) واستخلفنا رجلاً قد صحب رسول الله

---

١ ـ راجع الحاشية رقم ١ في الصفحة السابقة

(صلعم) بنفسه وصحب أبوه النبيَّ فبرّز في سابقته، وهو عبد الله بن عمر »، وأطراه ورغّب الناس فيه، ثمّ نزل؛ فقام عمرو فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله (صلعم) ثمّ قال: « أيّها الناس إنّ أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليّاً وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب وهو أعلم به، ألا وإنّي قد خلعت عليّاً معه وأُثبّت معاوية عَلَيّ وعليكم، وإنّ أبا موسى قد كتب في الصحيفة أنّ عثمان قُتل مظلوماً شهيداً وأنّ لوليّه سلطاناً يطلب بدمه حيث كان؛ وقد صحب معاوية النبيّ (صلعم) وصحب أبوه النبيّ فهو الخليفة علينا وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان » ـ فقال أبو موسى: « كذب عمرو، لم نستخلف معاوية وإنّما خلعناه وخلعنا عليّاً معه » ـ فقال عمرو: « كذب عبد الله بن قيس قد خلع عليّاً ولم أخلع معاوية[1] ».

وفي تفصيل آخر، أنّهما « اتّفقا على خلع عليّ ومعاوية، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى، يختار الناس رجلاً يصلح لهم؛ فقدّم عمرو أبا موسى فقال أبو موسى: « إنّي قد خلعت عليّاً ومعاوية فاستقبلوا أمركم »؛ وتنحّى؛ فقام عمرو مكانه وقال: « إنّ هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبّت صاحبي معاوية » ـ فقال أبو موسى: « ما لك لا وفّقك الله! غدرتَ وفجرتَ وإنّما مَثَلك: ـ كمثل الحمارِ يحمِلُ أسفاراً[2] ـ »؛ فقال عمرو: « بل إيّاك يلعن الله كذبت وغدرت، إنّما مثَلك ـ كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهثُ أو تتركه يلهثُ[3] ـ ». ثمّ ركل أبا موسى فألقاه لجنبه: فلمّا رأى شريح بن هانئ الهمذانيّ ذلك قنّع عمرا بالسوط، وانخزل أبو موسى فاستوى على راحلته ولحق بمكّة، ولم يعد إلى الكوفة، وقد كانت خطّته وولْده بها، وآلى أن لا ينظر في وجه عليّ ما بقي؛ ومضى سعد وابن عمر إلى بيت المقدس فأحرما[4] ».

---

١ ـ نقلاً عن: المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٤٥ ـ ١٤٨

٢ ـ سورة الجمعة، ٦٢ : ٥

٣ ـ سورة الاعراف، ٧ : ١٧٦

٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٤٨ ـ ١٤٩؛ راجع الطبري، ١ : ٣٣٥٩؛ وشرح نهج البلاغة، ١ : ١٩٨؛ واليعقوبي، ج ٢ ص ١٩٠

وهكذا، وباعتقادنا أنّه بعكس ما ذهب إليه الاعتبار السائد، فإنّ التحكيم لم يؤتِ ثماره. وبالتالي، لم يضع خاتمة لخلافة عليّ. إنّما الشأن الذي قهقر خلافة عليّ، هو: مبدأ القبول بالتحكيم، قبل حوالى سنة ونصف من تاريخ التحكيم نفسه. إذ منذ ذلك الحين، منذ القبول بمبدأ التحكيم، أصبح الإسلام شعَثا.

الإنقسام

ما أن ارفضّ مجلس التحكيم على خلاف، في كانون الثاني (يناير) ٦٥٩، حتىّ وفى معاوية بوعده لعمرو، فولاّه مصر[١]، بعد أن بايع أهل الشام معاوية «الذي انصرف إلى أهله خليفة». في هذه الأثناء، اجتمع حوالى أربعة آلاف من الخوارج في الحروريّة ـ أو حاروراء ـ بالقرب من الكوفة، وسمّوا عبد الله بن وهب الرّاسبي خليفة، وبايعوه. ومنذ ذلك الحين، بات الخوارج يلقّبون بالحروريّة. وقد جعلوا شعارهم: «لا حكم إلاّ لله».

وبذلك، بات في الإسلام، للمرّة الاولى، أكثر من خليفة. بل أصبح هنالك ثلاثة خلفاء: الخليفة الشرعيّ عليّ بن أبي طالب. والخليفة المتمّرد، معاوية. وخليفة الخوارج، عبد الله بن وهب الراسبيّ.

فبينما كان انصار بني أميّة في الشأم ومصر، يرون أن تكون الخلافة في قريش وأنّ البيت الأمويّ أحقّ بها، وبينما كان شيعة عليّ بن أبي طالب في العراق يرون أن تكون الخلافة في قريش، وأنّ عليّاً ـ وأولاده من بعده ـ أحقّ المسلمين بها، كان الخوارج، وهم أعداء الفريقين، يستحلّون دماءَ أنصارهما، ويرون أنّ كل أفراد الجماعتين خارجون على الدّين. وكان هؤلاء الخوارج يمثّلون الديموقراطيّة الإسلاميّة، إذ كانوا يرون أنّ الخلافة حقّ لكلّ «مسلم عربيّ حرّ»، ثمّ عدّلوا شرطهم إلى «الإسلام والعدل» بدل «العروبة والحرّيّة»، خاصّة بعد أن انضمّ إلى

---

١ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٥٢. وفيه تفاصيل الرواية التي تتحدث عن محاولة عمرو ابتزاز معاوية، وعن كيفيّة قيام معاوية بإيقاع عمرو في فخ نصبه له، فمنعه عن ابتزازه.

صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب، أكثرهم من الفرس. كما قالوا إنّه «إذا اختير الخليفة فلا يصحّ أن ينزل عنها» ـ إشارة إلى قبول عليّ بالتحكيم ـ وإذا ظلم استحلّوا عزله أو قتله ـ إشارة إلى موقفهم من مقتل عثمان[1]. كما «أبى الخوارج الأخذ بكرامة الأولياء، وبما يرافق ذلك من مراسم خاصّة وزيارات إلى مدافن الصالحين، وحرّموا الطرق الصوفيّة على اختلافها[2]».

عند هذه المستجدّات، كان لا بدّ من أن يصطدم عليّ بالخوارج، قبل أن يعود الى تحكيم السيف بينه وبين معاوية. خاصّة بعد أن كان هؤلاء قد بدأوا ما يشبه الثورة على عليّ، إذ بعد مبايعتهم الراسبيّ، شنّوا هجوماً على المدائن «وقتلوا عامل عليّ عليها: عبد الله بن خبّاب، ذبحاً، وبقروا بطن امرأته الحامل، وقتلوا غيرها من النساء، وطاردوا الأنصار والمهاجرين[3]».

انتقل عليّ على رأس خمسة وثلاثين ألف مقاتل ونزل الأنبار[4]، حيث التأمت إليه العساكر، فخطب الناس وحثّهم على الجهاد وقال: «سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قُدماً فإنّه طالما سعوا في إطفاء نور الله ـ عزّ وجلّ ـ وحرَّضوا على قتال رسول الله (صلعم) ومن معه، إلا أنّ رسول الله (صلعم)، أمرني بقتل القاسطين[5] ـ وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم ـ والناكثين[6] ـ وهم الذين فرغنا منهم ـ والمارقين[7] ـ ولم نلقهم بعدُ – فسيروا إلى القاسطين فإنّهم أهمّ علينا من الخوارج. سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبّارين يتَّخذهم الناس أرباباً ويتَّخذون عباد الله خولا ومالهم دُوَلا». غير أنّ الجموع أبوا إلاّ أن يبدأوا بالخوارج[8].

---

١ ـ راجع: سليمان مظهر، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦؛ راجع مجلد «الشيعة من هذه الموسوعة»

٢ ـ جواد بولس، التحولات، ص ١٠٣

٣ ـ راجع: المسعودي، ج ٣ ص ١٥٥

٤ ـ الانبار. مدينة قديمة كانت تقع على الفرات من العراق.

٥ ـ القاسط: جمعها القسَّاط والقاسطون: الذين جاروا وحادوا عن الحق. والذين يعنيهم هنا عليّ، لا بد من أنهم جماعة معاوية.

٦ ـ الناكث: هو الذي نقض العهد. ولا بد من أن يكون عليّ قد عنى بالناكثين هنا، من دحرهم في يوم الجمل.

٧ ـ المارق وجمعها المارقون والمرّاق: من مرق من الدين. أي من خرج من الدين، والمقصود هنا: الخوارج.

٨ ـ راجع: المسعودي، ج ٣ ص ١٥٥ ـ ١٥٦

سار عليّ بجيوشه حتّى وصلوا النهروان، الواقعة بين بغداد وواسط. وكعادته قبْل كلّ قتال، حاول عليّ أن يثني الخوارج عن موقفهم، فبعث إليهم رسولاً يدعوهم إلى الرجوع، وقد خرجوا، إلاّ أنّ جوابهم كان عنيفاً: «إن تبْت من حكومتك وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك، وإن أبيت فاعتزلنا حتّى نختار لأنفسنا إماماً؛ فإنّا منك براء[1]».

واذ لم ييأس عليّ من إقناعهم، راح يردّ الرسول بكلام يدعو الى التعقّل ويعود الرسول بجواب رافض لا يخلو من التحدّي، بينما راح الخوارج يتقدّمون نحو موقع جند عليّ، حتّى أعطى أوامره بالهجوم عليهم، وكانت واقعة النهروان التي كاد عليّ أن يبيد فيها الخوارج، وقيل إنّه لم يسلم منهم سوى عشرة أنفار من أصل أربعين ألفاً. وإنّه لم يُقتل لعليّ سوى عشرة[2]. إلاّ أنّ عدداً لا بأس به من الخوارج، على ما يبدو، لم يكن في صفوف المقاتلين، وقد يكون هؤلاء هم الذين سلموا، وواصلوا الانتشار فيما بعد، سواء في أيّام الدولة الأمويّة أو الدولة العبّاسيّة[3]. أمّا موقعة النهروان، فقد جرت سنة ٦٥٨.

بعد حسم مسألة الخوارج، فشل عليّ في اقناع القوم بالتوجُّه لمحاربة معاوية. فلمّا انتهت المعركة، خطب عليّ قائلاً: «إنَّ الله قد أحسن إليكم وأعزّ نصركم، فتوجَّهوا من فوركم هذا إلى عدوّكم». فقالوا: «يا أمير المؤمنين لقد كلّت سيوفنا ونفدت نبالنا ونصلت أسنّة رماحنا، فدعنا نستعدُّ بأحسن عدّتنا». وقد كان صاحب هذا الكلام، الأشعث بن قيس. وإذ يئس عليّ من إقناعهم، راحوا يتسلّلون عائدين إلى ديارهم بما غنموه، ولم يبقَ منهم بالمعسكر سوى نفر قليل[4].

---

١ ـ راجع: المسعودي، ج ٣ ص ١٥٦؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٩٢

٢ ـ راجع: الطبري، ١ : ٣٣٨٣؛ وشرح نهج البلاغة، ١ : ٢٠٥؛ والمسعودي: مروج الذهب، ج ٣ ص ١٥٧ ـ ١٥٨؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٩٣

٣ ـ راجع: سليمان مظهر، ص ٤٩٥

٤ ـ راجع: الطبري، ١ : ٣٣٨٥ و ١ : ٣٤١٨ وما يليها؛ والمسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٥٨ ـ ١٥٩؛ وشرح نهج البلاغة، ١ : ٢٦٤ وما يليها.

مقتل عليّ

قبل ذلك التاريخ، كان معاوية قد تمكّن من اثنين من أشدّ كبار أنصار عليّ، هما: محمّد بن أبي بكر، والأشتر. وقد قُتل الأوّل في معركة المسناة التي وقعت بينه وبين جند معاوية، والثاني قضى مسموماً في منطقة الفسطاط، بتناوله عسلاً من يد رجل كلّفه بذلك معاوية. وكان مقتل الرجلين سنة ٣٨ هـ / ٦٥٨م. وإذا لم يكن هنالك بين عليّ ومعاوية من حرب شهيرة سوى معركة صفّين، فإنّ معاوية استمرَّ يوجّه الغارات على عمّال عليّ والمناطق التي كانت تبايعه، وكان على عليّ أن يواجه تلك الغارات بخطط دفاعيّة يقظة، وكان عليه أن يتحمَّل كلّ هذا، بانتظار الانقضاض على معاوية. ولكنّ حقد الخوارج لن يمكّنه من ذلك.

وفي صبيحة ٢٤ كانون الثاني (يناير) سنة ٦٦١[١]، بينما كان عليّ في طريقه إلى المسجد في مدينة الكوفة، سدَّد إليه أحد الخوارج طعنة صائبة بخنجر مسموم وقعت في جبهته، تنفيذاً لمؤامرة حاكها الخوارج، كانت تقضي بقتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص. إلاّ أن عليّاً وحده، قُتل، ولم يوفَّق المكلّفان بقتل الآخرَين في إنجاز مهمّتهما[٢].

وباستشهاد عليّ، ينتهي عهد الخلفاء الراشدين، الذين كُنّوا بذلك، لأنّهم عاصروا الرسول وصاحبوه.

وبانتقال الخلافة، من الراشدين، إلى من سيليهم، يبدأ ظهور الفرَق الإسلاميّة، ويبقى خطٌّ مستقيم رافضاً البدع والاجتهادات، أصحابه هم: أهل السنّة.

---

١ ـ اليعقوبي جعلها في «أول ليلة من العشر الاواخر من رمضان سنة ٤٠ هـ.»

٢ ـ تفاصيل مقتل عليّ: راجع جزء الشيعة من هذه الموسوعة. وراجع: المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٦٤ وما يليها؛ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢١٢.

الفصل الرابع

نشوء الطوائف في الإسلام

- السنَّة . . . وأهلها
- الخوارج
- الشيعة
- أسباب نشوء الفرق في العهد الأموي
- القدريَّة
- المعتزلة
- المرجئة

قبل مقتل عليّ بأشهر، كان أهل الشام قد أعلنوا خلافة معاوية في بيت المقدس (إيلياء) سنة ٦٦١. وإثر مقتل عليّ، قام أهل العراق، أنصار عليّ، بمبايعة الابن البكر للخليفة الراحل: الحسن، وأعلنوه الخليفة الشرعيّ، نصّاً وتعييناً. ولكنّ معاوية كان يعلم أنّ الحسن لم يكن يميل إلى الحكم بقدر ما كان يميل إلى أمور الدنيا. فكتب إليه يقول: « أمّا بعد، فأنت أولى بهذا الأمر وأحقّ به لقرابتك. ولو علمت أنّك أضبط له وأحوط على حريم هذه الأمّة وأكيَد، لبايعتك. فسَلْ ما شئت». وكان معاوية أرسل إليه صحيفة بيضاء وكتب إليه: «أنِ اشترِط في هذه الصحيفة التي ختمتُ أسفلها ما شئت فهو لك»... وبعد مساومات ومراسلات طلب الحسن أن يعطيه معاوية عطاء كبيراً بلغ الملايين من الدراهم، وخراج الكوفة، وخراج دارا بجرد في فارس[1].

وكانت نهاية خلافة الحسن، بعد ما يقارب الشهرين، إذ «لمّا رأى أنْ لا قوّة به، وأنّ أصحابه قد افترقوا عنه.. صالح معاوية، وصعد إلى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أيّها الناس إنّ الله هداكم بأوّلنا وحقن دماءكم بآخرنا، وقد سالمت معاوية، وإنْ أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين[2]». - راجع جزء الشيعة من هذه الموسوعة -

وإذا كان الشيعة قد ناصبوا الأمويّين العداء طوال العهود الأمويّة، يخطئ من يعتبر أنّ الأمويّين كانوا يمثّلون السنّة، أو أهل السنّة، في ذلك الوقت. وقد يكون هذا الأمر بحاجة لبعض التوضيح، خاصة بالنسبة لغير المسلمين. وهذا يفرض شرح معنى السنّة، والتعريف بأهلها.

---

١ - راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٧١؛ وراجع: الجزء الخامس من هذه الموسوعة، الفصل الثاني ص ٢٧ وما يليها.

٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٢١٥

«يرى الإسلام أنّ على الإنسان أن يخدم الله وأن يعبده، لأنّ الله خلق الإنسان، وهو مصدر كلّ قوّة وسلطان. ولكنّ هذا الإنسان لا يعرف كيف يخدم الله ولا كيف يعبده إن لم يكن يعرف مشيئة الله وإرادته. هذه المشيئة وهذه الإرادة الإلهيّة يعلنها الأنبياء، وأعظم الأنبياء وخاتمهم هو الرسول العربيّ محمّد. ولا يوحَى بالإرادة الإلهيّة ليؤمن بها المؤمن، بل لتكون فرضاً يجب إطاعته والعمل بموجبه. وعصيان أوامر الله ونواهيه إثم ومعصية - تفوق في خطورتها الجرائم المدنيّة - يحاسَب عليها المرء في العالم الآتي. وليس الشرع نيراً يُثقل كاهل المؤمن، بل إنّه امتياز يُمنحه الإنسان، وإذا عمل بموجبه نال الثواب. وليست الشريعة الإسلاميّة مجرّد شريعة موحى بها من الله، بل إنّها كلمة الله المجسّدة في القرآن الكريم غير المخلوق. إنّه كان مع الله منذ البدء، وفي اللوح المحفوظ، إلى أن أوحى الله به إلى رسوله ليبلّغه الإنسان. والقرآن الكريم تامّ، أزليّ، عالميّ، شامل، يصلح لكلّ إنسان في كلّ عصر وزمان. وهو شريعة سماويّة كلّيّة. وليس للدولة أن تسنَّ الشرائع بل عليها أن تطبّق الشريعة السماويّة، لأنّ الشريعة وُجدت قبل أن توجد الدولة، وقبل أن يُخلق الإنسان. وهذه الشريعة تحدِّد العلاقة بين العبد وخالقه، كما أنّها تحدِّد العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان. والشريعة هداية من الله تُهدي المجتمع للوصول إلى الحياة السعيدة التي يريدها الله لمخلوقاته... ولقد كان النبيّ في حياته، وبصفته رسول الله، يقوم بالمهامّ الثلاث: التشريع والقضاء والتنفيذ. في حالة كهذه، لا يمكن أن تقوم مشكلات يصعب حلّها. ولكن بوفاته انقطع الوحي، ولم يرث الخلفاء من بعده وظيفة التشريع التي هي من حقّ النبوءة. ولكن بصفتهم رؤساء دولة، كانوا يقومون بوظيفة القضاء والتنفيذ[1]».

ويعتبر علماء الإسلام، أنّ رسالة الإسلام لم تكن رسالة موضعيّة محدّدة «يختصّ بها جيل من الناس دون جيل، أو قبيل دون قبيل، شأن الرسالات التي

---

١ - راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٣٠ - ٢٣١

تقدّمتها. بل كانت رسالة عامّة للناس جميعاً إلى أن يرث الأرض ومن عليها؛ لا يختصّ بها مصر دون مصر، ولا عصر دون عصر. قال الله تعالى: «تَبارَكَ الذي نزّلَ الفُرقَانَ على عبدهِ ليكونَ للصالحين نذيراً[1]». وقال تعالى: «وما أرسلناكَ إلاّ كافّةً للناس بشيراً ونذيراً[2]». وقال تعالى: «قُل يا أيّها الناس إنّي رسوُل اللهِ إليكم جميعاً، الذي له مُلكُ السموات والأرضين، لا إلهَ إلاّ هو يُحيي ويُميت فآمنوا بالله ورسوله النبيِّ الأمّيِّ الذي يؤمِنُ باللهِ وكلماتهِ واتَّبعوه لعلَّكم تهتدون[3]». وفي الحديث الصحيح: «كان كلّ نبيٍّ يُبعَثُ في قومه خاصّة، وبُعثتُ إلى كلّ أحمرٍ وأسود[4]».

ويقول علماء الإسلام إنّه «مما يؤكّد عموم الرسالة وشمولها، ما يأتي:

١ ـ أنّه ليس فيها ما يصعب على الناس اعتقاده، أو يشقّ عليهم العمل به. فقد، قال الله تعالى: «لا يكلِّف الله نفساً إلاّ وُسعَها[5]». و «يُريدُ الله بكُم اليُسرَ ولا يُريدُ بكمُ العُسرَ[6]». و «وَمَا جعلَ عليكم في الدِّينِ من حَرَجٍ[7]». وفي البخاريّ[8] من حديث أبي سعد المقبُريّ أنّ «رسولَ الله (صلعم) قال: «إنّ هذا الدينَ يُسرَ، ولن يشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلاّ غَلبَه».

---

١ ـ سورة الفرقان، ١

٢ ـ سورة سبأ، ٢٨

٣ ـ سورة الاعرف، ١٥٨

٤ ـ راجع: السيّد السّابق، فقه السنّة. دار الكتاب العربي (بيروت) المجلد الاوّل، ص ٨

٥ ـ من سورة البقرة

٦ ـ من سورة البقرة

٧ ـ سورة الحج، بعض من آية ٧٨

٨ ـ البخاري (محمد بن اسماعيل الجعفي) (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ / ٨١٠ ـ ٨٧٠ م) محدّث، حافظ، فقيه، مؤرّخ. ولد في مدينة بخارى الواقعة في اوزبكستان ـ غربي الاتحاد السوفياتي سابقاً ـ وتوفي في خرتنك (سمرقند). رحل في طلب العلم إلى سائر محدّثي الأمصار، فزار خرسان والعراق والحجاز ومصر والشام. حفظ مئات الآلاف من الحديث وأخرج عنها كتابه «الجامع الصحيح» الذي اشتهر به، وقد شرحه ابن حجر العسقلاني، والقسطلاني، وأبو زيد. من كتبه أيضاً: «الجامع الكبير»، «المسند الكبير»، «التاريخ» في تراجم رجال الاسناد والتاريخ ـ المنجد ـ

٢ ـ أنّ ما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان، كالعقائد والعبادات، جاء مفصّلاً تفصيلاً كاملاً، وموضّحاً بالنصوص المحيطة به، فليس لأحد أن يزيدَ فيه أو ينقص منه. وما يختلف باختلاف الزمان والمكان، كالمصالح المدنيّة، والأمور السياسيّة والحربيّة، جاء مجملاً، ليتّفق مع مصالح الناس في جميع العصور، ويهتدي به أولو الأمر في إقامة الحقّ والعدل.

٣ ـ أنّ كلّ ما فيها من تعاليم «إنّما يُقصدُ به حفظُ الدّين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال. وبدهيّ أنّ هذا يناسب الفطَر ويساير العقول، ويجاري التطوّر، ويصلُح لكلّ زمان ومكان... قال الله تعالى: «قلْ مَن حَرَّمَ زينة الله التي أخرَجَ لعباده والطيّباتِ من الرّزق، قُلْ هي للّذين آمنوا في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة، كذلكَ نُفصِّلُ الآيات لقوم يعلَمون. قُلْ إنّما حرَّمَ رَبِّيَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ، والإثمَ والبَغْيَ بغَيرِ الحقِّ، وأنْ تُشركوا بالله ما لَم يُنزِّل به سلطان، وأن تقولوا على الله ما لا تَعْلَمون[1]» وقالَ جلَّ شأنه: «وَرحمتي وسِعتْ كلَّ شيءٍ فسأكتُبُها للّذين يتَّقون، ويُؤتُون الزَّكاة، والذين هم بآياتنا يُؤمنون. الذّين يتَّبعون الرّسولَ النبيَّ الأمّيَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهُمْ في التوراةِ والإنجيل، يأمرُهُمْ بالمعروفِ وينهاهُمْ عن المُنكرِ، ويُحلُّ لهم الطيّبات، ويُحرِّم عليهم الخبائث. ويضعُ عنهُمْ إصْرهم والأغلالَ التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزّزوه نصَروه، واتّبعوا النُّور الذي أُنزلَ معهُ، أولئك همُ المُفلحون[2]».

وبالتالي، يعتبر العلماء المسلمون، أنّ «التشريع الدينيّ المحض، كأحكام العبادات، لم يكن يصدر إلاّ عن وحي الله لنبيّه، من كتاب أو سنّة[3]، أو بما يُقرّه عليه من اجتهاد. وكانت مهمّة الرسول لا تتجاوز دائرة التبليغ والتبيين» «وما

---

١ ـ سورة الاعراف، ٣٢ : ٣٣

٢ ـ سورة الاعراف، بعض من آية ١٥٦، وآية ١٥٧

٣ ـ السنّة: المعنى اللغوي للكلمة: العادة والتقليد. وهي اصطلاحاً مبدأ المحافظين من المسلمين، وسيأتي تعريف أوفى في صدر النص.

ينطقُ عن الهوى، إن هو الآ وحيٌ يوحى[1] ». أمّا التشريع الذي يتّصلُ بالأمور الدنيويّة، من قضائيّة وسياسيّة وحربيّة، فقد أمر الرسول بالمشاورة فيها، وكان يرى الرأيَ فيرجعُ عنه لرأي أصحابه، كما وقع في غزوةِ بدرٍ وأُحد. وكان الصحابة يرجعون إليه يسألونه عمّا لم يعلموه، ويستفسرونه فيما خُفي عليهم من معاني النصوص، ويعرضون عليه ما فهموه منها، فكان أحياناً يُقرّهم على فهمهم، وأحياناً يبيّن لهم موضع الخطأ فيما ذهبوا إليه.

« والقواعد العامّة التي وضعها الإسلام، ليسير على ضوئها المسلمون، هي:

« ١ ـ النهي عن البحث فيما لم يقع من الحوادث حتّى يقع: ـ يا أيّها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبدَ لكم تَسُؤْكُم، وإنْ تسألوا عنها حين يُنزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم عفا الله عنها، واللهُ غفورٌ رحيم[2] ـ». وفي الحديث: أنّ الرسول نهى عن الأُغلوطات، وهي المسائل التي لم تقع.

« ٢ ـ تجنّب كثرة السؤال وعُضَلِ المسائل، ففي الحديث: ـ إنّ الله كره لكم قيلَ وقالَ وكثرةَ السؤال، وإضاعة المال ـ و ـ إنّ الله فرضَ فرائض فلا تضيّعوها وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياءَ فلا تنتَهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها ـ و ـ أعظمُ الناس جُرماً، من سأل عن شيء لم يحرَّمْ فحُرِّمَ من أجلِ مسألتِهِ[3] ـ .

« ٣ ـ البعد عن الاختلاف والتفرّق في الدّين: ـ وأنَّ هذه أمّتكم أمّةً واحدة[4] ـ. أيضاً: ـ إعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا[5] ـ . أيضاً: ـ لا تَنَازعوا

---

١ ـ سورة، النجم، ٣ و ٤
٢ ـ سورة المائدة، ١
٣ ـ السيّد السابق، فقه السنّة، م ١ ص ١١
٤ ـ سورة المؤمنون، ٥٢
٥ ـ سورة آل عمران، ١٠٣

فتفشلُوا وتذهَبَ ريحُكم[1]ـ. و ـ إنّ الذين فرّقوا دينَهم وكانوا شيَعاً لستَ منهم في شيء[2]ـ. و ـ كانوا شيعاً[3]ـ. أيضاً: ـ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بَعْد ما جاءَهم في البيّنات؛ وأولئك لهم عذاب عظيم[4]ـ.

« ٤ ـ ردّ المسائل المتنازع فيها إلى الكتاب والسنّة: ـ فإنْ تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرّسول[5]ـ. أيضاً: ـ وما اختلفتم فيه من شيء؛ فحُكمُهُ إلى الله[6]ـ... ذلك لأنّ الدّين قد فصّله الكتاب: ـ ونزّلنا عليكَ الكتابَ تبياناً لكلِّ شيء[7]ـ. وـ ما فرّطنا في الكتاب من شيء[8]ـ. وبيّنته السنّة العمليّة: ـ وأنزلنا إليكَ الذِّكرَ لتبيِّنَ للناس ما نُزِّل إليهم[9]ـ. و ـ إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ لتحكم بين الناس بما أراك الله[10]ـ. وبذلك تمَّ أمره، ووضحت معالمه: ـ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكمُ الإسلام دينا[11]ـ».

ويعتبر علماء السنّة، أنّه «ما دامت المسائل الدينيّة قد بُنيت على هذا النحو، وما دام الأصلُ الذي يُرجع إليه عند التحاكم معلوماً، فلا معنى للاختلاف ولا مجال له: ـ وإنّ الذين اختلفوا في الكتاب لَفي شقاق بعيد[12]ـ؛ أيضاً: ـ فلا وربِّك لا يؤمنون حتّى يُحكِّمُوك فيما شجَرَ بينهم، ثمَّ لا يجدوا في أنفسهم حرجا ممّا قضيتَ ويسلِّموا تسليما[13]ـ».

١ـ سورة الأنفال، ٤٦
٢ ـ سورة الانعام، ١٥٩
٣ ـ سورة الروم، ٣٢
٤ ـ سورة آل عمران، ١٠٥
٥ ـ سورة النساء، ٥٩
٦ ـ سورة الشورى، ١٠٠
٧ ـ سورة النحل، ٨٩
٨ ـ سورة الانعام، ٣٨
٩ ـ سورة النحل، ٤٤
١٠ ـ سورة النساء، ١٠٥
١١ ـ سورة المائدة، ٣
١٢ ـ سورة البقرة، ١٧٦
١٣ ـ سورة النساء، ٦٦

«على ضوء هذه القواعد، سار الصحابة ومَن بعدهم من القرون المشهود لها بالخير، ولمّا يقع بينهم اختلاف، إلاّ في مسائل محدودة، كان مرجعه التفاوت في فهم النصوص، وأنّ بعضهم كان يعلم منها ما يخفى على البعض الآخر[1]».

***

اذا كان الوحي، عند الإسلام، قد انقطع بوفاة الرسول، ولم يرث الخلفاء من بعده وظيفة التشريع التي هي من حقّ النبوّة، فإنّ هؤلاء الخلفاء، بصفتهم رؤساء دولة، كانوا يقومون بوظيفة القضاء والتنفيذ. وبالتالي، تغيّرت الحال ولم تعد الأمّة أهل المدينة المنوّرة، بل أصبحت الأمّة أمّة عالميّة. «فشعر أوّلو الأمر أنّهم بحاجة إلى مصادر إضافيّة تُستمدُّ منها القوانين التي لم ينصُّ عليها القرآن الكريم. وفضلاً عن هذا، فإنّ القرآن الكريم لم يُلمَّ بكلّ التفاصيل المتعلّقة بالفروض والشعائر وطريقة القيام بها. فالصلاة فرض على المسلم، ولكن ليس هناك نصّ على الآيات التي يجب على المصلّي أن يردّدها في صلاته، ولا على عدد الركعات أو السجود، فاتّبع المسلمون سنّة نبيّهم في هذه الأمور، وأخذوا من سلوكه في حياته مثلاً أعلى لهم. وكان رضاه عن عمل أو عادة يحمل المسلمين على قبوله، وبهذا أصبح لدى الصحابة والجيل الأوّل من التابعين، تقليد يتّبعونه. على أنّه عندما توفّي الصحابة والتابعون، شعر أوّلو الأمر بضرورة جمع أحاديث الرسول وتدوينها، وأصبح الحديث مصدراً ثانياً من مصادر الشرع. ومهما يكن من أمر، فإنّ عدد آيات القرآن التي تختصّ بالتشريع محدود، وكذلك عدد الأحاديث. على أنّ ما يطرأ من مشكلات في الحياة ليس له حصر. إذن يتوجّب على أوّلي الأمر أن يلجأوا إلى مصادر أخرى يستمدّون منها القوانين لمواجهة الأمور الطارئة. منها إدراج أقوال الصحابة والتابعين لهم، وحتى تابعي التابعين، وأفعالهم في الحديث. ولكنّ هذه الأقوال والأفعال محدودة ضيّقة الإطار. فلجأوا إلى مصدر أغنى من هذا المصدر

---

١ ـ راجع: السيّد السابق. م ١ ص ٨ وما بعدها.

الأخير، وهو ما يُعرف بالرأي. في هذه الأثناء كان عدد الأحاديث التي جُمعت قد بلغ درجة قصوى، ولم يكن قد وُضع بعد علم يُعنى بالحديث من حيث الإسناد، ولم يكن بعد هنالك مجموعات للحديث مدوّنة مُعترف بها. فكان لكلّ مدينة من مَرو ونيسابور في الشرق، إلى القيروان في الغرب، فإلى قرطبة في الأندلس، عالِم في الشريعة وله أتباع. وكان في متناول علماء الشرع آراء الجيل السابق في قضايا الفقه، لكي يهتدوا بهديها. ولكن لم يكن لديهم مجموعات لهذه الآراء المدوّنة... ولم يكن قد برز بعد عالِم شرع اكتسب شهرة على نطاق الأمّة الواسع ليُتّبع... ولكنّ هذه الاتّجاهات في قضايا الشرع التي كانت تعبيراً عن الأوضاع المحلّية، أخذت تتنافس في سبيل الاعتراف بها، والأخذ بها على نطاق واسع[1]».

وسط هذا التضارب، راحت الفرق تنشأ في الإسلام بدءاً من عهد معاوية، بعد أن انتقلت الخلافة، للمرّة الاولى، من «الرّاشدين» وهم أولئك الذين كانوا من أقرب أهل الصحابة. فكان الشيعة، أوّل من اجتهد من هؤلاء، بعد السبئيّة والخوارج. وإذا كانت السبئيّة قد تطرّفت في اعتبار عليّ، والخوارج قد جعلوا الحكم لله فقط، والشيعة قد اجتهدوا في أمر التشريع، فإنّ السنّة في ذلك الوقت، كانوا أولئك المحافظين الذين صمدوا في القرآن وسنّة الرسول، رغم المعاناة الفقهيّة التي استمرّت زمناً ليس بقصير، حتّى ظهور الفقهاء في بداية القرن الثامن الميلاديّ، أي في بداية القرن الثاني للهجرة.

وبينما كانت المذاهب والبدع تبرز إلى الوجود في عهد أوّل خليفة من بعد الراشدين: معاوية، كان المحافظون، الذين سيُعرفون فيما بعد بأهل السنّة، يصرّون على اعتبار أنّ القرآن غير المخلوق، هو المصدر الأخير للتشريع كلّه... فكلّ قانون وكلّ شرع مصدره القرآن، نصاً وضمناً. هذا هو رأي السنّة. ثمّ تُعتبر السنّة، بعد القرآن الكريم، مصدراً من مصادر التشريع. والسنّة، هي المأثور عن حياة الرسول وأخلاقه وأعماله غير التي عليها في القرآن نصّ معيّن. وقد حدّد،

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣

فيما بعد، أحد أشهر فقهاء الإسلام: الشافعيّ، حدّد السنّة على «أنّها التصرّف أو السلوك الأمثل، الذي سلكه النبيّ في حياته».

وإذا كان هذا هو موقف المحافظين، موقف أهل السنّة، فماذا كان في المذاهب والشيَع؟

يمكن تقسيم الفرق التي ظهرت في بداية الإسلام، زمنيّاً، إلى قسمين: تلك التي ظهرت قبل نهاية خلافة الراشدين، وتلك التي ظهرت في عهد الأمويّين.

أمّا الأولى، فتضمّ السبئيّين، والخوارج، والشيعة. وقد كان لهذه الفرق، علاقة بعليّ. وسواء كانت هذه العلاقة سلبيّة أم إيجابيّة، فإنّ عليّ بن أبي طالب، بحسب المدوّنات، لم يسعَ إلى تأليف أو إنشاء أيّ من هذه الفرق الثلاث، أو سواها. وبما أنّنا قد خصّصنا جزءاً من هذه الموسوعة للطوائف الشيعيّة، فسيقتصر هنا البحث على ما يتطلّبه سياق موضوع السنَّة. وإذ كنّا جئنا في الفصل السابق، على ذكر ظروف ظهور السبئيّة، ومعتقدها، سنحاول أوّلاً، فيما يلي إعطاء لمحة عن ملابسات موضوعَي نشوء الخوارج، والشيعة، ومعتقديهما، خاصة بالمقارنة مع السنّة.

الخوارج

إنّ الفارق الأساسيّ بين معتقد الخوارج، والسنّة، هو في أنّ السنّة، كما ذكرنا، يتّخذون من سنّة الرسول، ومن أحاديثه، ومن أقوال الصحابة والتابعين لهم، ومن الرأي، مصادر للتشريع. أمّا الخوارج، فقد امتازوا بشدّة تمسّكهم بالقرآن واتّباع أحكامه وتنفيذ أوامره، دون سواه. وقالوا إنّ العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان. وليس الإيمان هو الاعتقاد بالله ورسالة محمّد فحسب... فمَن اعتقد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، ثمّ لم يعمل بما يفرضه الدين، وارتكب الكبائر، فهو كافر.

وبلغة اليوم، يمكن وصف الخوارج، بالأُصوليّين بامتياز. ذلك أنّ خوفهم من عذاب الله يوم القيامة، يثير في نفوسهم الحماس للحقّ وشدّة التمسّك به، والامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه... وقد غالوا في أفكارهم حتّى عدّوا مرتكب أيّة هفوة مهما صغرت، كافراً. وتشدّدوا في معاملة المخالفين لهم، حتّى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني. ولم يتورّعوا عن ارتكاب أشدّ الأعمال قسوة، برغم ما كان من ظهورهم بمظهر العباد الزهّاد وتورّعهم من تافه الأمور. كما كانوا يأتون بأفظع المنكرات كأنّهم لا يدينون بإله ولا يعرفون شفقة ولا رحمة. إلاّ أنّ بعض فرق الخوارج، قد مال إلى الاعتدال. فقد تفرّق الخوارج أنفسهم إلى فرق عدّة، كاد عددها يصل إلى عشرين فرقة. وقد كانت مقالات بعض فرق الخوارج، هي السبب في اتّهامها بالخروج على الإسلام. وكان من بينها فرقتان بارزتان هما: اليزيديّة، وهم أتباع يزيد بن أبيه، الذي زعم أنّ الله سيرسل رسولا من العجم ويُنزل عليه كتاباً ينسخ القرآن؛ والميمونيّة، وهم أتباع ميمون العجرويّ الذي أباح الاتّصال ببنات الابن وبنات أولاد الأخوة والأخوات، كما أنكر سورة يوسف ولم يعدّها من القرآن، وزعم أنّها قصّة من القصص، وقال هؤلاء إنّه لا يجوز أن تكون قصّة العشق من القرآن فاستبعدوها[1].

إلا أنّ أساس نشوء الخوارج، يعود إلى خلاف سياسيّ كما سبق وذكرنا. إذ أنّ هؤلاء، هم الذين خرجوا عن الولاء لعليّ، يوم كان خليفة، بسبب قبوله بالتحكيم. وقد تطوّر أمرهم فيما بعد إلى تحوّلهم إلى أصحاب مذهب دينيّ.

الشيعة

أساس الشيعة، هو اعتقادهم بأنّ عليّ بن أبي طالب، أحقّ بالخلافة، وبأنّ أبا بكر، وعمر، وعثمان، أخذوا حقّ الإمامة المقدّس من عليّ.

---

١ ـ سليمان مظهر، ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧

وكان الأمر قد بدا سهلاً لهم حين تذمّر المسلمون من سياسة عثمان بن عفّان، وطالبوا بتحويل الخلافة إلى أهل البيت. وقد أشعل نار ثورتهم أبو ذرّ الغفاريّ. ويعتبر بعض أخصام الشيعة، أنّ ابا ذرّ، قد حُرّض من قبل ابن سبأ، منشئ السبئيّة، بينما ينكر الشيعة هذا الأمر، ويصرّون على عدم وجود أيّة صلة بين السبئيّة والشيعة.

غير أنّ مقتل عليّ، وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لعدم تمكّنه من الوقوف بوجه معاوية، بدّل المعادلة، ووضع أولئك الذين شايعوا عليّاً، أمام مسار مذهبيّ طويل.

ويذكر بعض المحقّقين أنّه قد تبيّن بأنّ تأثير عليّ، ميتاً، كان أشدّ منه وهو على قيد الحياة. إذ لم يلبث أن غدا في نظر مشايعيه إمامهم الأكبر، ووليّ الله عليهم. وإذ راحت الهوة تتّسع بين أنصار عليّ، من جهة، والخلافة الأمويّة من جهة ثانية، فقد تمكّن الشيعة من توطيد نظامهم. وكان الفارق الأساسيّ بين الشيعة والمحافظين، مسألة الإمامة. فالشيعة، بالإضافة إلى تشبّثها بأنّ إمامة عليّ وأبنائه هي الإمامة الحقّة الوحيدة، فإنّها تجعل الواسطة بين الله والإنسان، إنساناً، هو الإمام، بينما لا يُقرّ المحافظون بغير كلام الله المنزل، أي القرآن، واسطة في هذا المجال. وعلى ذلك، فالسنّي يعبّر عن عقيدته بأنّه يؤمن بالله الواحد الصمد، ويؤمن بنزول القرآن المحفوظ في السماء منذ الأزل. أمّا الشيعيّ فيزيد فقرة أخرى لاستكمال التعبير عن الإيمان، إذ يقول إنّه يؤمن بأنّ الإمام الذي اختاره الله، وبثّ فيه شيئاً من روحه القدسيّ، هو الهادي إلى الحقّ والمرشد إلى سبيل الخلاص. فالشيعة تضيف إلى الشهادة: «لا إله إلا الله ومحمّد رسول الله» «وعليّ وليّ الله».

وبينما الخليفة في نظر السنّة، هو الرئيس الزمنيّ لجماعة المسلمين، وهو أمير المؤمنين وحامي الشريعة، ولا يخصّه السنّة بسلطة روحيّة[1]، فإنّ الشيعة التي

---

١ ـ راجع: النسقي، عمدة عقيدة أهل السنة، نشر كورتن (لندن ١٨٤٣) ص ٢٨ ـ ٢٩

تحصر الإمامة في أسرة عليّ، لا تكتفي باعتبار الإمام الرئيس الأوحد للمجتمع الإسلاميّ، بل تجعله إلى ذلك الرئيس الروحيّ والزعيم الدينيّ. وتذهب إلى أنّه يستمدُّ سلطانه من النصّ المقدّس. وهكذا، يصبح لسليل محمّد، من ذريّة عليّ وفاطمة (ابنة الرسول) قوّة خارقة تصل إليه عن طريق الوراثة[1]، بها يغدو فوق البشر، وعن طريقها يتميّز بالعصمة. على أنّ بعض نصوص السنّة المتأخّرة قد نسبت العصمة من الإثم والخطأ إلى الأنبياء دون سواهم، وأخصّهم محمّد. وتمادى غلاة الشيعة في تأليه الإمام حتّى أنّهم اعتبروه تجسيداً للألوهيّة[2]...

ثمّ إن الشيعة بدورها، سوف تنقسم فيما بعد إلى فرق عدّة، كما سيأتي في المجلد الذي خصصناه لهذه الفرق[3].

أسباب نشوء الفرق في العهد الأمويّ

بانتقال الخلافة من أصحاب الرسول، إلى سواهم، مع نهاية عهد عليّ وبداية عهد معاوية بن أبي سفيان، وبتحوّل مركز خلافة المسلمين من المدينة، موئل هجرة الرسول وأصحابه، إلى دمشق، حيث تعدّد الأديان والأجناس والتيّارات الفكريّة، أصبحت الظروف مهيّأة مرّة أخرى لظهور التيّارات الجديدة في الإسلام. وإذا كان لظهور التيّارات الأولى، في نهاية عهد الراشدين، سبب رئيسيّ في اتّساعها هو دخول قوميّات فارسيّة وعراقيّة إلى مجتمع المدينة والجزيرة عموماً، فإنّ أسباباً مماثلة ستلعب دورها في ظهور التيّارات والفرق في عهد الأمويّين بعد انتقال الخلافة، معهم، إلى دمشق.

---

١ - راجع: المسعودي، ج ١ ص ٧٠

٢ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٠؛ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٦٧

٣ - راجع المجلّدين الخامس والسادس من هذه الموسوعة

فإذا كان الرسول، وخلفاؤه الراشدون، قد حرصوا على تطهير الجزيرة من غير المسلمين، بإجبارهم اليهود والنصارى على النزوح النهائيّ في حال عدم اعتناقهم الإسلام، فإنّ الوضع أصبح مختلفاً في مركز الخلافة الجديد: دمشق، حيث سُمح لمن لم يعتنقوا الإسلام بأن يبقوا، أهل ذمّة، دون أن يُجبَروا على مغادرة البلاد. حتى إنّ الخلفاء الأمويّين، وأولّهم معاوية، قد أدخلوا المسيحيّين السوريّين في الجيش، واستعان معاوية بآل سرجون السوريّين المسيحيّين الذين تولّوا شؤون بيت المال، وظلّت هذه الوظيفة وراثيّة بينهم[1].

على وجه العموم، يمكن القول: «إنّه عندما بادر السوريّون والعراقيّون والفرس والقبط والبربر إلى الدخول في حظيرة الإسلام، وامتزجوا بالعرب عن طريق الزواج، زال الحاجز الذي كان يفصل بين الفريقين، وغدا المسلم، كائناً ما كانت جنسيّته الأصليّة، يُقبِل على تعلّم العربيّة، فيُعتبر في جملة العرب. على أنّ العرب أنفسهم لم يصطحبوا من الجزيرة شيئاً من العلم أو الفنّ أو التقليد الفكريّ أو التراث الثقافي، إنّما جاؤوا بعنصرين جديدين من عناصر الثقافة، هما اللغة العربيّة والدين الإسلاميّ، أمّا في ما سوى ذلك، فقد وجدوا أنفسهم مضطَّرين إلى الاعتماد على الشعوب التي غلبوها على أمرها، فكانوا يمثُلون بين أيدي مواليهم مثول التلميذ أمام أستاذه. وبذلك غدوا مثالاً آخر على المنتصر يغدو أسيراً للمقهور. فإذا نحن تحدّثنا، مثلاً، عن الطبّ والفلسفة أو الرياضيّات عند العرب، فلسنا نعني ضرورةً أنّها من نتاج العقل العربيّ، أو أنّها نمت وازدهرت برعاية سكّان الجزيرة العربيّة؛ بل نقصد أنّها أودعت كتباً عربيّة ألّفها علماء من السوريّين والفرس والعراقيّين والمصريّين والعرب، من نصارى ويهود ومسلمين، بعد أن استمدّوا أصولها من منابع يونانيّة وآراميّة وهنديّة وفارسيّة، ونميّز ذلك من المصادر[2]».

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١١٤ ـ ١١٥؛ حتّي، صانعو التاريخ العربي. ص ٦٨

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٠٤

وهنا، يبدو لنا أنّ أكثر الباحثين الذين ركّزوا في معالجاتهم على جهة تأثير الإسلام في المذاهب الفكريّة والروحيّة لأهل الأمصار التي تمّ فتحها، قد أغفلوا شأن تأثير تلك المذاهب... في الإسلام. ومن هذا التأثير الأخير، نشوء المذاهب الإسلاميّة، في عهد الأمويّين، على أرض الشأم.

فقد ظهرت «في العصر الأمويّ حركات دينيّة فلسفيّة عديدة، غلب عليها اسم الفرَق. ذلك أنّ احتكاك المسلمين بالنصارى في سورية أثار ضرباً من التأمّل الدينيّ والنقاش الفكريّ، إنتهى بظهور عدد من تلك الفرق، من أشهرها القدريّة، والمعتزلة، والمرجئة.

القــــــــــــــدريّة

تُعتبر القدريّة أقدم الفرق الفلسفيّة في الإسلام. وقد جاءت تسميتها: القدريّة، نسبة إلى «القدرة» وذلك معارضةً للجبريّة، من معنى «الجبر والإلزام[1]». ذلك أنّ ظهور القدريّة كان ردّة في وجه تعليم الإسلام الصارم الذي يقول بالجبر المطلق، مستخرجاً مما نصّ عليه القرآن من أنّ قدرة الله لا تُحدّ[2]. فكان علماء القدريّة يقولون إنّ للإنسان قدرة على أعماله، وفي هذا مناقضة مباشرة لقدرة الله كما وصفها القرآن الكريم: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير[3]» وفي القرآن الكريم آيات أخرى تعلّم الناس أنّه مهما أصاب الإنسان، مهما يحدث في السماء أو الأرض فبقضاء من الله، ومحفوظ في كتاب[4]. إلاّ أنّ أصحاب هذا المذهب لم يستطيعوا أن يوفّقوا بين معتقدهم ومسؤوليّة الإنسان وإلزامه الأدبيّ.

---

١ - راجع: الايجي، كتاب المواقف، نشر سورنسون (ليبزغ ١٨٤٨) ص ٣٣٤، ٣٦٢

٢ - سورة آل عمران، ٢٥ - ٢٦؛ الحجر، ٢١؛ الشورى، ٢٦؛ الزخرف، ١٠

٣ - سورة آل عمران، ٢٥

٤ - سورة النحل، ٧٧؛ سورة الحديد، ٢٢

كانوا يقولون: - إنّ الله قادر ولكنّه عادل، والله العادل لا يجازي الإنسان على عمل قام به، ما دام هذا العمل مكتوباً أو مقدّراً له - . ومثل هذه القضايا الدينيّة أزعجت عقول اللاّهوتيّين المسيحيّين زمناً طويلاً. وقد بدا وقع هذا الجدل على الإسلام في دمشق، ثوريّاً. ففي هذه المدينة، ولأوّل مرّة، أُفسح للعقل أنّ يدخل في أمور العقيدة المنزلة. أمّا في المدينة، فإنّ علماء الدين كانوا يعملون بعيدين عن التيّارات الفكريّة، وفي مجتمع لم يكن قد تمرّس بعد بأمور العلم والمعرفة؛ ولا ينطبق هذا الوصف على دمشق، فقد كان القدّيس يوحنّا الدمشقيّ[1] يُعتبر بمثابة العامل الرئيسيّ في نقل المعارف المسيحيّة والفكر الإغريقيّ إلى المجتمع الإسلاميّ. فمن جملة مؤلّفاته كتاب في حوارٍ قام بينه وبين عربيّ حول ألوهيّة المسيح وحريّة الإرادة الإنسانيّة. وكان الغرض من وضع هذا الكتاب أن يكون دليلاً يهتدي به المسيحيّ عند قيام جدل أو حوار بينه وبين المسلم[2]. وهكذا يتّضح ما كان للمسيحيّة من تأثير مباشر في ظهور مذهب القدريّة عند الإسلام.

المعتزلة

أمّا المعتزلة، فكانت نشأتهم عندما اختلف واصل بن عطاء (أبو حذيفة)[3] المتوفّي سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م. مع أستاذه الفقيه حسن البصريّ[4]، في مسألة

---

١ - القديس يوحنا الدمشقي (نحو ٦٧٥ - ٧٤٩) ولد في دمشق: من آباء ومعلمي الكنيسة. حفيد منصور ابن سرجون رئيس ديوان المالية على عهد معاوية. قاوم بدعة محطّمي الصور أو الأيقونوكلاست. ألّف في اللاّهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر والالحان الدينية. مهّد بمؤلفاته إلى نشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في أوروبة. تُرجم بعض مؤلفاته إلى العربية، منها كتابه «منهل المعرفة» - المنجد -

٢ - راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٢٥

٣ - واصل بن عطاء (أبو حذيفة) (ت ١٣١ هـ / ٧٤٨ م): رأس متكلمي المعتزلة وأكبر أركان هذه النحلة، وإليه تنسب «الواصلية». ولد بالمدينة وانتقل إلى البصرة حيث اتصل بالحسن البصري وعمرو بن عبيد. لُقّب بالغزّل لتصدّقه على فقيرات معامل الغزل. له «السبيل إلى معرفة الحق» و «الخطب في التوحيد والعدل» - المنجد -

٤ - الحسن البصري (أبو سعيد) (٢١ - ١١٠ هـ / ٦٤٢ - ٧٢٨م): تابعي من مشاهير الثقات ولد في المدينة وأقام في البصرة وفيها توفي. لقي عثمان بن عفّان وعبد الله بن عبّاس. كان فريداً في معرفة الاحكام الشرعية والتدريس والوعظ والحديث. أثّر تأثيراً عظيماً في جيله من المسلمين. له مكانة عظيمة في التصوف - المنجد -

المؤمن العاصي الذي ارتكب ذنباً كبيراً، أيُسمّى مؤمناً أم كافراً، وقال واصل إنّ مثل هذا الشخص لا يُعتبر مؤمناً، ولا يُسمّى كافراً، بل يجب أن يوضع في منزلة بين المنزلتين. واعتزل واصل ناحية بعيدة عن المسجد يشرح رأيه لأتباعه، فكان أن سُمّوا معتزلة[1]. وكانت المعتزلة لا تأخذ بالعقيدة، التي تقول إنّ القرآن أزليّ، لأنّ هذا يتعارض مع وحدانيّة الله. كانوا يتساءلون: كيف يتسنّى لنا أن نؤمن بأنّ الله هو الكائن الوحيد الأزليّ، خالق الاشياء، ثمّ نضع إلى جانبه كلمة غير مخلوقة؟ وكانوا يفاخرون بأنّهم «أهل التوحيد والعدل[2]».

بالرغم من أنّ المعتزلة قد نشأت في البصرة، فإنها كانت متأثّرة بشكل واضح، بالقدريّة التي نشأت في دمشق. حتّى أنّ بعض البحّاثين وقعوا بالخلط بين القدريّة والمعتزلة، فقالوا «إنّ هؤلاء المعتزلة سمّوا بالقدريّة[3]».

وقد تكوّنت عقيدة المعتزلة من خمسة أصول:

١ ـ التوحيد: إذ قالوا إنّ الله ليس كالأشياء والأجسام، وإنّه ليس بجزء ولا عنصر ولا جوهر، بل هو الخالق لهذه الأشياء جميعاً، وإنّه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار.

٢ ـ العدل: ومعناه أنّ الله لا يُحبّ الفساد ولا يخلق أفعال العباد، بل إنّهم يفعلون ما أُمروا به ونُهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم، لأنّه لم يأمر إلاّ بما أراد، ولم يَنهِ إلاّ عمّا كره. وإنّه وليّ كلّ حسنة أمر بها، بريء من كلّ سيّئة نهى عنها. وإنّ الله لو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم عن معصيته، غير أنّه لم يفعل وهو قادر. وعلى ذلك فإنّ من الظلم أن يعاقب الإنسان على عمل ساقه إليه القدر الإلهيّ.

---

١ ـ سليمان مظهر، ص ٥٠٠ ـ ٥٠١

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٢٥؛ راجع: البغدادي، أصول الدين (استنبول، ١٩٢٨) ج ١، ص ٣٣٥؛ النوبختي، فرق الشيعة، نشر ريتر (استنبول، ١٩٣١) ص ٥

٣ ـ راجع: سليمان مظهر، ص ٥٠١

٣ ـ الوعيد: وهو أنّ الله لا يغفر لمن ارتكب الكبائر إلاّ بالتوبة. وأنّه لصادقٌ في وعده ووعيده لا مبدّل لكلماته.

٤ ـ المنزلة بين المنزلتين: وهو أنّ الفاسق مرتكب الكبائر ليس بمؤمن ولا بكافر، بل يسمّى فاسقاً...

٥ ـ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو أنّ ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم في ذلك بالسيف فما دونه، ولا فرق بين جهاد الكافر والفاسق. ويقول المعتزلة أيضاً بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح. كما يقولون إنّ الإمامة اختيار من الأمّة، لأنّ الله لم ينصّ على رجل بعينه، وإنّ اختيار الإمام مفوّض إلى الأمّة[1].

لم تقتصر خطورة المعتزلة على أنّها مجرّد انشقاق عن السنّة، ولكنّها تعدّت ذلك إلى تحوّلها دين الدّولة، في عهد الخليفة المأمون، الذي اتخذ سنة ٨٢٧ إجراء على غاية من الخطورة والثوريّة. ذلك في أنّه اعتنق مذهب المعتزلة. وفي رسالة خطيرة بعث بها إلى عمّال الولايات أعلن رأيه في أنّ القرآن مخلوق، وجعل الأخذ بهذا الرأي محكّاً لمعرفة سلامة العقيدة من فسادها. ثمّ ألحق هذا بأمر أصدره يقول فيه إنّ كلّ قاض لا يأخذ بهذا الرأي لا يمكن أن يحتفظ بمنصبه ولا يمكن أن يعيّن في القضاء. وقد جاء في الرسالة: «فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك. فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عمّا يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه. وأعلمهم أنّ أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق في ما قلّده الله واستحفظه من أمور رعيّته بمن لا يوثق بدينه وخصوص توحيده وبتعيينه[2]».

ولكي يضع أوامره هذه موضع التنفيذ، أنشأ محكمة تفتيش كانت الأولى من

---

١ ـ سليمان مظهر، ص ٥٠٠ ـ ٥٠١

٢ ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك (طبعة ليدن) م ٣ ص ١١٥ ـ ١١٦

نوعها في الإسلام. «ومن مهازل القدر أنّ حركته هذه التي كانت تهدف إلى تحرير الفكر، أصبحت أداة مميتة للقضاء على حرّيّة الفكر[1]».

واستمرّت المحنة، كما كانوا يسمّونها، في عهد خلافة أخيه المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢). غير أنّ المتوكّل، ابن المعتصم وخليفته، انقلب عليها ووضع نهاية لها سنة ٨٤٨. وكان في رأس قائمة الضحايا الذين لاقوا حتفهم في المحنة، إمام بغداد أحمد بن حنبل، صاحب المذهب السنّيّ الحنبليّ. فقد وقف حنبل، الذي اشتهر بمحافظته الشديدة وبتزمّته في عقيدته، بوجه بدعة المعتزلة. فشدّه المأمون بالحديد وألقى به في السجن مدّة سنتين. واستمرّ اضطهاده في زمن المعتصم. وكان يُجلد، غير أنّه أبى أن يعود عن رأيه. وكان يرفض أن يرى حرفاً واحداً يسقط من مذهب السلف الصالح. وعندما توفّي سنة ٨٥٥ مشى في جنازته ٨٦٠ ألف نسمة يبكونه ويترحّمون عليه، فكان موكب جنازته شاهداً على تعلّق الناس بهذا الزعيم الدينيّ الذي كان يمثّل العقيدة السليمة، عقيدة السلف. وعدد الذين يزورون قبره في بغداد تبرّكاً يفوق عدد الذين مشوا في جنازته أضعافاً وأضعافاً، مما يدلُّ على مكانته في نفوس الناس إلى يومنا هذا. ويشكّل الوهّابيون القسم الأكبر من أتباع مذهبه[2].

المرجئة

لقد فتحت حركة القدريّة، ومن بعدها المعتزلة، باب النَّيل من صلابة موقف أهل السنّة، بعدما كانت الحركات السابقة، من سبئيّة وخوارج وشيعة، قد فرّقت المعتقد في نهاية خلافة الراشدين.

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٢٦

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٢٦ ـ ١٢٧

في هذا الطور من مسار الإسلام، بعد القدريّة والمعتزلة، جاءت حركة المرجئة كخطوة جديدة في اتّجاه النَّيل من صلابة السنّة. وكان الركن الأوّل في تعليم المرجئة، إرجاء الحكم على أصحاب الكبائر، وعدم التسليم بإخراجهم من حظيرة الإيمان[1]. ذلك لأنّهم اعتقدوا أنّ الأعمال ليست شرطاً في صحّة الإيمان. وإنّما نشأ هذا الموقف من أجل تبرير موقف الخلفاء الأمويّين الذين اتُّهموا بالتهاون في تطبيق الشريعة المقدَّسة. فقد ذهب أرباب هذا الرأي إلى أنّ الأمويّين مسلمون ولو اسميّاً. ولمّا كانوا، بحكم الواقع، قادة الإسلام السياسيّ، فقد وجبت لهم الطاعة على جميع المسلمين. وقالوا إن عليّاً ومعاوية كليهما من عبيد الله، فالحكم بشأنهما لله وحده. «وفي هذا الجوّ السمح الذي خيّم على هذه الحركة الفكريّة، نشأ الإمام الكبير أبو حنيفة (ت ٧٦٧) مؤسّس المذهب الأوّل من المذاهب الفقهيّة الأربعة في الإسلام[2]».

إنّ قيام عقيدة تقول بإرجاء الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث، وبعدم إدانة أيّ مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها، وبأنّه لا تعزّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة... وبأنّه لا يكن تكفير إنسان، أيّاً كان، ومهما ارتكب من المعاصي، ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق الشهادتين، وبترك أمر حسابه أو عقابه إلى الله وحده، كان من الطبيعيّ أن يدفع أصحاب هذه العقيدة إلى ترك الفروض التي أوجبها الدين من صلاة وزكاة وصوم، وأن يضعوا واجبات الإنسان نحو ما يحيط به من الناس فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن[3].

***

١ - راجع البغدادي، مختصر الفرق بين الفرق، نشر فيليب حتّي. (القاهرة ١٩٢٤) ص ٦٥ - ٩٤

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ج ٢ ص ١١٨

٣ - سليمان مظهر، ص ٥٠٠

لم يكن ظهور هذه الفرق في الإسلام ذا تأثير كبير في صميم الدين الاسلاميّ، لأنّ الأكثريّة الساحقة من المسلمين بقيت تدين بالسنّة، وكان باقي الفرق، مجتمعاً، لا يشكّل سوى أقلّيّة ضئيلة، أثّرت بعض الشيء في استقرار المجتمع الإسلاميّ وفي زخم انتشاره، ولكنّها، لم تستطع أن تؤثّر في المنحى الدينيّ الأساسيّ، وإن كان سيظهر فيما بعد، عدد آخر من الفرق التي سيبتعد بعضها كثيراً عن دين محمّد.

الفصل الخامس

من عهود الخلافة إلى نظام الدول

- في عهد الخلافة الأمويّة
- في عهد الخلافة العبّاسيَّة
- السلاجقة
- الأتابكة
- الأيُّوبيُّون
- المماليك
- العثمانيُّون

بمعارضة الحجاز والعراق تسنّم أوّل الخلفاء الأمويّين معاوية بن أبي سفيان سدّة الخلافة، وانتقل مركز الخلافة، مع موت عليّ بن أبي طالب، إلى دمشق. وإذا كانت دولة الخلفاء الأمويّين كسابقتها المباشرة، دولة الخلفاء الراشدين، من حيث هي دولة عربيّة إسلاميّة، إلاّ أن تبدّل مركز الخلافة، إضافة إلى نوعيّة الخلفاء أنفسهم، قد حوّل الدولة من تيوقراطيّة إسلاميّة وإقليميّة في عهد الراشدين، إلى دولة عربيّة، أكثر منها دينيّة إسلاميّة، حيث كان لسورية الآراميّة المسيحيّة تأثير كبير في شخصيّة الدولة واتّجاهاتها الفكريّة، إضافة إلى أنّ واجهة الدولة قد أصبحت: البحر المتوسط، الواصل بينها وبين أوروبّة المسيحيّة.

فلقد أضحت دولة الخلفاء الأمويّين مملكة عربيّة، وأصبح الخليفة الأمويّ منشغلاً بالأمور السياسيّة أكثر ممّا هو مهتمّ بالتوجيه الدينيّ. وبينما كان القصد من الفتح في بداية الإسلام، أسلمة الناس، أصبحت في بداية العهد الأمويّ، حماية الخليفة، والجزية، الثمن لخضوع الرعايا[١].

وبينما حصلت دمشق بسرعة في عهد الأمويّين على طابع مقدّس، بعد أن كانت التقاليد تحفظ الشهرة والأهمّيّة لأمكنةٍ أمّها الأنبياء، فتزايدت حركة الحج إلى العاصمة الجديدة، ممّا رفع بها إلى الأَوج فغدت، بخلال قرن من الزمن، المركز الدينيّ لعاصمة الخلافة والقلب لواحدة من الدول الكبيرة التي عرفها العالم[٢]، فقد بقيت سورية الآراميّة مسيحيّة بأكثريّة سكانّها حتّى زوال الخلافة الأمويّة؛ وكان الأمويّون متساهلين دينيّاً، لا بل إنّهم ما «كانوا يرغبون في أن يعتنق الإسلام غير العرب الأصليّين، أي عرب الجزيرة والمتحدّرين منهم. وفي سنة ٧٢٢م. كان يقدّر عدد السكّان في سورية بأربعة ملايين، وعدد المسلمين بمائتي ألف. وكانت

---

١ - راجع: GAUDEFROY - DEMOMBYNES, Le monde musulman et bysantin, P. 179 - 197 ; وراجع: جواد بولس، التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الادنى منذ الاسلام، ص ١٠٦ - ١٠٧

٢ - ELISSEEF, Dimask, "Encycl. de l'Islam", Nouvelle édition, II, P. 288

اللغة المستعملة هي السريانيّة[1] ». وقد بقي الأساقفة في المناطق المسيحيّة، هم الذين يصرّفون أمور أتباعهم المدنيّة. وطوال حكم الأمويّين، قلّما حصل التمييز الرسميّ بين المسلمين وغير المسلمين، على عكس ما سوف يحصل في العهد العبّاسيّ، لاحقاً.

على أنّ الدولة الأمويّة قد لاقت من المتاعب الداخليّة بسبب الخصومات والاقتتال بين الأجنحة العربيّة، ما لم تلاقه من السكّان الأصليّين. وكانت أهمّ تلك الخصومات الصراع بين عرب الشمال الذين شكّلوا الحزب القيسيّ، وعرب الجنوب الذين عُرفوا بالكلبيّين، وشكّلوا الحزب اليمنيّ. ولم يستطع الإسلام أن يزيل تلك العداوة التي ستشَكّل أحد أبرز الأسباب في دمار الدولة الأمويّة في العام ٧٥٠م.

أمّا على صعيد الفتح، فقد استأنف معاوية، أوّل الخلفاء الأمويّين، حركة التوسّع التي انتهجها أسلافه، شرقاً وغرباً. فأخضع خراسان بين ٦٦٣ و ٦٧١، واجتاح بخارى في أقاصي تركستان، سنة ٦٧٤، وفتح مرو وبلخ وهراة؛ وغرباً، أنشأ في إفريقية مدينة القيروان سنة ٦٧٠، وجعلها قاعدة حربيّة في وجه البربر، وباعتناق هؤلاء الإسلام، وانضوائهم تحت لواء الجيش العربيّ، أصبحوا من أبرز المستخدَمين في الحملات التي تابعت الزحف شمالي إفريقية، وعملت فيما بعد على فتح إسبانية[2]. وكان معاوية قاتَل البيزنطيّين، وحاول مرّتين إخضاع القسطنطينيّة نفسها، ولكنّها لم تسقط، وبقيت في أيدي البيزنطيّين حتّى أيّام الأتراك. وعجز العرب عن تثبيت أقدامهم في آسية الصغرى، أو عن عبور مضيق الدردنيل، لذلك وجّهوا جهودهم إلى التوسّع شرقاً وغرباً، حيث كانت المقاومة على أقلّها. وهكذا استأنف الإسلام في أواخر أيّام معاوية مسيره إلى الأمام[3]. وممّا

---

١ - بولس، التحولات، ص ١٠٨؛ وقابل: J.P.Callot, Syrie, "Encycl. UNIVERSALIS" VOL. 15, P. 672.

٢ - بولس، التحولات: ص ١١٠

٣ - الدكتور فيليب حتّي، العرب، تاريخ موجز، ص ٨٢، ٨٥، ٨٦

يجدر ذكره، أنّ معاوية، بنى أوّل اسطول بحريّ في الإسلام، قبل تولّيه الخلافة، وبه دخل الإسلام الحروب البحريّة حوالى سنة ٦٤٩.

يجب ألاّ تُعتبر الحروب التي جرت بين معاوية، ومَن تلاه من الأمويّين، من جهة، والشيعة من جهة أخرى، على أنّها حروب بين السنّة والشيعة. إنّما هي كانت بين الخلفاء الأمويّين بفرعَيهم: المروانيّ والسفيانيّ من جهة، والشيعة من جهة أخرى. ولم تكن بداية العهد الأمويّ، مرضيّاً عنها من قبَل الإسلام المحافظ، الذي أنكر على معاوية تحويل الخلافة، وهي التي جعلها التقليد بعد الدين، حكماً دينيّاً، إلى نوع من الحكم المدنيّ، فاعتُبر معاوية أوّل ملك في الإسلام[1]. وكان العرب يكرهون هذا اللقب، إنّما يطلقونه، على سلاطين الأعاجم. وقد أخذوا على معاوية أيضاً أنّه أحدث الكثير من البدع المنكرة، منها «المقصورة» التي أنشئت للمحافظة على حياة الخليفة، بعد المحاولة الفاشلة التي استهدفت معاوية وهو يؤدّي فريضة الصلاة. والمقصورة كناية عن خلوة داخل المسجد للخليفة دون سواه. ومن المآخذ أيضاً، أنّ الخليفة بات يلقي خطبة الجمعة وهو جالس، ولم يقبلوا عذر معاوية في ذلك، وهو أنّه أصبح في سنيه الأخيرة بديناً جدّاً كبير البطن. وكان لاتّخاذه سرير الملك ردّة فعل مشمئزّة من المحافظين[2].

وبينما لم يعيّن الرسول عند مماته خليفة له، وكذلك الخليفة الثالث عمر بن الخطّاب، الذي أوصى بمجلس شورى، يتوافق على خليفة بخلال ثلاثة أيّام، وقد اكتفى الخليفة الثاني أبو بكر بتسمية عمر، خليفة، فإنّ أوّل الخلفاء الأمويّين، معاوية، قد سجّل سابقة خطيرة في الإسلام، مثبّتاً بذلك أنّه قد حوّل نظام الخلافة إلى نظام مُلك. كان ذلك بتعيينه ابنه يزيد خلفاً له، قبل وفاته بحوالى ستّة أشهر.

---

١ - راجع: ابن خلدون، المقدّمة، (القاهرة) ص ١٦٩ وما يليها.

٢ - راجع: اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٦٥؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر (ليدن ١٨٧٩) ج ٢ ص ٧٠؛ المبرد، الكامل، نشر Wippéan Wright (لندن ١٨٦٤) ص ٥٥٢؛ الدينوري، الاخبار الطوال، نشر (ليدن ١٨٨٨) ص ٢٢٩

أي أنّ معاوية قد عيّن، لأوّل مرّة في تاريخ الخلافة، وليّاً للعهد، وراح يستقدم الوفود من الأمصار ويأخذ منهم البيعة له، ومَن لم يكن موالياً من تلك الوفود، أخذه بالتملّق أو بالإكراه أو بالرشوة[1]، وكلّ ذلك مخالف للسنّة... وللإسلام.

***

ما أن تولّى يزيدُ، الشابّ المستهتر، من بعد أبيه معاوية، الحاكم الحازم، في العام ٦٨٠، حتّى تشجّعت الأحزاب المعارضة لحكم الأمويّين من شيعة عليّ على الانتفاض والتمرّد. فعمد الحسين، ثاني أبناء عليّ وفاطمة بعد الحسن، مدفوعاً بنداءات العراقيّين المتكرّرة، إلى إعلان نفسه الخليفة الشرعيّ بعد أخيه الأكبر الحسن ووالده عليّ[2]. فكانت واقعة كربلاء، على بعد ٢٥ ميلاً عن الكوفة شمالاً بغرب، حيث دارت الدائرة على الحسين وأتباعه، فقُتل حفيد الرسول، وتمزّقت جماعته، وأُرسل رأس الحسين إلى يزيد في دمشق، فأعاده إلى أخت الحسين وابنه اللذَين أخذاه ودفناه في كربلاء[3]... حيث وُلد المذهب الشيعيّ؛ وكان دم الحسين، على ما تبيّن فيما بعد، أفعل في إذكاء هذا المذهب حتّى من دم عليّ نفسه. وصار الاعتقاد بإمامة عليّ، وخلافة ذريّته من بعده، في المذهب الشيعيّ، نظير الاعتقاد بنبوّة محمّد عند أهل السنّة. وغدا يوم كربلاء، وثأر الحسين صيحة الاستنفار عند الشيعة، الذين صار هدفهم الأوّل، تقويض الحكم الأمويّ.

لم يُنهِ القضاء على الحسين النزاع على الخلافة بين المسلمين، ذلك أنّه كان نزاعاً مثلّث الأركان، سياسيّاً وقبَليّاً، وإن كان مثنّاها عقائديّاً. فإنّ عبد الله بن الزُّبَير، برز الآن مُطالباً بالخلافة، وهو ابن الزبير بن العوّام، ابن عمّة النبيّ، الذي

---

١ ـ راجع: ابن عساكر، التاريخ الكبير (دمشق) ج ٤ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، (القاهرة ١٣٠٢) ج ٥ ص ٣٠٦ وما بعدها.

٢ ـ راجع: الدينوري، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ الفخري (ابن طقطقي)، نشر ديرنبرغ (باريس ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥) ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤

٣ ـ راجع: الجزء الخامس من هذه الموسوعة، ص ٦٣ وما بعدها.

كان صحابيّاً من العشرة المبشّرة، وقد قاتل في جميع غزوات النبيّ. فالتفّت الحجاز حول عبد الله، ونادت به أمير المؤمنين. عندها خفّ يزيد إلى إرسال حملة تأديبيّة لإخضاع الثائرين في عاصمة الخلافة الأصيلة: المدينة، وكانت الحملة تضمّ عدداً كبيراً من نصارى الشام... ونشب القتال في آب (أغسطس) ٦٨٣، ويذكر بعض المؤرِّخين أنّ جنود يزيد قد استباحوا المدينة وانتهكوا حرمتها، فلجأ ابن الزُّبير إلى مكّة، على اعتبار أنّها ذات حرمة، وأنّ أرضها مقدَّسة. وهذا لم يمنع جنود يزيد من اللحاق به، ولم ينجُ الحرم المقدس من الإصابة بالمنجنيق، واتّصلت النار بالكعبة فأحرقتها برمّتها، وكذلك الحجر الأسود، أقدس الآثار الإسلاميّة. فقد «تصدّع ثلاثة[1] وبدا بيت الله مجرّداً من كسوته... كأنّه الثكلى قد شقّت الجيب[2]».

وفي ٢٧ تشرين الثاني (نوڤمبر) ٦٨٣ توقّف القتال الذي كان قد نشب في ٢٤ أيلول (سپتمبر)، إذ توفّي في دمشق يزيد، بعد أن «قتل الحسين بن عليّ وأهل بيت الرسول في سنته الأولى، واستباح حرم رسول الله وانتهك حرمته في السنة الثانية، وسفك دماء في حرم الله وأحرق الكعبة في السنة الثالثة من ولايته[3]»، ولم تكن ولايته سوى ثلاث سنوات. علماً بأنّ يزيد بن معاوية، لم يحجّ إلى مكّة، بل أقام الحجّ في سنوات ولايته عمرو بن سعيد بن العاص، والوليد ابن عتبة.

***

ما أن مات يزيد، حتّى انسحب جيش الأمويّين فجأة من الحجاز، حيث نودي على الأثر، بابن الزُّبَير خليفة. وشملت المناداة جنوبيّ الجزيرة والعراق، فسارع ابن الزبير إلى تعيين الضحّاك بن قيس الفهريّ، زعيم الحزب القيسيّ، والياً على الشام، وهو من عرب الشمال الذين طالما قاوموا الأمويّين.

---

١ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٣؛ الدينوري، ص ٢٧٤ - ٢٧٥؛ الطبري، ج ١ ص ٢٢٢٠.
٢ - الطبري: ج ٢ ص ٤٢٧
٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٣

في هذه الأثناء، كان قد تسنّم سدّة الخلافة الأمويّة بعد يزيد، ولده معاوية (الثاني) الذي فاجأ الناس بموقف نبيل، غير متوقّع، عندما خطب بهم قائلاً: « ... إنّا بُلينا بكم وبُليتُم بنا، فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا، ألا وانّ جدّي معاوية... نازع الأمر مَن كان أولى به منه في القرابة برسول الله، وأحقّ في الإسلام، سابق المسلمين، وأوّل المؤمنين، وابن عمّ رسول ربّ العالمين... فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون، ... ثمّ قلّده أبي وكان غير خليق للخير!، فركب هواه، واستحسن خطأه، وعظم رجاؤه، فأخلفه الأمل، وقصر عنه الأجل، فقلّت منعته، وانقطعت مدّته، وصار في حفرته رهناً بذنبه، وأسيراً بجرمه». ثم بكى وقال: «إنّ أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول، وأباح الحرمة، وحرّق الكعبة، وما أنا المتقلّد أموركم، ولا المتحمّل تبعاتكم، فشأنكم أمركم، فوالله لئن كانت الدنيا مغنماً لقد نلنا منها حظّاً، وإن تكن شرّاً فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها». فقال له مروان بن الحكَم: «سنّها فينا عمريّة[1]!» ـ قال: «ما كنت أتقلّدكم حيّاً وميتاً! ومتى صار يزيد بن معاوية مثل عمر؟ ومن لي برجل مثل رجال عمر[2]؟».

كان كلام معاوية بن يزيد هذا، وهو على فراش الموت، بعد تسنّمه سدّة الولاية بأقلّ من شهرين. وقد تنوزع في سبب وفاته، «فمنهم من رأى أنّه سُقي شربة، ومنهم من رأى أنّه طُعن، ومنهم من رأى أنّه مات حتف أنفه[3]».

وفي أثناء دفن معاوية الثاني في دمشق، وهو ابن الثانية والعشرين، صلّى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، «ليكون له الأمر من بعده؛ فلمّا كبّر الثانية، طُعن فسقط ميتاً قبل ان يُتمّ الصلاة؛... فقدم عثمان بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فقالوا: ـ نبايعك ـ. قال: ـ على أن لا أحارب ولا أباشر قتالاً ـ؛ فأبوا ذلك

---

١ ـ المقصود، أن يسمّي لهم نفراً كأهل شورى ليعيّنوا خليفة من بعده.

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٤؛ قابل: المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٧١

٣ ـ المسعودي: مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٧١

عليه، فسار إلى مكّة ودخل في جملة ابن الزُّبير. ولم يتقدّم إذ ذاك أحد من السلالة السفيانيّة الأمويّة» فانتقلت الخلافة، أو انتقل المُلك، إلى أوّل المروانيّين من بني أميّة: مروان بن الحكَم، الذي رشّح نفسه للخلافة، «فاجتمع الناس بالجابية من أرض دمشق، فتناظروا في ابن الزُّبير وفي ما تقدّم لبني أميّة عندهم، وتناظروا في خالد بن يزيد بن معاوية، وفي عمرو بن سعيد بن العاص بعده، وكان روح بن زنباع الجذاميّ يميل مع مروان، فقام خطيباً، فقال: ـ يا أهل الشأم! هذا مروان بن الحكم شيخ قريش، والطالب بدم عثمان. والمقاتل لعليّ بن أبي طالب يوم الجمل وصفّين، فبايِعوا الكبير، واستنيبوا للصغير، ثم لعمرو بن سعيد ـ. ... فبايَعوا لمروان بن الحكم، ثمّ لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد[1] ».

وإذ كان ابن الزبير، الذي بويع خليفة في الحجاز، قد عيّن الضحّاك، زعيم القيسيّة، على الشام، تحرّك اليمنيّون، فتداعوا إلى نصرة «الخليفة المسنّ الشرعي مروان بن الحكَم، وأنزلوا بالضحّاك وجماعته هزيمة نكراء. كان ذلك في شهر تموز (يوليو) سنة ٦٨٤ في مرج راهط، وهو سهل إلى الشمال الشرقيّ من دمشق... وكانت معركة مرج راهط «صفّين» أخرى في مصلحة الأمويّين، وهي آخر معركة وقعت في الفتنة الأهليّة الثالثة في الإسلام[2] ».

لم تكن هزيمة الضحّاك في الشام، لتقضي على ابن الزبَير، الذي كانت خلافته لا تزال ناشطة في الحجاز. فسارع الخليفة الأمويّ الجديد، عبد الملك بن مروان، الذي كان قد تولّى بعد أبيه (٦٨٤ ـ ٦٨٥) إلى تسيير حملة بقيادة الحَجّاج بن يوسف، على رأس جيش من عشرين ألف مقاتل. وقد ضرب حصاراً حول مكّة استمرّ ستّة أشهر ونصف، بدؤه في ٢٥ آذار (مارس) ٦٩٢. «ولم يكن الحجّاج أكثر تحرّجاً في رمي المدينة المقدَّسة بالمنجنيق من زميله السابق... لكنّ ابن الزبَير

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٦
٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٥٨

واصل النضال مدفوعاً بتحريض من أسماء: ابنة أبي بكر، وأخت عائشة؛ إنّما كان قتالاً يائساً، انتهى بذبحه، وإرسال رأسه إلى الشام. أمّا جثمانه فقد صُلب مقلوباً، ثم دُفع إلى أمّه. وهذه أولى حوادث الصلب في المدوّنات الإسلامية[1]».

كان ابن الزُّبير آخر علَم من أعلام الإسلام الأوّلين، وبوفاته تمّ الأخذ بثأر عثمان، وتحطَّمت قوّة الأَنصار إلى الأبد. وبه سلّم الإسلام بوضعه الجديد. وتهيّأ للاعتبار السياسيّ أن يسود الاعتبار الدينيّ في سلطان الدولة سيادة تامّة. ومنذ ذلك الحين، غدا مقام مكّة والمدينة في التاريخ مقاماً ثانويّاً، وأصبح تاريخ الجزيرة أحفل بتأثير العالم الخارجيّ فيها منه بتأثيرها في العالم الخارجيّ، ذلك أنّ «الجزيرة الأمّ، كانت قد استنفدت نفسها[2]». وقد بسط الحجّاج بن يوسف سلطة الدولة المروانيّة الأمويّة على الحجاز واليمن واليمامة، بينما بقي العراق في حالة غليان، إذ أصبحت أرضه موئلاً للزبيريّة والشيعة والخوارج. وكان هؤلاء الأخيرون الأشدّ تمرّداً، فجعلوا الشرق في غليان دائم، وقد انتشروا من العراق إلى فارس، واجتاحوا الأهواز وكرمان، واحتلّوا الريّ، وحاصروا أصفهان، وأعملوا النهب والسلب، بعد أن انقسموا إلى عدّة فرق دينيّة متطرّفة. والتقت حركتهم في فارس بحركة الموالي الناشئة المعارضة للعرب الأسياد. وهم أولئك «الفرس الذين اعتنقوا الإسلام على اعتبار أنّه قد ساوى بين جميع الذين انضمّوا إليه، لكنّهم سرعان ما أصيبوا بخيبة، وشعروا أنّهم كانوا مخدوعين».

على أنّ إناطة أمر العراق وفارس من قبَل الخليفة الأمويّ بالحجّاج بن يوسف، سنة ٦٩٤، والتي لم تكن أقلّ خطورة من أمر الحجاز، قد وضعت حدّاً لكلّ خروج على الأمويّين. فقد تمكّن الحجّاج من فرض هيبة الدولة بالقوّة، وقد بلغ

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٥٩؛ قابل: الطبري، ج ٢ ص ٨٤٥ - ٨٤٨؛ الدينوري، ص ٣٢١

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٥٩

ما زهقه من أرواح، بحسب مؤرّخي الحقبة، حوالى ١٢٠ ألفاً. وعندما توفّي في العام ٧١٤ (٩٥ هـ) وُجد في سجونه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة[١]. وإذ كانت فارس داخلة في ولايته، استطاع قائده «المهلّب» أن يقضي على أشدّ فرق الخوارج خطراً وتطرّفاً، وهم الأزارقة، أتباع نافع بن الأزرق، الذي تطرّف بتعليمه إلى حدّ اعتبار كلّ من ليس «خارجيّاً» هو ملحد، حتى ولو كان مسلماً. وقد أحلّ الحجّاج دم الأزرق ودم زوجته وأولاده[٢]. وقد وصل قواد الحجّاج، إلى ما وراء فارس: إلى وادي الأندلس. وكان الحجّاج شديد الاعتماد في عاصمته: «واسط» التي بناها في بغداد، على حامية من الجيش الشاميّ، كانت شديدة الولاء له، وكان بها شديد الوثوق[٣].

***

بلغت الأمبراطوريّة الإسلاميّة أوسع حدودها في عهد خلافة الوليد (٧٠٥ ـ ٧١٥) وأخيه هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣) فكانت تفوق باتّساعها مساحة الأمبراطوريّة الرومانيّة في أوسع حدودها. ففي هذا العهد تمّ للعرب نهائيّاً إخضاع ما وراء النهر[٤]، وإعادة فتح شماليّ إفريقية وفرض الاستقرار فيها، والاستيلاء من ثمّ على شبه جزيرة أيبيرية. وقد امتدّت الأمبراطوريّة الإسلاميّة إذ ذاك من شواطئ المحيط الأطلسيّ وقمم البيرينيه، حتى الأندلس وحدود الصين. وهذا ما لم تبلغه الأمبراطوريّة الإسلاميّة قبلاً، وما لن يكون لها من بعد.

---

١ ـ انظر: المسعودي، التنبيه والاشراف، نشر دي غويه (ليدن ١٨٩٣) ص ٣١٤؛ الطبري، ج ٢ ص ١١٢٣

٢ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، نشر كورتن (لندن ١٨٤٦) ص ٨٩ ـ ٩٠؛ الطبري، ج ٢ ص ١٠٠٣ وما يليها.

٣ ـ راجع حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٦٣؛ تفاصيل حملة الحجّاج على العراق في المجلّد الخامس من هذه الموسوعة، ص ١٣٣ وما يليها.

٤ ـ نهر سيحون، وهو جاكسارتس، وحديثاً سردرايا. وهو الحد الطبيعي والسياسي والجنسي الفاصل بين الايرانيين والترك. وكان عبوره أول تحدّ مباشر من العرب للشعوب المنغولية، ومن الاسلام للديانة البوذية.

وكانت الأقسام الإداريّة في الخلافة الأمويّة تعتمد النظام البيزنطيّ في المناطق الغربيّة، والنظام الفارسيّ في المناطق الشرقيّة. وكان أهمّ تلك المناطق، تسع:

١ ـ بلاد الشام ومحيطها وتضمُّ سورية وفلسطين ولبنان والأردن؛ ٢ ـ الكوفة وسائر العراق؛ ٣ ـ البصرة مضمومة إليها فارس وسجستان وخراسان والبحرين وعُمان، وربّما نجد واليمامة أيضاً؛ ٤ ـ أرمينية؛ ٥ ـ الحجاز؛ ٦ ـ كرمان، ملحقة بمنطقة الحدود الهنديّة؛ ٧ ـ مصر؛ ٨ ـ إفريقية؛ ٩ ـ اليمن وسائر القسم الجنوبيّ من الجزيرة.

وقد وُزّعت هذه المناطق التسع على خمس ولايات هي:

ولاية العراق، وقد اشتملت على الجانب الأعظم من فارس وشرقيّ الجزيرة العربيّة، وقاعدتها مدينة الكوفة؛ وولاية الحجاز وقد ضمّت اليمن والإقليم الأوسط من الجزيرة العربيّة؛ وولاية الجزيرة (القسم الشماليّ من أرض ما بين النهرين)، وقد أُلحقت بها أرمينية وآذربيجان وأقسام من شرقيّ آسية الصغرى وولاية مصر، مع منطقتي الصعيد والدلتا؛ وأخيراً إفريقية، مشتملة على شماليّ إفريقية وغربيّ مصر، ثمّ الاندلس وجزر المتوسّط، وقاعدتها مدينة القيروان[1]. وكان لكلٍّ من هذه الولايات الخمس، نوع من الحكومة الإقليميّة، تُدير شؤون الولاية السياسيّة والدينيّة والماليّة. وكان الوالي يعيّن العمّال على المناطق، ويتحمّل مسؤوليّة أعمالهم تجاه الخليفة، كما أنّه كان يضطلع بأعباء الشؤون السياسيّة والإداريّة والعسكريّة. على أنّ المشرف على جباية الموارد كان أحياناً موظّفاً خاصّاً يدعى صاحب الخراج، وكانت صلته بالخليفة رأساً. أمّا مورد الدولة الرئيسيّ فكان الجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة. وكانت النفقات الإقليميّة تسدّد من الموارد المحلّيّة، ولا يرسَل إلى خزانة الخليفة إلاّ الوفر الباقي على صورة رصيد. وكان

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٨٦.

القضاة يعيَّنون من قبل الولاة، الذين كانوا يختارونهم مبدئيّاً، من بين العلماء الذين تفقّهوا بالقرآن والحديث. وكان القضاة يتولّون القضاء في أمور الرعايا المسلمين جبراً، وغير المسلمين اختياراً، إذ كان بوسع غير المسلمين ان يتقاضوا عند رؤسائهم الدينيّين إذا كانت الدعاوى على غير علاقة بمسلم. وكان في ما أنشأ معاوية ديوان الخاتم، وهو مكتب حكوميّ مهمّته استخراج نسخة عن كلّ وثيقة رسميّة، قبل ختمها وإرسالها في سبيلها[1]، وتُجمع هذه النسخ في ملفّات خاصّة. أمّا الجيش الأمويّ فبقي منظّماً على غرار الجيش البيزنطيّ: خمس فرق هي: القلب والميمنة والميسرة والطليعة والساقة، حتّى جاء مروان الثاني، آخر الخلفاء الأمويّين (٧٤٤ ـ ٧٥٠) وأبطل هذا التنظيم، وآثر عليه نظام الكراديس (واحدتها كردوسة[2])، وهي وحدات صغيرة مُتراصّة سريعة الحركة. وكانت قوى الجيش الرئيسيّة المقيمة في دمشق، تتألفَ من أهل الشام ومن العرب الذين نزحوا إلى الشام وتوطّنوها. وقد احتفظ السفيانيّون الأمويّون بجيش عدده ستّون ألفاً، بلغت نفقاته السنويّة ستّين مليون درهم، لكنّ يزيد الثالث الذي حكم في العام ٧٤٤ قد أجرى بعض التخفيضات، لذلك عُرف بالناقص، وفي عهد خلفه إبراهيم، الذي حكم في العام نفسه، وكان آخر الأمويّين، كان عدد أفراد الجيش لا يزيد عن الإثني عشر ألفاً[3]. كذلك كان أكثر ملاّحي الأسطول العربيّ من السوريّين، أمّا نظام هذا الأسطول، فقد كان منقولاً عن النظام البيزنطي[4].

وكانت حياة الخلفاء الأمويّين في دمشق حياة بذخ وترف بالقياس إلى حياة الخلفاء الراشدين. وحده عمر من الخلفاء الأمويين (٧١٧ ـ ٧٢٠) كان متعبّداً،

---

١ ـ الطبري، ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦؛ الفخري، ص ١٤٩

٢ ـ الطبري، ج ٢ ص ١٩٤٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، نشر ترنبرغ، (ليدن ١٨٧١) ج ٥، ص ٢٧٦؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج ٣ ص ١٦٥ وص ١٩٥.

٣ ـ تاريخ ابو الفداء، ج ١ ص ٢٢٢؛ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٨٩

٤ ـ راجع: البلاذري، فتوح البلدان، نشر M.J. de Goege (ليدن ١٨٦٦) ترجمة د. فيليب حتّي (نيويورك ١٩١٥) ص ١١٧؛ و Guy le strange, palestine under the Moslems (Boston, 1890) P. 342

وكان هدفه الأسمى أن يتأثّر خطى جدّه لأمّه، ثاني الخلفاء الراشدين، الذي حمل اسمه. فإنّ الخليفة عمر بن عبد العزيز الأمويّ، المعروف بعمر الثاني، وهو الخليفة الأمويّ الثامن، كان يرتدي الثياب المرقّعة، ويختلط برعاياه اختلاطاً كان يعسر معه على من قصده لرفع ظلامته إليه، أن يميّزه من بينهم[١]. أمّا بالنسبة لسائر الخلفاء الأمويّين، فإنّ صلات الناس بهم أخذت تخضع لضرب من البروتوكول. وبدأ يشيع استعمال الأثواب الرسميّة المطرّزة من قبل الخلفاء، وصارت كلّ مقتنيات البلاط تزخر بالمرصّعات والزخارف، وعَرفت لياليهم السمر ومجالس الأُنس، حتّى أنّ بعضهم كان يتعاطى الخمور، وأخصّ هؤلاء يزيد بن معاوية الذي عُرف بـ «يزيد الخَمور[٢]». كذلك كان الوليد يعاقر الخمرة يوماً بعد يوم، بينما هشام كان يكتفي بالشرب مرّة واحدة في الأسبوع، أمّا عبد الملك، فكان يشرب الخمر علناً مرّة واحدة في الشهر، لكنّه كان يُكثر منها حتّى يضطر إلى تناول المقيّئات[٣]. إلاّ أنّ أكثر هؤلاء تعلّقاً بالخمر والمجون، كان الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) الذي كان يسبح في بركة من الخمر ويشرب منها حتى يهبط سطحها[٤]. وقيل أنّه فتح القرآن يوماً فوقعت عينه على الآية: «وخاب كلّ جبّار عنيد[٥]» فغضب عضباً شديداً، ورمى الكتاب الكريم بنباله حتّى مزّقه[٦].

كذلك فإنّ سيّدات البلاط الأمويّ كُنَّ يتمتّعن نسبيّاً بقسط وافر من الحرّيّة. وقد غدا نظام الحريم، وما رافقه من استخدام الخصيان، عرفاً سالكاً في عهد الوليد الثاني[٧].

---

١ ـ انظر ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز (القاهرة ١٣٣١) ص ١٧٣ ـ ١٧٤، ١٩٥ وما يليها

٢ ـ راجع: العقد الفريد، ج ٣ ص ٤٠٣؛ أنساب الأشراف، نشر Goiten (القدس ١٩٣٦) ج ٤ ب، ص ٣٠؛ النويري، نهاية الارب في فنون العرب، (القاهرة ١٩٢٥) ج ٤ ص ٩١

٣ ـ انظر: العقد، ج ٣ ص ٤٠٤

٤ ـ النواحي، حلبة الكميت (القاهرة ١٢٩٩) ص ٩٨

٥ ـ سورة ابراهيم، ١٨

٦ ـ الاغاني، ج ٦ ص ١٢٥

٧ ـ راجع: الأغاني، ج ٤ ص ٧٨ ـ ٧٩، و ج ٦ ص ٣٢ و ٣٦ وما يلي، و ج ١١ ص ٤٩.

إنّ عمر بن عبد العزيز، لم يشذّ عن سائر الخلفاء الأمويّين في موضوع التقوى والورع فحسب، إذ كان ذلك المُحاول أن يسير على خطى الخلفاء الراشدين، بينما سار أكثر باقي الأمويّين على الدرب النقيض، بل تميَّز عنهم أيضاً في موضوع معاملة أهل الذمّة. ففي وقت كان الأمويّون من أكثر الخلفاء تساهلاً مع المسيحيّين، جاء عمر ليضع القيود الشديدة على الرعايا المسيحيّين، بسنّه قوانين حظّر بموجبها على النصارى تقلّد الوظائف في مناصب الدولة، وحرّم عليهم لبس العمائم، وألزمهم بجزّ نواصيهم، وبأن يرتدوا ملابس خاصّة، ويشدّوا أوساطهم بأحزمة من جلد، ويركبوا مطاياهم دون أن تُسرج؛ ثمّ منعهم من بناء الكنائس، ومن رفع أصواتهم في الصلاة. وقصّر عقوبة المسلم إن هو قتل نصرانيّاً، على الديّة، وقضى برفض شهادة النصرانيّ على المسلم... وقد سرى بعض هذه القيود على اليهود، ومنها تحريم تقلّد المناصب في الدولة. إلاّ أنّ بعض هذه القيود لم يطبَّق بعد عمر[1].

***

وصف المؤرِّخون الخلفاء الأربعة الأخيرين في عهد الخلافة الأمويّة بأنّهم كانوا عاجزين. هؤلاء الأربعة هم: الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) ثم يزيد الثالث (٧٤٤) فإبراهيم (٧٤٤) وأخيراً مروان الثاني (٧٤٤ ـ ٧٥٠) وهو آخر الخلفاء الأمويّين.

فقد كان الوليد الثاني أكثر اهتماماً بالشعر والموسيقى منه بشؤون الحكم[2] وقد بلغ الخطأ بهذا الخليفة أنّه أوصى بالخلافة من بعده لولدين له من إحدى جواريه. فكان يزيد الثالث أوّل خليفة أمّه أمة[3]، وقد تميّز عهده بكثرة الاضطرابات في الأمصار. وقد اضطر أخوه إبراهيم الذي وُلّي الخلافة من بعده مدّة شهرين فقط،

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ص ١٠٠ ـ ١٠١

٢ ـ الاغاني، ج ٤ ص ١٠١ وما يليها

٣ ـ راجع: الطبري، ج ٢ ص ١٨٧٤.

إلى أن يتنازل عنها لنسيب بعيد، هو مثلهما: ابن لجارية مملوكة، وهو مروان الثاني[1] (٧٤٤ ـ ٧٥٠).

وعندما تسنّم هذا الأخير سدّة الخلافة، كانت الفوضى قائمة في جميع أنحاء الدولة، إذ كان نشب صراع شديد بين مبدأ انتقال الخلافة بالوراثة الذي ابتدعه معاوية، والعرف القبليّ الراسخ الذي يجعل الولاية للأكبر سنّاً... ثمّ إنّ الوليد الثاني كان قد استبعد عرب الجنوب: جماعة الحزب اليمنيّ الذين كانوا الركيزة الأساسيّة في صراع الأمويّين ضدّ الشيعة. وهكذا جاءت أيّام مروان الثاني لتشهد ظهور مُطالبٍ بالخلافة من آل أميّة في الشام. أضف إلى ذلك ظهور مُطالب آخر من الخوارج قام بحركة تمرّد في العراق. وأقدم بعض زعماء خراسان على الانتفاض ضدّ الخليفة. وإذ كان عرب الجنوب قد ثاروا، إضطر مروان إلى نقل حكومته إلى حرّان[2]، حيث يستطيع الاعتماد على مساندة القيسيّة، خاصّة في مواجهة الأعنف والأخطر: العلويّين (الشيعة) والعبّاسيّين.

في الخلافة العباسية

مع إطلالة العام ٧٥٠، كانت كلّ العوامل قد تضافرت لانهيار الحكم الأمويّ. وما كان يلزم من أجل الانقضاض على الخلافة التي أنشأها معاوية قبل حوالى تسعين سنة، سوى قيادة مقبولة من جميع الأطراف، وأهل لملء ذلك المركز الخطير.

وكان من بين المطالبين بالخلافة لأنفسهم، إضافة إلى بعض الأمويّين من خصوم مروان الثاني، ومن جملة الثائرين على خلافة الأمويّين، إضافة إلى الشيعة،

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٥٠

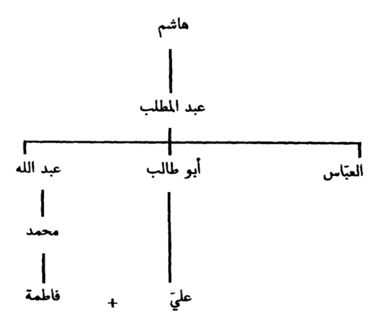
٢ ـ حرّان Carrhae: مدينة قديمة في بلاد ما بين النهرين (تركية) قاعدة بلاد مضر.

والعراقيّين، وجماعة من أتقياء أهل السنّة، كان هنالك العبّاسيّون. ذلك أنّهم ينتمون أصلاً إلى سلالة عمّ الرسول، وبذلك يكونون «الأحقّ بالخلافة[1]».

وكان، في هذه الحقبة، حفيدُ حفيدٍ للعبّاس، عمِّ الرسول، اسمه: عبد الله أبو العبَّاس. وعَرف عبد الله هذا كيف يستقطب تأييد أكثر القوى المناهضة للأمويّين، بما فيها تلك القوى الكبرى من المسلمين غير العرب، وبخاصّة الفرس منهم، بسبب ما لاقوه من معاملة على يد الأمويّين، أقلّ ما يقال فيها إنّها كانت بعيدة عن المساواة، ممّا كان قد جعل أهل خراسان يسيرون وراء الحركة الشيعيّة بإقبال. وبذلك بات الفرس وأهل خراسان مستعدّين لأيّة انتفاضة من شأنها أن تبدّل في الوضع القائم.

بثّ أبو العبّاس الدعاية لنفسه في مختلف الأقطار، بعد أن اختار قاعدة لعمله قرية «الحميمة» الواقعة إلى الجنوب من البحر الميت، والتي كانت ممّراً لقوافل المسافرين والحجّاج الوافدة من جميع أقطار العالم الإسلاميّ. فجعلها أبو العبّاس مركزاً يدرَّب فيه المرشّحون لأعمال الدعاية على مبادئ الجماعة وأساليبهم،

١ ـ شكل شجري، يوضّح صلة النسب بين العباسيين والرسول



ثم يوجَّهون من هناك في مهامّ سرّيّة إلى الأمصار[1]. وكـان من بين هؤلاء، أبو مسلم الخراساني، «المولّى ذو الأصل المبهم[2]»، الذي جعله العبّاسيّون عاملاً لهم في خراسان. وهناك، في شهر حزيران (يونيو) سنة ٧٤٧، لبس أبو مسلم السواد حِداداً على رجل من ذريّة عليّ، قُتل على يد أهل السلطة، ومـا لبث أن رفع أبو مسلم العلم الأسود، الذي سرعان ما غدا شعاراً للعبّاسيّين. وإذ التهب الحماس في صفوف الناقمين من أهل خراسان، سار أبو مسلم على رأس جيش مؤلّف من الآزد: عرب اليمن، والفلاّحين الفرس، ودخل مرو عاصمة خراسان دخول المنتصرين، حيث أسقط والي الأمويّين فيها نصر بن سيّار، ومن ثمّ سقطت نهاوند، ومدن فارسيّة أخرى، في وقت كانت قد قامت حركة العصيان من قبل اليمنيّة في فلسطين وامتدّت إلى حمص. كما أنّ الخوارج، كانوا قد ثاروا في العراق من جديد[3]. ومن مدن فارس، انتقلت الثورة إلى العراق، حيث سقطت الكوفة بسهولة، وهناك بويع بالخلافة في مسجدها الكبير[4] في ٣٠ تشرين الاوّل (أوكتوبر) ٧٤٩ لأبي العبّاس.

بالرغم من أنّ الخليفة الأمويّ الرابع عشر، حاول أن يقاوم بكلّ طاقته، إذ سار على رأس اثني عشر ألف مقاتل من حرّان شرقاً حتّى بلغ الزاب الأعلى في كانون الثاني (يناير) ٧٥٠، فالتقى على الضفّة اليسرى لذلك الفرع من دجلة بقوى الثورة يقودها عبد الله بن عليّ، أحد أعمام الخليفة الجديد وأحد المتحدّرين من عمّ الرسول، فقد انهار جيش الخليفة الأمويّ الأخير: مروان، بعد قتال تسعة أيّام. وأخذت المدن الشاميّة، من ثمّ، تفتح أبوابها، واحدة بعد الأخرى لعبد الله وجيوشه الخراسانيّة والعراقيّة. وحدها مدينة دمشق حاولت أن تقاوم، ولكنّها

---

١ ـ راجع: الفخري، ص ١٩٢ ـ ١٩٣؛ الطبري، ج ٣ ص ٣٤؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

٢ ـ الفخري، ص ١٨٦

٣ ـ راجع الطبري، ج ٢ ص ١٩٤٢ ـ ١٩٤٩

٤ ـ راجع: الطبري، ج ٣ ص ٢٧ ـ ٣٣؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤١٧ ـ ٤١٨

سقطت بعد أيّام قليلة من الحصار في ٢٦ نيسان (إپريل) ٧٥٠. وإذ فرّ مروان، تعقّبته فصيلة حتى أدركته في مصر، وقتلته «خارج كنيسة في بوصير في ٥ آب (أغسطس) ٧٥٠، وأُرسل رأسه مع شارات الخلافة إلى أبي العبّاس[١]».

وإذ أجمع الرأي على وجوب إبادة الأمويّين نهائيّاً من الوجود، كُلّف عبد الله ابن عليّ بتلك المهمّة، وقد استخدم أعنف الأساليب في ذلك، ولم يُعف حتّى عن الأموات من الأمويّين، فنُبشت القبور وصُلبت الجثث، وطُرحت الأشلاء، وجُلدت الهياكل العظميّة. ومعروف أنّه «في ٢٥ حزيران (يونيو) سنة ٧٥٠ أدب عبد الله مأدبة لثمانين من أمراء الأمويّين في أبي فطرس على نهر العوجا بالقرب من يافة، وما أن بدأ الاحتفال حتّى انقضَّ الجلاّدون على المدعوّين، وأخذوا يحصدون رؤوسهم، ثمّ تحوّل القائد وأعوانه إلى الموائد ليستأنفوا الاستمتاع بالطعام الشهيّ[٢]. ولم ينجُ من بني أميّة سوى رجل واحد، هو عبد الرحمن بن معاوية، حفيد الخليفة هشام، الذي كان له من العمر تسعة عشر عاماً، وقد تمكّن من الفرار في ما يشبه حكايات الأساطير، حتّى حطّ رحاله في الأندلس عام ٧٥٥. وفي السنة التالية أقام نفسه سيّداً على شبه الجزيرة من دون منازع، وحكم تلك البلاد التي كان افتتحها أسلافه[٣].

وبهذا، انتهت الخلافة الأمويّة، وبدأ عهد الخلافة العبّاسيّة. وبحسب تعبير الجاحظ، إنتهت «دولة بني مروان (الأمويّين) التي كانت عربيّة أعرابيّة... وبدأت دولة بني العبّاس، الأعجميّة الخرسانيّة».

***

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٥٣ ـ ١٥٤

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢، ص ١٥٥؛ راجع: ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠؛ المبرَد ص ٧٠٧؛ الأغاني، ج ٤ ص ١٦١ وص ٩٢ ـ ٩٦؛ الفخري: ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤

٣ ـ لمعرفة التفاصيل الواسعة حول عبد الرحمن، راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٨٥ إلى ١٠٥

بزوال الخلافة الأمويّة وحلول الخلافة العبّاسيّة، حصلت تحوّلات كبيرة في دولة الإسلام. ليس أهمّها انقضاء سيادة الشام على دنيا الإسلام، بسبب اختيار العبّاسيّين أرض العراق مركزاً لهم، إذا ما قيس ذلك بزوال السلطة التي كانت، قبل زوال الدولة الأمويّة سنة ٧٥٠، لأهل الجزيرة العربيّة؛ غير أنّه بعد ذلك التاريخ، أصبح «تاريخ العرب مقتصراً في المكان على الجزيرة العربيّة. أمّا البلدان التي كانت خاضعة لعرب الجزيرة والمتحدّرين منهم، في دولة عربيّة كبرى، قبل ٧٥٠، فقد بدأت بالتجزّؤ والاستقلال، في بداية عهد الخلفاء العبّاسيّين، لتصبح فيما بعد خاضعة لشعوبٍ وحكّام وأسياد وجيوش إسلاميّة غير عربيّة وغير متعرّبة، من فرس وإيرانيّين وأتراك وتركمان وأكراد وشركس وبربر وغيرهم من المسلمين الأعاجم، الغرباء عن العنصر العربيّ وعن العنصر المتعرّب. ثم إنّ الجزيرة العربيّة ذاتها، منذ العام ٧٥٠، لم تعد مركز الثقل في الإسلام، رغم احتوائها على المدن الإسلاميّة المقدّسة[1]».

لم يتأخّر الخليفة العبّاسيّ الأوّل، أبو العبّاس، عن إعلان السياسة الحازمة التي سيتّبعها، إذ وصف نفسه في الخطبة التي افتتح بها عهده في الكوفة، بالسفّاح[2]. وراح السفّاح ينفّذ ما أعلنه، وفي الوقت ذاته، يطلق الدعاية للخلافة العبّاسيّة. فبعد أن أحاط نفسه برجال الدين وعلماء الشريعة، مضيفاً على الدولة الجديدة جوّاً حافلاً بالمؤثّرات الدينيّة، مقابل نزوع الدولة الراحلة إلى أبّهة الملك، وأخذ يتّشح في الاحتفالات الرسميّة ببردة الرسول، صار المغالون من دعاة العبّاسيّين ينادون بأنّ الخلافة يجب أن تبقى في البيت العبّاسيّ إلى أن يتسلّمها منهم آخر الأمر عيسى ابن مريم[3].

---

١ - راجع: جواد بولس، التحولات الكبيرة، ص ١٤٣ وما يليها.

٢ - راجع: ابن مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، نشر دي غويه ويونغ، (ليدن ١٨٧١) ج ٢ ص ٥٢٦؛ الطبري، ج ٣، ص ١٣٢٠؛ الاغاني، ج ١٦، ص ٨٨؛ ياقوت، معجم البلدان، طبعة وستنفلد (ليبزك ١٨٦٧) ج ٤ ص ١٠٠٠؛ راجع أيضاً: المجلد الخامس من هذه الموسوعة، ص ١٧٢ وما بعدها.

٣ - ابن الاثير، ج ٥ ص ٣١٨؛ الطبري، ج ٣ ص ٢٣

أمام هذا الواقع، فإنّ الشيعة الذين كانوا اعتبروا أنّهم انتقموا لأنفسهم من الأمويّين، والذين كانوا يظنّون أوّلاً أنّ العبّاسيّين إنّما يقاتلون من أجلهم، زال الوهم الآن عن أذهانهم، واتّضح لهم أنّ ما عناه أبو العبّاس وجماعته بـ «أهل البيت» إنّما هم آل العبّاس، وليس بيت فاطمة وعليّ. وهكذا استمرّ الشيعة في اعتبار أئمّتهم وحدهم أصحاب الحقّ الشرعيّ في تسلّم مقدّرات الإسلام. وأصبح العبّاسيّون، بعد الأمويّين، في نظرهم، مغتصبي السلطة. وقد أفتى مالك بن أنس المشهور بأمر الشيعة بأنْ حلّهم من عهد الولاء للعبّاسيّين. وعندما أقدم اثنان من أحفاد الحسن بن عليّ: محمّد وإبراهيم، على تزعُّم حركة ثوريّة ضدّ العبّاسيّين، بادر هؤلاء إلى سحقها بقساوة، فصلبوا محمّداً الملقّب بالنفس الزكيّة، في كانون الأوّل (ديسمبر) ٧٦٢، وقطعوا رأس إبراهيم بعد شهرين قرب الكوفة وأرسلوا به إلى الخليفة العبّاسيّ[١]. وكان العبّاسيّون قد احتووا الفرس، حتّى اتّسمت خلافتهم بالسمة الفارسيّة، وطغت المراسم الفارسيّة على مظاهرها، وسيطرت الأفكار الفارسيّة على شؤون السياسة، وغلبت نسبة النساء الفارسيّات في دور الحريم، حتّى إنّ العديد من الخلفاء العبّاسيّين كانوا من أمّهات فارسيّات. وهكذا لم يكن العرب إلاّ عنصراً واحداً من العناصر العديدة التي تألّفت منها الدولة. ثمّ إنّ العبّاسيّين حلّوا مشكلة الفرس بأن أنشأوا منصباً جديداً في الدولة، كان الفرس أوّل من شغله، هو منصب الوزارة، الذي يأتي مباشرة بعد منصب الخلافة. «وأقبل الخراسانيّون من ثمّ على الانخراط في فرقة الحرس المنوطة بالخلافة، وهكذا تضاءل مجد الأرستقراطيّة العربيّة وانهار صرح العروبة، لكن الإسلام استمّر في سيره المظفّر بزيّ جديد، هو النزعة الإيرانيّة[٢]».

---

١ ـ الدينوري، الاخبار الطوال، نشر Vladimir Guirgass (ليدن ١٨٨٨) ص ٣٨١؛ الطبري، ج ٣ ص ٢٤٥ ـ ٢٦٥ و ٣١٥ ـ ٣١٦

٢ ـ حتّى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ج ٢ ص ١٥٨ ـ ١٥٩؛ وراجع G. Demombynes, le monde musulman et byzantin, P. 269, 271, 272.

من جهة أخرى، فإنّ الدولة العبّاسيّة، وهي الخلافة الثالثة بعد خلافة الراشدين وخلافة الأمويّين، وقد أسّسها السفّاح (٧٥٠ ـ ٧٥٤) وأخوه المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) كانت أطول الخلافات الإسلاميّة عهداً وأوسعها شهرة، فقد كان الخلفاء الخمسة والثلاثون الذي تعاقبوا على الخلافة من بعد الخليفة الثاني جميعاً من سلالته العصبيّة. نقول بأنّ هذه الدولة، بخلاف الدولة العربيّة الأمويّة التي كان فيها الزمنّي طاغياً على الروحيّ، كانت ذات سلطة إسلاميّة إيرانيّة آسيويّة، تشدّد على سلطة الخليفة الروحيّة. وقد انتصرت بذلك على يد العبّاسيّين، الفكرة الإيرانيّة الداعية للاتّحاد التامّ بين الدين والدولة[1].

وإذ كانت الكوفة العراقيّة، تعَدّ معقلاً شيعيّاً في ذلك الوقت، وعربيّة أكثر منها عراقيّة أو إيرانيّة، وقد كان سكّانها كثيري الحركة، والحماسة، وغير مخلصين للعهد العبّاسيّ الجديد، فقد نقل الخليفة المنصور سنة ٧٦٢ مركز الخلافة إلى قرية مسيحيّة صغيرة تقع على نهر دجلة، ذات اسم فارسيّ: بغداد، وترجمتها «عطيّة الله[2]». وقد حُوّلت هذه إلى مدينة، ودُعيت رسميّاً بدار السلام، وأُقيم حولها سور خارجيّ من جدارين، وسور داخليّ بلغ ارتفاعه تسعين قدماً، وجُعل بين السورَين خندق عميق. وبعد انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد، أصبحت البصرة مرفأ العاصمة على الخليج العربيّ ـ الفارسيّ. وأصبح الخليج وشاطئه العربيّ منطقة تجارة بحريّة كثيرة الازدهار.

إلاّ أنّ التسمية الرسميّة: «دار السلام» لبغداد، لم تطغَ على الاسم الفارسيّ القديم... فبقي مركز الخلافة العبّاسيّة معروفاً باسم بغداد. «وإذ كانت بغداد مسرحاً للمغامرات الأسطوريّة الرائعة التي خلّدتها شهرزاد في ألف ليلة وليلة، وقاعدة لعهدين من أزهى العهود، هما عهد هارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩) وعهد

---

١ ـ بولس، التحولات، ص ١٤٦

٢ ـ اليعقوبي، كتاب البلدان، نشر دي غويه (ليون ١٨٩٢) ص ٢٣٥ ؛ البلاذري، ص ٢٩٤

المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) فقد برزت في الأسطورة وفي التاريخ رمزاً منقطع النظير لمجد الإسلام. ولقد نسج عهد هذين الخليفتين حول السلالة برمّتها هالة من المجد لم يقدّر لها إلى الآن أن تتلاشى، وامتدّ أوجها ما بين عهد المهديّ (٧٧٥ ـ ٧٨٥) الخليفة الثالث، وعهد الواثق (٨٤٢ ـ ٨٤٧) الخليفة التاسع، ثمّ أخذت بعد الواثق بالانحدار حتّى خلافة المستعصم (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨) وهو السابع والثلاثون من خلفاء هذه السلالة. وفي عهده اجتاحها المغول ودكّوا معالمها.

لقد استمرّت ذريّة السفاح والمنصور في الحكم أكثر من خمسة قرون، إلاّ أنّهم لم يكونوا دائماً الحاكمين الفعليّين[1]، ذلك أنّ العصر العبّاسيّ، كان عصر تجزئة الأمبراطوريّة الإسلاميّة إلى خلافات، ومذاهب.

***

لقد اختصر مؤرّخ بحّاثة محدث تعريف دولة الخلفاء العبّاسيّين (٧٥٠ ـ ٨٧٢) بأنّها دولة إسلاميّة سنّيّة إيرانيّة عاصمتها بغداد، الخليفة فيها من أصل عربيّ، واللغة الرسميّة والأدبيّة عربيّة، أمّا الطبقة الحاكمة فإيرانيّة بغالبيّتها، والقوّات العسكريّة إيرانيّة وتركيّة ومرتزقة. محور الدولة العراق، واتّجاهها نحو إيران والعالم الآسيويّ[2].

إنّ ما يهمّنا من هذا التعريف، هو أنّ هذه الدولة، كانت: سنّيّة. فلأوّل مرّة في التاريخ، تُعرّف دولة، أو خلافة، أو عهد، بأنّها سنّيّة...

فما هي الأحداث التي شهدها العصر العبّاسيّ، والتي من شأنها أن تختصّ بالمنحى السنّيّ، لا بل بالصفة السنّيّة لهذه الدولة؟

إنّ أهمّ ما من شأنه أن يطبع الخلافة العبّاسيّة بالطابع السنّي، أمران. الأوّل: أنّ هذه الخلافة قد تحوّلت بسرعة إلى المفهوم السنّيّ للدولة، حيث يكون الخليفة

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٥٩ ـ ١٦٠

٢ ـ جواد بولس، التحولات، ص ١٣٩

«ظلّ الله على الأرض، ويكون الحكم الزمنيّ للموظّفين الكبار، الذين يلتزمون طاعته، باسم الدين. والثاني: أنّ الدولة العبّاسيّة قد شهدت نشوء خلافة شيعيّة مناهضة لها، وأصبح العالم الإسلاميّ واقعاً تحت حكمين، أو موزّعاً على خلافتين تتقاسمانه في الوقت نفسه: الخلافة السنّيّة العبّاسيّة، والخلافة الشيعيّة الفاطميّة.

ومن الواضح أنّ الدولة العبّاسيّة اتّبعت في حكمها سياسة إسلاميّة أقرب للأصوليّة بكثير من تلك التي اتّبعتها سابقتها: الخلافة الأمويّة، التي لم تعرف ذلك التشدّد إلاّ في ولاية عمر بن عبد العزيز، القصيرة الأمد (٧١٧ ـ ٧٢٠) مما عرّض العبّاسيّين للعديد من القلاقل، إستعرضناها في دراستي الشيعة والدروز من هذه الموسوعة.

ومما يجدر ذكره، أنّ العهد العبّاسيّ قد شهد نقمة للنصارى في منطقة الشام، قلّما عرفتها الأمبراطوريّة العربيّة. وكان من أبرز معالم تلك النقمة، حركة العصيان التي قام بها بعض نصارى لبنان سنة ٧٥٩، إذ لجأت جماعة منهم إلى السلاح لمنع المزيد من مصادرات الأرزاق، وانقضّت من قاعدتها في المنيطرة في أعالي لبنان، قاصدة العامل العبّاسيّ في بعلبك، ناهبة عدداً من قرى المسلمين. بيدَ أنّ هذه العصابة تعرّضت لما يشبه الإبادة على يد الجند العبّاسيّ، ثم عمد العامل العبّاسيّ في دمشق إلى الانتقام من المسيحيّين، وشرّدهم في المناطق السوريّة على اختلافها[١]. إثر ذلك، رفع الإمام الأوزاعيّ الفقيه المشهور في بعلبك وبيروت، إحتجاجاً إلى الحاكم جاء فيه: «... وقد كان من إجلاء أهل الذمّة من جبل لبنان ممّن لم يكن محالفاً لمن خرج على خروجه، ممّن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم إلى قراهم، ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامّة بذنوب خاصّة، حتى يُخرَجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى أنْ لا تُزر وازرة وزر أخرى[٢]، وهو أحقّ ما وُقف عنده

---

١ ـ ابن عساكر، التاريخ الكبير (دمشق) ج ٥ ص ٣٤١

٢ ـ سورة الانعام، ١٦٤

واقتُدي به، وأحقّ الوصايا أن تُحفظ وتُرعى وصيّة رسول الله (صلعم)، فإنّه قال: ـ من ظلم معاهداً وكلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه[1] ـ ».

هذا جرى في عهد المتوكّل، أمّا جدّه، هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) فقد أعاد مفعول بعض الإجراءات التي وضعها عمر بن عبد العزيز ضدّ النصارى، وشملت اليهود، إذ أمر بهدم جميع الكنائس التي كانت قد بُنيت منذ الفتح الإسلاميّ، كما سنّ قانوناً أوجب به على جميع الذمّيين أن يلبسوا لباساً معيناً[2].

... وفي سنة ٨٥٠ و ٨٥٤، أعاد المتوكّل شرعة التمييز هذه، وأتبعها بتدابير أشدّ قسوة من أيّة تدابير فُرضت على الأقلّيات طرّاً. فقد أجبر النصارى واليهود على أن يضعوا على بيوتهم تماثيل للشيطان، وأن لا يرفعوا سطوح قبورهم عن مستوى سطح الأرض، وأن يرتدوا معطفاً عسليّ اللون، ويجعلوا على كلٍّ من الكمّين رقعتين عسليّتين، تُخاط إحداهما من الأمام والثانية من الوراء. وأن لا يركبوا إلاّ البغال والحمير، على سرج من خشب له كرتان خشبيّتان كأنّهما رمّانتان[3]، فصار الذّميّ يسمّى بسبب هذه الملابس الخاصّة بالأرقط[4]. ثمّ إنّ القضاة المعاصرين عمدوا إلى اعتبار شهادة اليهوديّ والنصرانيّ على المسلم غير مقبولة، بناء على الآية القرآنية التي تتّهم اليهود والنصارى بتحريف الكتاب المقدّس[5].

وكانت نتيجة سَنِّ هذه الفروض الرسميّة، أن شبَّت فتنة عنيفة في حمص اشترك فيها النصارى والمسلمون، إلاّ أنها أُخضعت بعد مقاومة شديدة (٨٥٥) وضُربت أعناق زعمائها، أو أنّهم جُلدوا حتى الموت، وصُلبوا على أبواب المدينة. ثمّ هُدمت جميع الكنائس إلاّ تلك التي ضُمَّت إلى المساجد، وأُبعد جميع النصارى من المدينة الهائجة، التي كان، حتّى ذلك التاريخ، أكثر سكّانها من النصارى[6].

---

١ ـ البلاذري، ص ١٦٢

٢ ـ ابن الاثير، ج ٦ ص ١٤١؛ الطبري، ج ٣ ص ٧١٢ ـ ٧١٣

٣ ـ راجع: الطبري، ج ٣ ص ١٣٨٩ ـ ١٣٩٣ و ١٤١٩

٤ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، (القاهرة ١٩٢٦) ج ١ ص ٧٩

٥ ـ راجع: سورة المائدة، ١٦ ـ ١٨؛ سورة البقرة، ٧٠

٦ ـ الطبري، ج ٣ ص ١٤٢٢ ١٤٢٤؛ ابن الأثير، ج ٧ ص ٥٩ ـ ٦٠؛ وراجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٦٩ وص ١٢٨ ـ ١٢٩

وكانت بلاد الشام حتى ذلك التاريخ قد حافظت على طابعها المسيحيّ، غير أنّه مع هذه التدابير القاسية، راح الطابع يتبدل، وراحت القبائل والجماعات تدخل في الإسلام، إذ أصبح عيشها في مثل هذه الظروف، على دينها، شبه مستحيل. وهاجر عدد من وجهاء النصارى إلى آسية الصغرى وجزيرة قبرص. وهكذا «تحقّق الوجه الثاني من الفتح الإسلاميّ، وهو فتح الإسلام من حيث هو دين وعقيدة[1]» وقد عقب هذا الفتح، في الزمن العبّاسيّ أيضاً، فتح ثالث، هو فتح اللغة العربيّة، إذ شرع الأدباء السوريّون في التأليف باللغة العربيّة تحت رعاية الخليفة، قبل أن يستعمل الفلاّحون السوريّون اللسان الجديد.

ويردّ بعض المؤرّخين أسباب التدابير القاسية التي اتّخذها آخر الخلفاء العبّاسيّين بحقّ النصارى واليهود والصابئة، إلى أنّ السلطة الزمنيّة بدأت تفلت من يدهم شيئاً فشيئاً، فراحوا يركّزون نفوذهم على السلطة الروحيّة، فأظهروا غيرتهم على الدين، وبدأ انتشار التعصب[2].

فقد كانت سلطة الدولة العبّاسيّة متينة، يفرض الخليفة فيها الطاعة، حتّى عهد هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) إلاّ أنّه منذ ذلك العهد بدأت تظهر التناقضات، وراحت التحرّكات والثورات السياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة تفكّك الدولة ووحدتها السياسيّة والدينيةّ. فقد اضطرّت النزاعات بين العرب والفرس في بغداد، الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) إلى أن يعيّن حرساً شخصيّاً مأجوراً من الأرقّاء المماليك، غالبية عناصره من الأتراك الآسيويّين. وفي عهد المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢) بات قادة هذا الحرس أسياداً للدولة. وقد هجر المعتصم عاصمته بغداد خشية القيام بثورة عليه، وانتقل مع حرسه التركيّ إلى سامرّاء، البلدة الصغيرة الواقعة على مسافة سبعين ميلاً شماليّ بغداد، والتي بقيت مركزاً للخلافة أكثر من نصف قرن. وبوفاة

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٧٠
٢ ـ بولس، التحولات، ص ١٦٥

المعتصم، إنتهى عهد كبار الخلفاء العبّاسيّين، وأخذت سلطة الخلفاء منذ العام ٨٤٢ تضعف حتّى تلاشت كلّيّاً أمام سلطة رئيس الحرس التركيّ، الذي أصبح عمليّاً، رئيس الدولة. فلقد منح الخليفة الواثق (٨٤٢ ـ ٨٤٧)، ابن المعتصم، رئيس حرسه التركيّ لقب سلطان. وعند وفاة: الواثق، أعلن الحرس خليفة بعده جعفر المتوكّل (٨٤٧ ـ ٨٦١) الذي حاول أن يفرض إرادته على الحرس ويسيطر عليه، ولا نعلم مدى نجاحه في ذلك. إنّما في عهد المتوكّل عادت نار الثورة لتتأجّج في دمشق، بعد أن ثار الرعايا في وجه الحاكم العبّاسيّ وقتلوه، فأرسل الخليفة إليهم قائداً تركيّاً، على رأس سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل، أعملوا فيهم السيف لثلاثة أيّام وانتهبوا المدينة بكاملها. بيدَ أنّ المتوكّل نفسه نقل قاعدته إلى دمشق فيما بعد، لتفادي سيطرة حرس الخلافة المتغطرسين عليه، «لكنّ مناخ دمشق الرطب ورياحها العاصفة رحّلت عنها الخليفة المتقلّب، بعد ثمانية وثلاثين يوماً من نزوحه إليها[١]».

رغم كلّ ما بذله المتوكل ليتحرّر من سيطرة الحرّاس الأتراك، فإنّه انتهى إلى أن قُتل على أيديهم، بإيعاز من ابنه وخلفه المنتصر(٨٦١) الذي بدوره قُتل على يد حرّاسه الأتراك بعد خمسة أشهر (٨٦٢) من تسنّمه العرش. ومن ٨٦٢ إلى ٨٧٠ حاول ثلاثة خلفاء عبّاسيين أن يتحرّروا من وصاية الحرس الأتراك، فكان نصيبهم القتل على أيديهم.

وفيما كانت سلطة الخلفاء على هذا الشلل، كان بعض السلالات الإقليميّة وحكّام المقاطعات يقتطع مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة، في المناطق والأقاليم الغربيّة والشرقيّة، وجلّ هؤلاء من الأتراك والفرس. ففي العام ٧٥٦ أفلتت إسبانية من السيطرة العبّاسيّة، وكذلك المغرب، وفي العام ٧٨٨ تونس، وفي ٨٢٢ استقلّت خراسان، وحذت حذوها إيران الشرقيّة سنة ٨٧٠. وفي ٨٧٢ استقلت مصر على

---

١ ـ بولس، التحولات، ص ١٦٩؛ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٦٦ ـ ١٦٧

يد حاكمها التركيّ أحمد بن طولون (٨٧٢ ـ ٨٨٤) الذي سلخ فلسطين أيضاً عن بغداد وضمّها إلى حكمه مع لبنان وسورية. وإذ استرجعت بغداد سيادتها على مصر سنة ٩٠٥، عادت مصر إلى الخروج عن طاعة العبّاسيّين مُستعيدة استقلالها على يد حاكمها التركيّ محمّد بن طنج، الملقَّب بالأخشيد. وفي ٩٦٩، حلَّ الخلفاء الفاطميّون الشيعة محل الأتراك الأخشيديّين.

من بين هذه الدويلات، كانت الدولة الطولونيّة (٨٧٢ ـ ٩٠٤) والدولة الأخشيديّة (٩٣٥ ـ ٩٦٩) دولتين سنّيّتين، إلاّ أنّ هذا الحكم السنّيّ على مصر، قد خُرق من قبل القرامطة الشيعة بين ٨٩٠ و ٩٠٤، في عهد الطولونيّين. كما أنّ نهاية الأخشيديّين كانت على يد الفاطميّين الشيعة في العام ٩٦٩، الذين أنشأوا خلافتهم في مصر، واستمرّت حتى سنة ١١٧١[١].

كذلك ظهرت في الحقبة نفسها، الإمارات الحمدانيّة الشيعيّة في الموصل وشماليّ سورية، ونازعت الأخشيديّين السنّة في حلب بين ٩٠٥ و ١٠٠٣، قبل أن تنشأ الخلافة الفاطميّة الشيعيّة في مصر عام ٩٦٩.

وهكذا فإنّ التاريخ السياسيّ للخلفاء العبّاسيّين في بغداد، منذ السنة ٨٧٢، تاريخ انفصال مصر، حتىّ زوال الخلافة العبّاسيّة سنة ١٢٥٨، قد اقتصر جغرافيّاً، على بغداد والعراق. إلاّ أنّ هذا الحكم، على بغداد والعراق، قد خُرق أيضاً من قبل الشيعة في الحقبة نفسها، وإن بشكل آخر.

فمي سنة ٩٤٥، عمد الخليفة العبّاسّي «عبد الله المستكفي بالله» (٩٤٤ ـ ٩٤٦) إلى التخلّص من الوصاية الخانقة التي فرضها عليه رئيس حرسه التركيّ الذي اتّخذ لنفسه لقب أمير الأمراء، بأن استدعى لنجدته أحمد بن بُوَيه، ابن الزعيم الإيرانيّ بُوَيه، المسلم الشيعيّ، سيّد المناطق الإيرانيّة الغربيّة منذ ٩٣٥، الذي دخل بغداد سنة ٩٤٥، فمنحه الخليفة لقب «معزّ الدولة» ورتبة «أمير

١ ـ راجع المجلد الخامس من هذه الموسوعة، ص ٦١ وما يليها.

الأمراء». أمّا هو، فقد اتّخذ لنفسه لقب «سلطان». فاستأثر بالحكم المطلق له ولورثته من بعده، وأسّس في بغداد الدولة البوَيهيَّة (٩٤٥ ـ ١٠٥٥): الإيرانيّة الإسلاميّة الشيعيّة. فغدا الخليفة العبّاسيّ السنّيّ ظلاً، والخلافة اسماً، وظلّت السيادة الإيرانيّة الشيعيّة على بغداد حتّى مجيء الأتراك السلاجقة السنّة، سنة ١٠٥٥[١].

السلاجقة

يتحدّر الأتراك أصلاً من قبائل تركمانيّة، يتكلّم أهلها التركيّة، وهم رحّل، يتنقّلون عبر الصحاري والهضاب والجبال والأحراج الشاسعة في بلاد مونغولية في آسية الوسطى. فهم والمغول، أبناء عمٍّ في الأصل. وفي القرن السادس بعد الميلاد، هاجر بعض هذه القبائل من مونغولية نحو الغرب، واستوطنوا بلاد ما وراء النهر، التي سميّت فيما بعد باسمهم: تركستان، أي: بلاد الترك.

كان من جملة هذه القبائل التي استوطنت «بلاد الترك» قبيلة «الغزّ» أو «أوغوز» وكان زعيمها قد تمكّن مع عشيرته البدويّة من اجتياح منطقة بخارى[٢]، حيث تمّ اعتناقهم للإسلام. وكان اسم زعيم هذه القبيلة: «سلجوق» وكانت هذه القبيلة، قبل ذلك التاريخ، قد نزحت إلى تركستان عن «أوزبكستان السوڤياتية» في القرن العاشر.

من بخارى، استأنف حفيد سلجوق: طغرل، هذه الفتوحات غرباً، عبر فارس، حتى دقّ أبواب بغداد سنة ١٠٥٥. ولم يكن أمام الخليفة القائم، لفرط عجزه، سوى طريق واحد يسلكه، هو أن يستبدل سيّداً بآخر: ففارق الفرس الشيعيّين، ليستقبل

---

١ ـ بولس، التحولات، ص ٢١٤ ـ ٢١٥؛ للاطلاع على حكومات الشيعة في هذه الحقبة، راجع جزءي الشيعة والدروز من هذه الموسوعة.

٢ ـ ابن الأثير، ج ٢ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢؛ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٠٤؛ قابل: بولس، التحولات، ص ٢٢٤

سلاجقة الأتراك السنّيين[1]. وبعد أن لَقَّب طغرل نفسه بالسلطان، ونقش لقبه هذا على نقوده الذهبيّة، عمد إلى استقدام جموع من الأتراك السلاجقة وسواهم إلى غربيّ آسية، فانتشروا هناك، وأخذوا بالاستعراب واعتناق الإسلام تباعاً.

خلف طغرل ابن أخيه ألب أرسلان (١٠٦٣ ـ ١٠٧٢) ثمّ ابن ألب، ملكشاه (١٠٧٢ ـ ١٠٧٩) وفي عهد هذا الأخير، بلغ سلطان السلاجقة حدود أفغانستان إلى حدود امبراطوريّة الروم في آسية الصغرى. وكان ألب أرسلان قد احتلّ حلب سنة ١٠٧٠، واستتبع حاكمها المرداسيّ[2]؛ وانتزع قائدُ جيوشه التركمانيّ: أتسيز، من يد الفاطميّين رام الله والقدس وسواهما من المدن حتّى عسقلان جنوباً، حيث صمدت بوجهه حامية عسقلان الفاطميّة[3]. وفي ١٠٧٦ احتلّ أتسيز دمشق، وانتهب المدينة ثمّ ضيّق على أهلها، مما حمل ألب أرسلان على إرسال ابنه: تَتُش، بعد سنتين على رأس حملة عسكريّة لتأديب أتسيز، فاحتلّ تتش دمشق مجدّداً، وقتل أتسيز[4].

كان السلطان السلجوقيّ: ألب أرسلان، قد أحرز نصراً حاسماً على البيزنطيّين في مانزكرت شماليّ بحيرة ڤان، وأسر الأمبراطور نفسه، وبذلك «غدت آسية الصغرى برمّتها مكشوفة أمام الأتراك، فتدفّقت قبائل السلاجقة الرحّل على أناضولية وشماليّ الشام، واندفع قادة الترك حتى هلسبونت. وهكذا، وبضربة واحدة، دُفعت الحدود التقليديّة التي طالما فصلت بين المسيحيّة والإسلام أربعمائة ميل إلى الغرب، ولأوّل مرّة، استطاع الأتراك أن يحرزوا موطئ قدم في تلك الأصقاع ما زال في يدهم حتّى اليوم[5]».

---

١ ـ ابن تغري بردي: نشر بوبر، ج ٢ قسم ٢ ص ٢٢٥؛ ابن خلّكان، وفيات الاعيان، (القاهرة ١٢٩٩) ج ١ ص ١٠٧ ـ ١٠٨

٢ ـ ابن الأثير، ج ١٠ ص ٤٧

٣ ـ ابن عساكر، ج ٢ ص ٣٣١

٤ ـ ابن خلكان، ج ١، ص ١٦٨

٥ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٠٥

وكما بعد كلّ فتح بزمن، تقسّمت السلطنة السلجوقيّة بين بعض من سلالتهم، فاستولى على آسية الصغرى ابن عمّ ألب أرسلان: سليمان، بعد أن ثبّت قدميه في إزنيق (نيقية) سنة ١٠٧٧، وفي سنة ١٠٨٤ استرجع السلاجقة مدينة إنطاكية من الروم وردّوها إلى الإسلام. وكان قلج أرسلان أحد أبناء سليمان هذا، أوّل من اصطدم بطلائع الحملات الصليبيّة عام ١٠٩٦ لدى مرورهم في آسية الصغرى في طريقهم إلى سورية. أمّا دولة سلاجقة سورية فقد أسّسها تَتش بن ألب أرسلان الذي كان دخل دمشق، كما سبق، في العام ١٠٧٨. فقد استولى تَتش على مدينة حلب في العام ١٠٩٤، وجعلها قاعدة لولايته السوريّة. وإذ سقط في إحدى المعارك عام ١٠٩٥، حكم مكانه ابنه رضوان (١٠٩٥ ـ ١١١٣) في حلب، وتولّى الحكم في دمشق دقّاق، أخو رضوان؛ على أنّ دقّاقاً، أضطر إلى الاعتراف، لأخيه بالسيادة العليا بعد خلاف نشب بينهما. وكان صهرٌ لتَتش، يتولّى إقطاع القدس، إلاّ أنّه أُجبر على التخلّي عنها للفاطميّين سنة ١٠٩٦[١].

ويبدو أنّ هؤلاء السلاجقة السنّة، قد تخلّوا عن مذهبهم مؤقّتاً، تبعاً لبعض المصالح. فإنّ رضوان بن تَتش، كان موالياً للحشّاشين من الإسماعيليّة، وكان أكثر الألبيّين (نسبة إلى ألب أرسلان) على ما يبدو: شيعيّين وإسماعيليّة[٢]. وكان أهل السنّة يمقتونهم. وقد بقي رضوان نحوا من شهر يدعو للخليفة الفاطميّ وللملّة الإسماعيليّة في صلاة الجمعة... لكنّه عاد بعده إلى الدعاء للخليفة العبّاسيّ؛ وقد تمكّن رضوان من صدّ حملات الإفرنج عن حلب، ومن الاحتفاظ بها في قبضة يده. لكنّ محاولاته لفكّ الحصار الإفرنجيّ عن إنطاكية سنة ١٠٩٨ باءت بالفشل[٣].

---

١ ـ راجع: ابن الاثير، ج ١٠ ص ١٥٧ ـ ١٦٨؛ ابن خلكان، ج ١ ص ١٦٨؛ ابن القلانسي، ص ١٣٠ ـ ١٣٢؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٤٨

٢ ـ ابن الأثير، ج ١٠ ص ٣٤٩؛ ابن خلدون، ج ٥ ص ١٥٣

٣ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ و ص ٢٢٦

خلف رضوان على حلب سنة ١١١٣ ابنه ألب أرسلان الثاني، وكان «فتى في السادسة عشرة، فاجراً ضعيف الإدراك؛ فاغتاله الوصيّ عليه. وحكم أخ له اسمه سلطان شاه ثلاث سنوات وهو تحت الوصاية، غير أنّه في العام ١١١٧ استولى على حلب قائد تركمانيّ من قادة الجيش السلجوقيّ، هو إيل غازي بن أرطق، واتّخذ مدينة ماردين قاعدة لهذا الفرع الناشئ من السلالة الأرطقيّة. وكان إيل غازي من أشدّ خصوم الصليبيّين[1]. وفي سنة ١١٢٨ استولى على حلب محارب تركيّ آخر هو عماد الدين زنكي من الموصل، وكان في أوّل أمره عبداً في خدمة ملكشاه، ثمّ صار ضابطاً صغيراً في جيش تُتش. وفي السنة التالية أُلحقت حماه وحمص وبعلبك بسلطة زنكي الذي كان البطل المقاوم للصليبيّين. فقد تمكّن سنة ١١٤٤ من انتزاع الرها من أيديهم. وقد حقّق فيما بعد البدء في سلسلة انتصارات عليهم. إستأنفها فيما بعد ابنه نور الدين، وبعده خلفه صلاح الدين... وكان من أتابكة الأتراك: طغتكين، وهو مولى سابق لتتش كلّفه بتأديب ابنه دقّاق. وكما سواه من الأوصياء، عمد طغتكين إلى اغتصاب السلطة، ثم أُقرّت سلطته على دمشق إثر وفاة سيّده القاصر وتزوّجه من أمّه. ثمّ في العام ١١١٦ عيَّن كبير سلاطين السلاجقة في بغداد طغتكين حاكماً على الشام، وأولاه حقّ فرض الضرائب وتجنيد الرجال. وقد حالف طغتكين، إيل غازي، فاشتركا في القتال ضدّ الإفرنج. وكان كلاهما من المسرفين في شراب الخمرة، وربّما بقي إيل غازي عشرين يوماً تحت تأثير الكحول في سكرة واحدة[2].

---

١ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٠٦ - ٢٠٧

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٠٧ - ٢٠٨؛ راجع: أبو شامه، الروضتين في أخبار الدولتين، (القاهرة ١٢٨٧) ج ١ ص ٢٤؛ ابن خلّكان، ج ١ ص ٣٤٤ وص ١٦٩؛ ابن خلدون، ج ٥ ص ١٥٥.

أمّا السلالة التي تحدَّرت من طغتكين، فقد عُرفت فيما بعد بالبوريّين، نسبة إلى ابنه وخلفه بوريّ.

أمّا زنكي، فقد انتقلت بطولته في محاربة الصليبيّين منه إلى ابنه نور الدين محمود، الذي فاق أباه مقدرة، فتمكّن سنة ١١٥٤ من انتزاع دمشق من أحد خلفاء طغتكين. فامتدّ سلطانه من الموصل إلى حوران، وراح يمتدُّ جنوباً. وقد لجأ نور الدين إلى السياسة، ليقوّي بها سلطانه الذي حقّقه عن طريق القتال، فبعث بأحد قوّاده البُسلاء: أسد الدين شيركوه، إلى عاصمة الخلفاء الفاطميّين الشيعة في مصر، حيث فاز شيركوه سنة ١١٦٩، بتولّي الوزارة للخليفة الفاطميّ: العاضد، (١١٦٠ ـ ١١٧٠) إلاّ أنه مات بعد شهرين، فانتقلت شارة الوزارة إلى ابن أخيه: صلاح الدين يوسف بن أيّوب[١]. وباستثناء بعض الشواذات، يمكن اعتبار حكم الأتابكة، حكماً إسلاميّاً سنّياً، وإن كان بعض سلاطينه غير ورعين.

الأيوبيّـــــــــــــون

تستمدُّ الأسرة الأيّوبيّة اسمها من نجم الدين أيّوب، والد صلاح الدين يوسف، المتحدّر من أسرة كرديّة عريقة، نزح من مسقط رأسه في منطقة أرمينية، إلى العراق. وفي ١١٣٧ عيَّنه الأتابك التركيّ عماد الدين زنكي، أتابك الموصل، قائد حامية القلعة في حصن تكريت في العراق، حيث وُلد صلاح الدين سنة ١١٣٨. وإثر استيلاء عماد الدين زنكي على بعلبك التي انتزعها من البويريّين، عُيّن أيوب حاكماً على بعلبك، وقائداً للحامية في قلعتها. ثمّ أصبح والياً على دمشق في سنة ١١٥٤ بعد استيلاء أتابك الموصل نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي وخلفه عليها، وصار أخو أيّوب: أبو الحارث أسد الدين شيركوه،

---

١ ـ أبو شامة، ج١ ص ١٦٠

قائداً للجند فيها. وفي دمشق، ترعرع صلاح الدين بن أيوب، قبل أن تنتقل إليه شارة الوزارة في الخلافة الفاطميّة الشيعيّة في مصر[1].

كان صلاح الدين، فيما يبدو، أكثر نزوعاً إلى العلوم الدينيّة منه إلى الشؤون العسكريّة. لذلك لم يرافق عمّه في حملته على مصر سنة ١١٦٤، إلاّ بعد تردّد وتمنّع[2]. ولكن يبدو أنّ تلك الروح الرانية إلى التعمّق في الدين، هي التي جعلت صلاح الدين فيما بعد، يقرر الانتقال إلى مصر.

يومذاك، كان العالم الإسلاميّ مشتّتاً مبعثراً بين خلافتين: عبّاسيّة سنّيّة، وفاطميّة شيعيّة، وعدّة سلطنات وإمارات وممالك. وكان الصليبيّون في هذا الوقت يشكّلون خطراً جدّيّاً على صعيد الإسلام. وإنّ ما حقّقه صلاح الدين فيما بعد، يجعل الباحث يستنتج أنّ صلاح الدين قد سعى من خلال انتقاله إلى مصر، «لثلاثة أهداف: إحلال التعليم السنّيّ مكان التعليم الشيعيّ في مصر؛ وتوحيد مصر وسورية تحت سلطنة واحدة؛ ثمّ مواصلة الجهاد ضدّ الإفرنج[3]».

حقّق صلاح الدين هدفه الأوّل في العام ١١٧١، عندما شارف الخليفة الفاطميّ الشيعيّ: العاضد، على الموت، إذ أصدر صلاح الدين أمره إلى الخطيب في المسجد بأن يذكر، في الخطبة، بدلاً من اسم الخليفة الفاطميّ، اسم الخليفة العبّاسيّ في بغداد: المستضيء. وقد كان يومذاك صلاح الدين، وزيراً للخليفة الفاطميّ. وهكذا كان أمر انتهاء الخلافة الفاطميّة وانتقالها إلى الخلافة العبّاسيّة، يسيراً، لدرجة وصَفها المؤرّخون المعاصرون بأنّها حصلت «ولم ينتطح فيها عنزان[4]».

وإذ حقّق صلاح الدين هدفه الأوّل، بجعل الولاء للسنّة، في مصر، ووضع

---

١ ـ بولس، التحولات، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨

٢ ـ أبو شامة، ج ١ ص ١٥٥؛ أبو الفداء، ج ٣، ص ٤٧؛ ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٢٣

٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٣٦

٤ ـ ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٤٢؛ أبو الفداء، ج ٣ ص ٥٣؛ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٣٦

نهاية للخلافة الفاطميّة الشيعيّة، راح يسعى لتحقيق هدفه الثاني: توحيد مصر وسورية تحت سلطة واحدة. أمّا تلك السلطة الواحدة، فيجب أن تكون سلطته، إذ لم يكن من مجال للثقة، آنذاك، إسلامياً سنّياً، بأيّة سلطة أخرى كانت قائمة.

في الواقع، وإنْ كان خطيب مسجد القاهرة قد ذكر اسم الخليفة العبّاسيّ، فالسلطان في مصر، أصبح لصلاح الدين. وراح يتحرّر من نفوذ سيّده نور الدين، المالك في دمشق، ويؤسّس سلالته المالكة، بعد أن وضع يده على كنوز مصر، فوزّع بعضها على قوّاده، وباع بعضها الآخر، مودِعاً أثمانها في بيت المال. وهكذا ذكّر صلاح الدين بأوائل الخلفاء الراشدين، خاصّة وأنّه لم يلمس من ذلك المال شيئاً.

عندما توفّي نور الدين، سنة ١١٧٤ في دمشق، كان قد أصبح من السهل على صلاح الدين أن ينتزع الشام من ابن نور الدين: إسماعيل، وهو بعد في الحادية عشرة من عمره، دون أن يكلّفه ذلك أكثر من مناوشات صغيرة.

وهكذا، وبظرف سنتين، حقّق صلاح الدين هدفين كبيرين، وراح يتهيّأ للثالث: مقاتلة الإفرنج.

انضمّت القيروان والحجاز فوراً إلى صلاح الدين، وغدتا جزءاً من الدولة الناشئة. ثمّ ألحق توران شاه، أخو صلاح الدين الاكبر، النوبة واليمن بهذه الدولة. وبعد سنة واحدة أو أقلّ (١١٧٥) أسند الخليفة العبّاسيّ إلى صلاح الدين، بناء على طلبه، السلطة على جميع هذه المناطق، بما فيها العراق الأعلى باستثناء الموصل، ممّا أمّن التكامل الجغرافيّ لهذه السلطنة[١]، وكان صلاح الدين قد أخضع حلب، وانتزع المناطق التي كان يسيطر عليها الحشّاشون.

بعد أن استتبّ له الأمر لهذه السلطنة المتكاملة الأطراف، راح صلاح الدّين يهيّئ قواه ضدّ الإفرنج.

---

١ ـ انظر: ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ و ٣١٩ ـ ٣٢١.

وبين معركة حطّين، قرب طبريّة، التي جرت بين جيش صلاح الدين والإفرنج سنة ١١٨٧، وهي أكبر معركة نشبت في جميع الحروب الصليبيّة، ووفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣، حقّق هذا القائد الشهم الفذّ، المسلم السنّي ذو الأصل الكرديّ، صلاح الدين، انتصارات للإسلام، ليس على الصعيد العسكريّ وحسب، بل أيضاً على الصعيد المعنويّ والدينيّ، لم يذكر التاريخ رجلاً حقّق مثيلاتها من غير الخلفاء الراشدين. ومثله مثل باقي القادة المسلمين المتديّنين غير المتعصبّين، كان صلاح الدين متساهلاً ومتسامحاً مع رعاياه المسيحيّين، فلم يدّعِ الظلم أحد منهم في عهده، رغم أنّ حروبه كانت ضدّ ... الصليبيّين.

وقد يكون لما قاله صلاح الدين، لقوّاده، رافضاً السماح لهم بدكّ قبر المسيح، أوضح بيان على تمسّكه العميق بسنّة الرسول وخلفائه الأوّلين. فهو قال: «لماذا نهدمه (القبر المقدس) خصوصاً أنّ موضوع احترام المسيحيّين هو مكان الصليب والقبر لا البنيان الخارجيّ؟! فلنقتدِ بالفاتحين المسلمين الأُول، الذين احترموا الكنائس[1]».

وإذا كان صلاح الدين الأيّوبيّ، قد برع في رسالته الإسلاميّة والإنسانيّة إلى حدّ السطوع، فإنّ السلالة الأيّوبيّة التي أنشأها، لم تكن على قدر المسؤوليّة. ذلك أنّه بين وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣، وبين هلاك آخر أمير من سلالة الأيّوبيّين: طوران شاه، على يد المماليك، لم يكن من أمراء هذه الأسرة سوى سجلٍ من الصراع فيما بينهم. وقد اتّفق السوريّون منهم على عدم الاعتراف بسلطة مصر، فنقضوا بذلك الهدف الثاني من أهداف صلاح الدين. وانتقلت المعارك إلى ما بينهم، فيما غدت معاركهم مع الصليبيّين قليلة وثانويّة[2]، وبهذا نقضوا الهدف الثالث من أهداف صلاح الدين. حتى أنّ بعض هؤلاء الأمراء كان

---

١ ـ راجع: بولس، التحولات، ص ٢٨٠

٢ ـ G. wiet: l'Egypte Arabe, P 236 - 237

يستدعي الإفرنج لمساعدته ضدَّ بعضهم الآخر. وبذلك انتهز الإفرنج الفرصة، وحصّلوا المغانم والمكاسب، فاستعادوا العديد من المناطق، ومنها القدس سنة ١٢٢٩ وسنة ١٢٤٣.

بيدَ أنّ كل هذا، لا يبدّل في تعريف عهد السلاطين والأمراء الأيّوبيّين، بأنّه كان عهداً إسلاميّاً سنّياً في مصر والمدن السوريّة. فإنّ دولة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعاصمتها القاهرة، دولة كرديّة إسلاميّة سنّيّة، صلاح الدين والطبقة الحاكمة فيها من أصل كرديّ؛ ضبّاط جيشه وقادته أكراد وأتراك؛ وقد أنهى السلطان صلاح الدين الخلافة الفاطميّة والمذهب الفاطميّ الشيعيّ، وأعاد العقيدة السنّيّة في مصر. أمّا ورثة السلطان صلاح الدين وخلفاؤه الايّوبيّون، سلاطين مصر وأمراء المدن السوريّة، فمسلمون سنّيّون، من أصل كرديّ، غير أنّهم قد أنفقوا أوقاتهم وجهودهم في الدسائس والصراعات بعضهم ضدّ بعض، وقد تحالف بعضهم أحياناً مع الصليبيّين ضدَّ البعض الآخر[1].

المماليك

في العربيّة، المملوك (جمعها مماليك) تعني: العبد. ومعنى المماليك: العبيد. والعبد هنا، لا تعني الزنجيّ، ولكنّها تعني الإنسان الذي تملّكه سيّد بشرائه، فملَكه، وأصبح مملوكه. فالمملوك، توضيحاً، هو الرقيق، والمماليك، هم الأرقّاء.

والمماليك، هم فعلاً أرقّاء أتراك وجراكسة ومغول. استعان بهم الأيّوبيّون للخدمة العسكريّة، فتمكّن بعض زعمائهم من الوصول إلى الحكم، وأسّسوا في مصر سلالَتي المماليك البحرية والبرجية، اللّتين حكمتا دولة سنّيّة، تركيّة - جركسيّة، بين ١٢٥٠ و ١٥١٧.

---

١ - بولس، التحولات، ص ٢٦٥

في العام ١٢٤٩، توفّي الأيّوبيّ: الصالح نجم الدين أيّوب، سلطان مصر. فتمكّنت زوجته: شجر الدرّ، من كتم أمر موت السلطان، مدّة ثلاثة أشهر، حتّى عاد إلى مصر ابنه طوران شاه من رحلة كان يقوم بها إلى بلاد ما بين النهرين[1].

كانت شجر الدرّ جارية من أصل تركيّ أو أرمنيّ في حريم الخليفة العبّاسيّ: المستعصم، في بغداد. وبعد أن ولدت له صبيّاً، أعتقها، قبل أن يتزوّجها الصالح نجم الدين أيّوب. وإذ تسنّم طوران شاه سدّة الحكم، أساء معاملة زوجة أبيه، ومماليكه، فتآمر هؤلاء جميعاً عليه وقتلوه. ولأوّل مرّة في تاريخ الإسلام، غدا السلطان امرأة، وأصبح اسم شجر الدر موضوع الدعاء في صلاة الجمعة في المسجد. هذا ما جعل الخليفة العبّاسيّ، الذي أعتقها، وكان لا يزال سيّد الخلافة، يبعث برسالة إلى أمراء مصر جاء فيها: «إن كان ما بقي عندكم رجل تولّونه فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً[2]». وكانت شجر الدرّ قد حكمت ثمانين يوماً.

كانت رسالة الخليفة العبّاسيّ، جارحة لرجولة مماليك الصالح نجم الدين أيّوب، الذين غدوا مماليك السيّدة بل... السلطانة شجر الدرّ. فقرّروا أن ينصّبوا كبيرهم، قائد جيش السلطانة: عزّ الدين أيبك، سلطاناً. وسرعان ما تزوّجت السلطانة السلطان الجديد، الذي راح يسحق الحزب الأيّوبيّ المطالب بالسيادة في الشام، إذ كان أعضاؤه يعتبرون أنفسهم ورثة أنسبائهم المصريّين. وإذ كانت شجر الدرّ قد عيّنت ابن زوجها الأيّوبيّ، الطفل ذا السنوات الست، ليكون مشاركاً لها في الحكم، خلع السلطان المملوكيّ الأوّل، هذا الطفل الذي كان اسمه: الأشرف. غير أنّ شجر الدرّ، علمت أنّ من كانت وراء تنصيبه سلطاناً، قد عزم على الزواج من امرأة ثانية، فأرسلت إليه مَنْ قتله في الحمّام. وإذ كانت شجر الدرّ على هذه الدرجة من العدائيّة، جاء من يقتلها: وكان قاتلها امرأة، جارية للزوجة الأولى

---

١ - راجع: تاريخ ابي الفداء (القسطنطينية ١٢٨٦) ج ٣ ص ١٩٠

٢ - حتّي. تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٦٧، ومرجعه: السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢ ص ٣٩

لزوجها السابق، إنقضّت على شجر الدرّ بالقبقاب وانهالت عليها ضرباً حتى قضت، وكانت نهايتها بأن أُلقيت جثّتها من برج في قلعة القاهرة المعروفة بقلعة الجبل[١].

كان أيبك، الذي سلطنته شجر الدرّ، بالتعاون مع سائر مماليك الأيّوبيّين، أوّل السلاطين (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧) من سلسلة مماليك سيطروا أكثر من قرنين ونصف من الزمن. وكان أوّل من استقدم هؤلاء الأرقّاء، آخر السلاطين الأيّوبيّين في مصر: الملك الصالح أيّوب (١٢٤٠ ـ ١٢٥٠) الذي كانت شجر الدرّ زوجته، متّبعاً في ذلك خطّة الخلفاء العبّاسيّين الذين أدخلوا الأرقّاء الغرباء في الجيش والحرس. فقد ابتاع السلطان الأيّوبيّ جماعة من مختلف الأجناس والعناصر البشريّة الغريبة، جاؤوا، أو جيء بهم، فتياناً من شمال البحر الأسود والقوقاز، كان معظمهم من الآسيويّين، من أتراك وجركس، مسلمين سنّيّين اعتنقوا الإسلام من سنّ مبكّرة، وجعلهم بمثابة حرسه الشخصيّ. وسرعان ما أصبح هؤلاء بعد فترة وجيزة، كما زملاؤهم عند العبّاسيّين في بغداد، أمراء الجيش وقادته. وها هم، كما زملاؤهم أيضاً، يصبحون سلاطين البلاد[٢].

خلف السلطانَ المملوكيَّ الأوّل: أيبك، سلسلةٌ من السلاطين والحكّام، جرى العرف على تقسيمهم إلى سلالتين: المماليك البحريّة (١٢٥٠ ـ ١٣٩٠) وذلك نسبة إلى النّيل، الذي يُدعى عندهم بالبحر، إذ كانت ثكناتهم تقوم على إحدى جزره الصغيرة، وكانوا في أكثرهم من الترك والمغول؛ والمماليك البرجيّة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) وكانوا في الغالب من الجراكسة[٣].

كانت السلطنة تنتقل من واحد إلى آخر بشكل غريب. فغالباً، لم تكن

---

١ ـ راجع: ابن الأثير، ج ١٠ ص ٦٠ وما بعدها.

٢ ـ بولس، التحولات، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨؛ راجع: ابن خلدون، ج ٥ ص ٣٧٣؛ ابو الفداء، ج ٣ ص ١٨٨

٣ ـ راجع: ابن خلدون، ج ٥ ص ٣٦٩

السلطنة المملوكيّة وراثيّة، بل كانت تنتقل من السلطان إلى أحد عبيده أو بعض المرتزقة من أتباعه، ممّن تميّزوا بعمل مهمّ، أو أحرزوا شهرة كبيرة. وهكذا فإنّ العبد بالأمس، كثيراً ما كان يصبح قائد جيش في الحاضر، ليغدو في المستقبل: السلطان[1].

هؤلاء المماليك، الذين كانوا عموماً، سفّاكين وبعيدين عن الثقافة، شاءت الأقدار ان يؤدّوا للإسلام خدمات جُلّى، ليس أقلّها أنّهم حرّروا بلاد الشام ومصر من بقايا الصليبيّين، وأنّهم أوقفوا الزحف المخيف الذي قامت به قبائل المغول والتتر بقيادة هولاكو وتيمورلنك. ويعتبر بعض البحّاثين في تاريخ الشرق الأدنى، أنّه لولا وقوف المماليك بوجه المغول والتتر «لجاز أن يكون سبيل الحضارة والتاريخ، في غربيّ آسية ومصر، برّمته، غيره اليوم[2]».

فما أن سيطر المماليك على السلطنة في مصر (١٢٥٠) حتّى بدأت جيوش المغول تجتاح أراضي الأمبراطوريّة الإسلاميّة، زاحفة من مجاهل آسية الوسطى. وفي ١٢٥٨ استولت هذه الجيوش على بغداد، فقتلت الخليفة العبّاسيّ المستعصم بالله، الذي به انتهت هذه الخلافة، وظلّت العاصمة العبّاسيّة: بغداد، زمناً غير قصير، متروكة للنهب والحريق، بعد أن قُتل أكثر من مائة ألف من سكّانها، وهُدمت أحياؤها، وظلّ الرحّالة يذكرون بغداد على أنّها مدينة مدمّرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وخضع العاهل الأيّوبيّ في الموصل للمغول بلا مقاومة. وفي السنة التالية، اجتاح المغول حلب، ونهبوها، واستسلمت دمشق بلا مقاومة وهجرها أميرها الأيّوبيّ نحو الجنوب، حيث اندفع الفاتحون نحو غزّة (١٢٥٩). إلاّ أنّ المماليك، في مصر، إتّخذوا المبادرة، وسارعوا إلى ملاقاة العدوّ الآسيويّ الجديد في فلسطين، حيث دحروه بعد معركتين، إلى ما وراء الفرات (١٢٦٠) فدخل المملوكيّ السلطان قطز (١٢٥٩ ـ ١٢٦٠) إلى دمشق دخول المحرّرين. ولكنّ

---

١ ـ انظر: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٨

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٦٨

القائد المملوكيّ الذي دحر المغول، لم يكن السلطان قطز، إنّما كان «بيبرس»، أحد قوّاده. وهو في الأصل رقيق تركمانيّ، نشأ في حضن الدولة الأيّوبيّة. وفي أثناء رجوعه إلى مصر، منتصراً ظافراً، قتل مولاه السلطان قطز، واغتصب الحكم لنفسه. وقد غدا: الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) أعظم سلاطين المماليك. وليعطي لحكمه شكلاً من مظاهر الشرعيّة، استقدم إلى القاهرة أحد العبّاسيّين الذين نجوا من اجتياح المغول، وأقامه خليفة. وبذلك غدا مركز الخلافة مقاماً دينيّاً سنّيّاً اسميّاً فحسب. وصارت القاهرة مركز هذا المقام، الذي بقي على حاله حتّى سقوط المماليك واحتلال مصر والشرق الأدنى من قبل الأتراك العثمانيّين سنة ١٥١٧، إذ جعل هؤلاء لقب «خليفة رسول الله لسلطانهم في القسطنطينيّة[١]».

استمرّت غزوات المغول لبلاد الشام حتّى العام ١٣٠٣. وبعد أن تمكّن هؤلاء من تحقيق عدّة انتصارات ومن تسديد ضربات قاسية للماليك، استعاد المماليك المبادرة سنة ١٣٠٣ في معركة مرج الصفّر جنوبيّ دمشق، وقضوا على آخر غزوة مغوليّة، وتمكّن المماليك من قهر أخطر وأشدّ عدوّ واجهته مصر منذ ظهور الإسلام.

كان العراق أشدّ المناطق تأثّرا بغزوات المغول. فبعد أن قضى الاجتياح الأوّل سنة ١٢٥٨ على بغداد والخلافة، راحت عاصمة العبّاسيّين تتقهقر اقتصاديّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً. وفي الوقت نفسه، انغلقت إيران في وجه اللغة العربيّة، حيث انحصر استعمالها في الحقل الدينيّ، وتحوّلت النشاطات الثقافيّة إلى الإيرانيّة. وطالت مرحلة الاضطراب وفقدان الأمن في العراق، بسبب تتابع السلالات الحاكمة الغريبة عليها، من مغوليّة إلى تيموريّة إلى تركمانيّة. وكانت قد تعرَّضت سنة ١٤٠٥ للغزو، وهذه المرّة من قبل تيمورلنك، الذي أعاد تدمير بغداد ونهبها. وبعد الكارثة التيموريّة، أصبح العراق تحت رحمة القبائل والعصابات التركمانيّة التي قلّما عرفت الرحمة.

١ ـ بولس، التحولات، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠

في ١٥٠٢، انتزع الحكم في بلاد فارس الشاه إسماعيل (١٥٠٢ ـ ١٥٢٤) مؤسّس الأسرة الفارسيّة الصفويّة، وهو من أصل تركمانيّ، فاحتلّ ديار بكر والموصل وبغداد وخراسان، وقد اتّخذت هذه الأسرة مذهبها الشيعيّ أداة للحكم[1].

في هذه الأثناء، تمكّن المماليك من القضاء نهائيّاً على الإفرنج. ففي ١٢٨٩ استولوا بقيادة السلطان قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩١) على طرابلس بعد شهر من الحصار؛ وعلى عكّة بعد حصار دام ٤٥ يوماً. وفي السنة نفسها، استسلمت سائر المدن التي كانت واقعة تحت سيطرة الإفرنج: حيفة، صور، صيدا، بيروت، طرطوس، وغيرها. وعلى يد المماليك، انتهت المغامرة الإفرنجيّة، أو الصليبيّة، في الشرق، بعد حوالى مائتي سنة من بدئها.

بيدَ أنّ قتال المماليك للمغول، وللإفرنج، قد أوقع في الأقلّيّات الدينيّة في سورية ولبنان وفلسطين نكبات كبرى، إذ حاسب المماليك كلّ من تعاون، من دروز وشيعة ونصارى، مع المغول أو مع الصليبيّين ضدّهم، حساباً صارماً[2].

***

اعتُبرت دولة المماليك «دولة إسلاميّة سنّيّة» إلاّ أنّ هذه الدولة، لم تكن أصيلة في إسلامها وفي سنّيّتها، وإن كانت قد سارت على هذا الاعتبار، ظاهريّاً. ذلك أنّ هؤلاء كان لا بدّ لهم من الظهور بمظهر المدافع عن دين شعب المناطق التي سيطروا عليها. وكان دين الدولة التي سيطروا عليها، قد تحوّل، على يد صلاح الدين، إلى الإسلام السنّيّ.

وهكذا فإنّ الفضل في اعتناق هذه الدولة، السنّيّة، في عهد المماليك، إنّما يعود إلى الأيّوبيّين، وأسلافهم النوريّين. إذ كان عمد النوريّون في بلاد الشام إلى

---

١ ـ راجع: المصدر السابق، ص ٢٩٣

٢ ـ راجع أجزاء: ١ ـ الشيعة، ٢ ـ المسيحيين، ٣ ـ الدروز، من هذه الموسوعة.

إنشاء «المساجد الجامعيّة»، وهي كناية عن مدارس وحلقات فقهيّة ومجامع شرعيّة، أنهضوها من أجل أن تثبّت الدولة مذهب أهل السنّة وتعمل على انتشاره، وكانت تعنى بالتعاليم التي أقرّتها السنَة وأيّدها الفقه الإسلاميّ، عن طريق تعلُّمها وتدريسها. وكان الأساتذة والطلاّب يتلقُّون مرتّبات من وقفيات مخصّصة لهذه المؤسّسات. وكان المدرِّسون من جماعة الفقهاء والعلماء والمحدّثين، وقد ساد عرفٌ يقضي بأن تكون الوظائف المدنيّة لخرّيجي هذه المدارس دون سواهم. وقد عمّت هذه المدارس حلب وحمص وحماة إضافة إلى دمشق، في عهد نور الدين[1]، ولا يزال في دمشق اليوم ثلاثة مبان على الأقلّ، كانت مخصّصة لهذا النوع من المدارس الجامعيّة، دُفن نور الدين في إحداها، وهي المدرسة النوريّة التي كانت إحدى أجمل المباني المدرسيّة قاطبة في ذلك العصر[2].

وقد شهدت الحقبة نفسها نهضة على صعيد بناء المساجد، خاصّة على يد نور الدين، الذي بنى عدداً من المساجد الكبرى، منها مسجد حماة الذي لا يزال يحمل اسمه، ورمَّم المساجد القديمة في عدد من المدن.

وسلك الأيّوبيّون طريق النوريّين في هذا المجال. وكان أبرز من اهتمّ ببناء المدارس منهم، صلاح الدين، الذي نقل نظام المدرسة المسجد إلى مصر، بهدف محاربة تعاليم الشيعة، إضافة إلى ما بناه من مدارس في بلاد الشام وفلسطين، والى إدخاله تكيّة الدراويش إلى جميع البلاد[3].

في هذه الحقبة، نشط التصوّف، وظهرت فيه اتّجاهات جديدة. وكانت حلب مسرحاً رئيساً لنشاط شهاب الدين السُهرورديّ (١١٥٥ ـ ١١٩١) أحد أبرز

---

١ ـ انظر: ابن خلكان، ج ٢ ص ٥٢١؛ ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٦٧

٢ ـ انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، نشر الحسني (دمشق ١٩٤٨) ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧

٣ ـ راجع: السيوطي، ج ٢ ص ١٥٦ ـ ١٥٨؛ ابن خلكان، ج ٣ ص ٥١٦ و ٥٢١؛ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة الملوك، نشر مصطفى زيادة، (القاهرة ١٩٣٤) ج ٢ ص ٢٦٣ و ٤١٥

المتصوفين، ومؤسّس مذهب التصوف الاشراقيّ، ومنشئ إحدى طرق الدراويش، وهو صاحب مؤلفات عديدة في التصوف الإشراقيّ. وقد أغضبت نشاطات السُهرورديّ الفقهاء السنّة المحافظين، فطالبوا صلاح الدين بالحاح، باعدامه. وهكذا جاء لقب السُهرورديّ: الشيخ المقتول[1].

ومن أصحاب مذاهب التصوف الكبار في هذه الحقبة، محيي الدين ابن عربيّ (١١٦٥ ـ ١٢٤٠) الذي انتقل من مسقط رأسه: الأندلس، إلى الشام، وعمل على نشر مذهبه في التصوف النورانيّ[2].

***

في عهد المماليك، لم يبقَ السلطان ثانياً لخليفة المسلمين، الذي أصبح رمزاً، يوافق على اختيار السلطان من قبل الأمراء، ويقلّده السلطة، وغالباً ما كان الخليفة يوافق بحضوره على أعمال لا تمتُّ إليه بصلة. فالسلطان هو صاحب الدولة: هو سلطان المسلمين والإسلام، بحكم أنّه المفوّض العام للخليفة. فبينما كان الخليفة يملك، كانت السلطة الفعليّة بيد السلطان[3].

لم يكن عهد المماليك من العهود المشرّفة في تاريخ الإسلام، رغم ما نجح به هؤلاء في الشؤون الحربيّة، التي مكّنتهم من تحرير مصر وبلاد الشام من المغول والتتر وبقايا الصليبيّين. ذلك أنّ المماليك، قد حكموا في جوٍّ من الفساد والدسّ والاغتيال والشغب، «فكان عدد من هؤلاء السلاطين عاجزين وخونة؛ وكان

---

١ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢؛ ابن خلكان، ج ٣ ص ٢٥٧ ـ ٢٦٠؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء في طبقات الاطباء (القاهرة ١٨٨٢) ج ٢ ص ١٧٠.

٢ - من مؤلفاته المنشورة: الفتوحات الملكية، (القاهرة ١٢٩٣) أربعة أجزاء؛ الإسراء على مقام الاسرى، (القاهرة ١٢٥٢). وراجع: ابن عرابي، ترجمان الاشواق، نشر نيكلسون (لندن ١٩١١) ص ١٩ و ٦٧؛ A.E. Affifi, the Mystical Phylosohpy of Muhyid-Din-Ibnul Arabi (Camdridge, 1930), PP. 3, 5, 47, 108, 183 - 4 و

٣ - راجع جواد بولس، لبنان والبلدان المجاورة، مؤسسة أ. بدران وشركاه (بيروت ١٩٧٣) ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥؛ بولس، التحولات. ص ٢٩٦

بعضهم فاسدين بل ساقطين؛ وكان أكثرهم غير مثقّفين. وقد ادّعى واحد منهم فقط، هو برقوق (١٣٨٢ ـ ١٣٨٩) بأنّه تحدّر من والد مسلم. أمّا برسباي (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨) فلم يكن يحسن العربيّة؛ أمّا إينال (١٤٥٣ ـ ١٤٦٠) فلم يكن يحسن توقيع اسمه على الوثائق الرسميّة إلاّ إذا رسمه فوق كتابة أمين سرّه. ولم يكن السلاطين وحدهم فاسدين، بل إنّ الأمراء أيضاً، وسائر من في الحكم، كانوا على جانب من الفساد... ولم يستطع أقدر الموظفين أن يستمرّوا في وظائفهم أكثر من ثلاث سنوات، إلاّ في ما قلّ وندر. وقد عُيّن أحد القضاة وعُزل عشر مرّات[1] ». وإنّنا نحجم عن ذكر بعض تفاصيل ما تثبّته المدوّنات عن قذارة هؤلاء السلاطين، على الصعد الخلقيّة، لياقة[2].

أمّا نهاية هذه الدولة التركيّة الجركسيّة الإسلاميّة السنّيّة، في سياستها، والتي كانت في واقع سلاطينها، بعيدة عن مفهوم السنّة والإسلام، فكانت على يد الأتراك العثمانيّين، بعد أن تلقّت ضربة قاسية من تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر.

تيمورلنك المغوليّ، الذي ادّعى بأنّه سليل جنكيزخان، انطلق بجموع قبائله كالعاصفة الهوجاء من أواسط آسية، واكتسح غربيّ آسية تاركاً في أثره الدمار والخراب. وللمرّة الرابعة أو الخامسة وجدت سورية نفسها طريحة عند أقدام المغول. «ففي تشرين (أوكتوبر) الأوّل سنة ١٤٠٠ أُبيحت مدينة حلب مدّة ثلاثة أيّام للنهب والسلب؛ ولعلّها المرّة الأولى التي أُخذت فيها قلعتها عنوة، ولكن بعد أن ضحّى الغزاة من رجالهم بما كان كافياً لأن يملأ الخندق المحيط بها بجثث القتلى، وبلغ عدد القتلى من الأهلين نحواً من عشرين ألفاً، وقد نُضّدت رؤوس القتلى في كومة بلغ ارتفاعها عشرة أذرع ومدارها عشرين ذراعاً. أمّا المدارس والمساجد

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤

٢ ـ انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر جوينبول (ليدن ١٨٥٥) م ٧ ص ٥٥٩؛ الاسحاقي، أخبار الاول في من تصرّف في مصر من الدول (القاهرة ١٢٩٦) ص ٢١٠.

التي أنشأها النوريّون والأيّوبيّون والتي فاقت كلّ تقدير، فقد عفا أثرها إلى الأبد. وبعد أن أباد الغزاة طلائع جيش السلطان فرج الأوّل(١٣٩٨ ـ ١٤٠٥) خلت أمامهم السبيل إلى دمشق، لكنّ قلعتها صمدت في وجههم مدّة شهر استسلمت المدينة بعد انقضائه؛ غير أنّ الفاتحين أخلّوا بشروط التسليم، فتعرّضت المدينة للنهب وأُضرمت فيها النيران. فقد حُصر ثلاثون ألفاً من سكّانها رجالاً ونساء وأطفالاً في جامعها الكبير، ثمّ أُضرمت فيه النار، فلم يبقَ قائماً من بنائه إلاّ الجدران. وعلى الأثر نُقل خيرة من كان في دمشق من علماء ومحترفين وفنّانين وحدّادين وصانعي الأسلحة والأدوات الزجاجيّة إلى سمرقند، عاصمة تيمور، من أجل أن يُنشئوا فيها هذه الصناعات، وسواها من الفنون الفرعيّة... وكان الفاتح الجامح قد سحق الجيش العثمانيّ عند أنقره واجتاح بروسة وأزمير وأسر بايزيد الأوّل. على أنّه كان من حسن حظّ المماليك ان لاقى تيمور حتفه سنة ١٤٠٤. ونشب على أثر ذلك نزاع بين خلفائه، انتهى إلى فتنة داخليّة، استنفدت قواهم جميعاً، فأتاح ذلك للسلطنة العثمانيّة أن تستعيد سيادتها على آسية الصغرى، وسهّل للسلالة الصفويّة بعد ذلك، أن تفرض سلطتها على فارس... ولم تلبث المنافسة بين المماليك والسلطنة العثمانيّة على السيادة في آسية الغربيّة أن بلغت ذروتها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر[١]».

العثمانيّون

تصادفنا كلمة تُرك، لأوّل مرّة، في أخبار العام ٥٠٠م. حيث سُمّي بها أقوام من بدو آسية الوسطى، تمكّنوا من إنشاء دويلات بدائيّة انتشرت في منغولية وحدود الصين الشماليّة وصولاً الى البحر الأسود. وكان أوّل اتّصال قد جرى بين المسلمين العرب، وقبائل الترك، في حوالى سنة ٦٧٤، لمّا كان العهد أمويّاً، حيث

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧

اجتاح زياد بن معاوية تركستان[1]. وعادت جيوشه إلى البصرة، بعد فتحها لمدن مرُو وبلخ وهراة، ومعها الكثير من الأسلاب التي غنمتها من قبائل الترك الجائلة في ما وراء نهر جيحون.

هذه القبائل من الرحّل، التي عُرفت بقبائل التُّرك، كانت تقيم في آسية الوسطى بين بحر آرال وجبال التائيّ. وهي تقسم إلى ثلاثة فروع: الويغور، والكرلوك، والأغوز أو الغزّ. وقد نزح بعضها شرقاً، وبعضها غرباً نحو النهر. وقد بلغ فرع من الغزّ، آسية الصغرى، فوجد أنّها قد تترّكت جزئيّاً على أيدي أنسبائهم السلاجقة[2]، الذين يعودون بالنسب أيضاً إلى فرع الغزّ من الترك. أمّا الفرع الذي جاء بعد السلجوقيّين، فقد انتسب إلى عثمان، وهو زعيم تاريخيّ تركيّ، عاش ما بين ١٢٥٩ و ١٣٢٦، فعُرف فرعه ببني عثمان، أو بالعثمانيّين[3]. ويظهر أنّ هذه القبائل كانت قد اعتنقت الإسلام. وقد أسّس عثمان هذا دولة في حوالى ١٣٠٠، بقيت حتّى سنة ١٣٦٦ شبه إمارة صغيرة، اتّخذت سنة ١٣٢٦ مدينة بروسة[4] قاعدة لها. ثمّ غدت بين سنة ١٣٦٦ وسنة ١٤٥٣ مملكة عاصمتها مدينة أدرنة. وفي ١٤٥٣ افتتح محمّد الثاني العثمانيّ القسطنطينيّة، فغدت هذه الدولة الإسلاميّة التركيّة، وريثة للأمبراطوريّة البيزنطيّة، وقد ظفرت فيما بعد بضمّ عدد من الدول العربيّة بعد أن سلختها عن الخلافة العبّاسيّة. وقد بلغت الأمبراطوريّة التركيّة العثمانيّة أوج عزّها في عهد سليمان الأوّل الملقّب بالقانونيّ (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) وهو ابن سليم الأوّل فاتح سورية ومصر. وتمّ في عهده الاستيلاء على

---

١ ـ راجع: البلاذري، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠؛ الطبري، ج ٢ ص ١٦٦ وما يليها.

٢ ـ راجع فقرة السلاجقة من هذا الفصل ص ١٩١.

٣ ـ راجع: Mehamed Fuad Koprülü, les origines de l'empire ottoman, (Paris 1935) PP. 87, seq.; Paul Wittek, the Rise of the ottoman Empire (London, 1938) PP. 7, Seq.

٤ ـ بروسّ أو بورسه Brousse: مدينة في غربي تركية. فتحها أورخان بن عثمان سنة ١٣٢٦ واتخذها العثمانيون عاصمة لهم حتى فتح أدرنة التركية الاوروبية سنة ١٦٣١، وهي بيزنطية، أصل اسمها Adrinople.

الجانب الأكبر من هنغارية، وإلقاء الحصار على مدينة ڤيينّة، واحتلال جزيرة رودس؛ وأقرّت شماليّ إفريقية، باستثناء مراكش، بالسيادة السياسيّة عليها للباب العالي في القسطنطينيّة. على أنّ إخفاقهم في محاولتهم الثانية لفتح ڤيينّة سنة ١٦٨٣ كان مؤذنا ببداية النهاية. وقد امتدّت الأمبراطوريّة في عهد سليمان الأوّل من الدانوب على نهر بوداپست إلى بغداد على نهر دجلة، ومن بلاد القرم إلى شلاّل النيل الأوّل. ولم ينشئ المسلمون في العصر الحديث دولة هذا مداها؛ وكانت إلى ذلك من أطول الدول الإسلاميّة عمراً؛ فقد توالى على عرشها من سنة ١٣٠٠ حتى ١٩٢٢، تاريخ انحلال الأمبراطوريّة، ستّة وثلاثون سلطاناً، كلّهم متحدرون عصَباً من عثمان، المؤسّس الأوّل[١].

***

نشب القتال أوّلاً بين العثمانيّين من جهة، والصفويّين الفرس من جهة ثانية، الذين كانوا قد فرضوا سلطتهم على فارس، وهم من غلاة الشيعة، فجعلوا مذهبهم الدين الرسميّ للدولة. وقد اتّهم سليم الأوّل العثمانيّ السلطان قانصوه الغوريّ المملوكيّ (١٥٠٠ ـ ١٥١٦) بعقد معاهدة مع شاه الصفويّة ضدّه، وبأنّه ألجأ إلى مصر بعض السياسيّين المناهضين للسلطنة العثمانيّة.

أرسل قانصوه إلى سليم الأوّل رسولاً بقصد التوسّط بين العثمانيّين والصفويّين، فما كان من سليم إلاّ أنْ أمر بحلق لحية الرسول المملوكيّ، وبإعادته على حمار أعرج، حاملاً إلى سيّده ردّاً مفاده: إعلان الحرب.

وفي ٢٤ آب (أغسطس) ١٥١٦. التحم الجيشان في مرج دابق، شمال حلب. فلعبت خيانات المماليك، من قادة وولاة، دوراً فعّالاً في سرعة انهزامهم. وكان الجيش العثمانيّ، وجلّه من الإنكشاريّة[٢]، يستخدم الأسلحة الحديثة من

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥

٢ ـ الانكشارية، كلمة تركية، تعني: الجيوش الجديدة، وهي تسمية أُطلقت على فرق المشاة التي كانت تتألف بغالبيتها من شبان مسيحيين أسروا في الحروب، وقد تمّ أكثر الفتوحات العثمانية على أيديهم.

بنادق ومدافع، بينما جيش المماليك من بدو وسوريّين، لا عهد له بمثل هذا السلاح. وفي صميم المعركة، أُصيب قانصوه بسكتة قلبيّة وهو على جواده. فتمّ بذلك النصر للسلطان سليم، الذي اعتقل الخليفة العبّاسيّ، وأخذه إلى القسطنطينيّة. وفي تشرين الاول (أوكتوبر) اتّجه سليم إلى دمشق، فانتقلت بلاد الشام بسهولة إلى أيدي العثمانيّين. ورحّب الدمشقيّون وسواهم بالأسياد الجدد، على أنّهم المنقذون. ومن سورية زحف الجيش العثمانيّ جنوباً إلى مصر، حيث كان قد خلف قانصوه، عبده طومان باي، والتقى الجيشان في ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٥١٧ خارج القاهرة، فانهزم الجيش المصريّ، وهرب طومان باي إلى مضرب للبدو، لكنّه سُلِّم غدراً وشُنق في ١٧ نيسان (إپريل) على أحد أبواب القاهرة[١]... أمّا الحجاز بمدينتيه، فقد أصبح جزءاً من الأمبراطوريّة العثمانيّة، وأصبح الواعظون يبتهلون إلى الله من أجل «السلطان ابن السلطان، مالك البرّين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفّر سليم شاه[٢]».

وهكذا بدأ عهد الأتراك العثمانيّين في تاريخ العرب والإسلام.

***

تمكّن العثمانيّون من جعل الدين الإسلاميّ سنداً للدولة، وأداة بيد السلطة. فبأسرهم لآخر الخلفاء العبّاسيّين، أصبح السلطان هو الذي يعيّن الرؤساء الدينيّين ويقيلهم، ولم تكن سلطة هؤلاء لتتميّز عن سلطة موظّفي الدولة. وكانت سلطة السلطان العمليّة، بيد الصدر الأعظم، أي الوزير الأكبر، أو رئيس الوزراء، يليه مُفتي العاصمة، الشخصيّة الثانية في الدولة، فهو مفسِّر الشريعة الدينيّة الإسلاميّة. وبعد احتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ تقدّم مُفتي العاصمة على زملائه في

---

١ ـ راجع: القرماني، أخبار الدول وآثار الاول، (بغداد ١٢٨٢) ص ٢١٩ ـ ٢٢٠؛ IBNIYAS, ed: Paul kahle (Istanbul 1932) Vol. V

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٩٩

الولايات، فصار يُلقب بشيخ الإسلام. على أنّ سلطة المفتي لم تكن ثابتة في جوهرها، لأنّه كان بوسع السلطان في أي لحظة أن يعزله أو أن يعدمه. وكان اجتهاد القضاة يرتكز على الشريعة الدينيّة الاسلاميّة، وعلى المذهب السنّيّ، بعد فتوى المفتي. وهكذا احتوت الدولة العثمانيّة صلاحيّات الخليفة... «أمّا الادّعاء بأنّ الخليفة (العبّاسيّ الأخير الذي اعتقله السلطان سليم وأخذه إلى القسطنطينيّة) أوصى بمنصبه الرفيع إلى السلطان العثمانيّ، فحكاية من مولّدات القرن التاسع عشر». والثابت أنّه بعد زمن من أسر الخليفة، وهو المتوكّل، إتُّهم بأنّه أساء استعمال الأموال الموقوفة، وألقي في غياهب السجن. «ثم أُفرج عنه، فعاد إلى القاهرة حيث توفّي سنة ١٥٤٣...» وإذا كان يصعب تأريخيّا إثبات قضيّة تنازل المتوكّل عن الخلافة للسلطان سليمان الذي خلف السلطان سليم، فضلاً عن أنَّها قضيّة ليست على شيء من الأهميّة، فالواقع هو أنّ السلطان العثمانيّ، أقوى حاكم إسلاميّ، شرع تدريجاً بممارسة واجبات الخلافة وحقوقها، حتّى اعتُرف له بصورة طبيعيّة بأنّه خليفة المسلمين. ولمّا بعث السلطان سليمان إلى شريف مكة، زين الدين بن بركات، برسالة أخبره فيها عن وفاة السلطان سليم، وذكر أنّه تسنّم سدّة السلطنة بعده، وأنّه أصبح «مستقرّ الخلافة». فإن شريف مكّة في جوابه على الرسالة، هنّأ السلطان على تسنّمه العرش، وعلى «منصب الخلافة بعناية الله». وكان شريف مكّة السابق، قبل هذا التاريخ، قد سلّم السلطان سليم مفاتيح الأماكن المقدّسة وشارات أخرى للخلافة، إضافة إلى الشارات التي استلمها السلطان من الخليفة المتوكّل، ومنها البردة، والذخائر النبويّة، وهي العصا والخاتم والحذاء والسنّ وخصلة من الشعر، وقد أُودعت هذه السراي الكبير في استنبول. وأوّل مستند دبلوماسيّ يشير إلى أنّ السلطان، هو خليفة المسلمين، إنّما هو ما ورد في معاهدة كوتشك كينارجي بين الأتراك والروس، المعقودة سنة ١٧٧٤[1].

---

١ - راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، ٤٣٢ - ٤٣٣؛ فريدون باي، مجموعة منشآت السلاطين، (استنبول ١٢٧٤) ص ٥٠٠ وما يليها.

وسواء كان السلطان العثمانيّ، خليفة شرعاً، أم لم يكن، فإنّ الحكم العثمانيّ كان بعيداً، عملياً، عن الشرع الإسلاميّ الأصيل. فقد كان رعايا السلطان، جميعاً، بمن فيهم أصحاب المراكز في الدولة، عبيداً للسلطان، ويُعرفون رسميّاً بهذه الصفة. وكان كابوس العثمانيّين ثقيلاً على الشرق عامّة، وعلى الأقلّيات الدينيّة خاصّة. فقد كان عهدهم عهد انحطاط إقتصاديّ واجتماعيّ وثقافيّ وسياسيّ، وكان نسيجاً من المظالم والخيانات والمجازر والحروب[1]. وإذ كانت معاناة أهل السنّة، أقلّ من تلك التي عاناها أبناء سائر الطوائف في العهد العثمانيّ، سواء كانت تلك الطوائف إسلاميّة أم غير إسلاميّة، فإنّ التأثير السيّئ الذي خلفه العثمانيّون على الإسلام، لا يمكن تجاهله.

فلمّا وصل الأتراك في فتوحاتهم إلى الآستانة في أواخر القرن الخامس عشر، كانت قد انفتحت في أوروبّة ثلاثة أبواب للمدينة الحديثة: الأوّل فتحه لوتيروس في ثورته على الكنيسة والبابا، والثاني فتحه غوتمبرغ في اختراعه حروف الطباعة، والثالث فتحه كولومبس في اكتشافه أميركا. وبينما كانت هذه «الأنوار المدنيّة» الغربيّة تستمرّ في التقدّم والارتقاء، كان الشرق الأدنى يتخبّط في الظلمات، فيهبط من دركة إلى اخرى... فقد أخّرت الإسلام والمسلمين شعوب آسيوية همجية، دخلت هذا الدين العربيّ، ولم يدخل في نفوسها إلاّ القليل القليل من فضائله. فظلّت على فطرتها الهمجيّة[2]»...

وبنهاية الدولة العثمانيّة في العام ١٩١٨، يطرأ تحوّل أساسيٌّ آخر في تاريخ الإسلام، إذ ينتقل من عهود الخلافة والأمبراطوريّات، إلى عهود الدول الحديثة.

---

١ - راجع: بولس، التحولات، ص ٣١٩ - ٣٢٠؛ و Lammens, La Syrie, précis Historique, II, PP. 61.

٢ - راجع: بولس، التحولات، ص ٣٢٠ - ٣٢١؛ أمين الريحاني، النكبات، ص ١٠٧ - ١١٥ و ١٢٨ - ١٢٩

الفصل السادس

أهل السنّة اليوم

- في نظام الدّول
- نشأة المذاهب
- المذاهب والدُّول
- في الوقت الحاضر



كان سقوط الدولة العثمانيّة، عقب انتصار الحلفاء على ألمانية سنة ١٩١٨ ،منعطفاً جذرياً في مسار التاريخ الإسلاميّ. فمنذ ذلك التاريخ، لم يعد هنالك خلافة، لا شرعيّة، ولا مُصادرة. فلأوّل مرّة في تاريخ الإسلام، لا يكون هنالك دعاء، لرمز، هو خليفة للرسول على الأرض. بل أصبح الدّعاء، في كلّ دولة، لرئيس الدولة. وهذا ما ليس من سنّة أهل السنّة في الإسلام. بيدَ أنّ ما حصل، كان أصعب مّما يمكن رفضه. ففي هذا العالم، القرار للقوّة، والحلفاء كانوا الأقوى على مدى حربين عالميّتين، بعدهما، بدأت مرحلة جديدة بكليَّتها، تختلف تماماً عمّا قبلها، لتسود هذا الشرق الذي يتوسّط آسية وإفريقية وأوروبّة: الشرق الأوسط... حيث تحوّلت الولايات إلى دول، وتحطّمت الخلافات والسلطنات والممالك.

وهنا، بات أهل السنّة يعانون التناقض بين ما هو كائن، وما يجب أن يكون. فإنَّ «الدعوة المحمّدية لا تعرف الوطنيّة... بالمعنى الحديث. فوطن المسلم ليس له حدود جغرافيّة، هو يمتدّ مع العقيدة، بل هو في الحقيقة وطن معنويّ كما أنّ الدين أمر معنويّ. والمسلم أخو المسلم أينما كان، جاوره أم تباعدت به الأرض، والمسلم أينما حلّ في دولة إسلاميّة فقد حلّ في وطنه[1]».

هذا ما يجب أن يكون في مفهوم السنّة، أمّا ما هو كائن، فهو عكس ذلك تماماً. إذ بموجب أنظمة الدول، ما عاد «بوسع المسلم» أن يكون «أينما حلّ في دولة إسلاميّة قد حلّ في وطنه...».

وباعتبار أهل السنّة، أنّ «ولاء المسلم لا يمكن أن يكون إلاّ للأمّة الإسلاميّة، فلا قيمة للوطن إلاّ بارتباطه بالديّن، ولا ولاء لوطن إلاّ بقدر ولائه للإسلام[2]». ولكن، أين الواقع من هذا الذي يجب أن يكون؟ ذلك أنّ نشوء الدول، بعد عهود الخلافة، قد حال دون تطبيق هذا الاعتبار، وصار على كلّ إنسان، مواطن في دولة، أن يمنح هذه الدولة ولاءه، على أنّها وطنه.

---

١ - زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، (بيروت ١٩٧٢) ص ٤٣ ـ ٤٤

٢ - صبحي الصالح، النظم الاسلاميّة، ص ٢٥٥

ثمَ إنّ الشريعة عند أهل السنّة، هي «مجموعة القوانين الإلهيّة التي إذا تقبّلها إنسان، أصبح مسلماً، والمسلم هو الإنسان الذي يُطيع أوامر الشريعة باعتبارها أوامر مُلزمة... إنّ الشريعة هي القانون الإلهيّ، بمعنى أنّها تجسيد لإرادة الله التي ينبغي للمرء أن يعيش بموجبها في حياته الخاصة وحياته الاجتماعيّة. ومشيئة الله تظهر في كلّ دين من الأديان بصورة ما، وجميع الوصايا الروحيّة المتضمّنة في كلّ دين هي من أصل سماويّ، أمّا في الإسلام فإنّ تجسّد المشيئة الإلهيّة ليس مجموعة تعاليم عامّة، بل تعاليم محدّدة ملموسة. فالشريعة لا تأمر الإنسان أن يكون محسناً، أو متواضعاً أو عادلاً، بل إنّها تعلّمه كيف يكون محسناً ومتواضعاً في حالات وفي ظروف معيّنة، أي أنّ الشريعة لا تكتفي بالأمر، بل تعلن أيضاً السبيل، أي الطريقة... إنّ الشريعة تشمل وصايا الإرادة الالهيّة كما ينبغي لهذه الوصايا أن تطبّق، في كلّ ظرف من ظروف الحياة. إنّها الشريعة التي أرادها الله لكلّ مسلم كي يحيا حياته بموجبها. إذن، هي الدليل والمرشد في كلّ عمل من أعمال البشر. وتتناول كلّ ناحية من نواحي حياة الإنسان، فإنّها الدليل على أنّها تقدّس الحياة، وتسبغ على كلّ عمل يقوم به الإنسان صبغة دينيّة مهما يكن هذا العمل دنيوياً عاديّاً بسيطاً[1]» من هنا، يضحي «القرآن الكريم مصدر الشرع ودليل حياة الإنسان الواقعيّة، ومصدر المعرفة التي تستأثر بالحياة العقليّة الفكريّة. وهو (القرآن الكريم) عالم قائم بذاته، يحدّد الإطار الماديّ والاجتماعيّ الذي يكتنف الإنسان، عالم يقرّر حياة الإنسان، صيرورتها، ونضجها، وقوّتها، ومصيرها، بعد الموت[2]». وهكذا فإنّ «فصل السياسة عن الدين مناقض أساساً للإسلام، وعزل الاسلام عن المجالات الانسانيّة الأُخرى (غير الدينيّة) هو بمثابة اعتراف بسلطة جديدة غير سلطة الله في منأى عن الإيمان المطلق، ممّا يُعتبر مناقضاً لمبدأ التوحيد، إذ لا يمكن توحيد المجتمع إلاّ باسم الإسلام وبواسطة شخص متمتّع بالصفات الدينيّة[3]».

١ ـ الدكتور سيّد حسين نصر، الاسلام أهدافه وحقائقه، الدار المتحدة للنشر (بيروت) ص ٨٧
٢ ـ الدكتور سيّد حسين نصر، ص ٦١ ـ ٦٢
٣ ـ أيان ريشار ـ نائب مدير قسم الدراسات الايرانية في المؤسسة الفرنسية في طهران، «الحوادث» العدد ١١٦٣ الجمعة ١٦/٢/١٩٧٩ ص ٦١

... فأين الواقع من هذا الذي يجب أن يكون؟! فإنّ الدولة، بالمفهوم الصحيح والقويم والصريح لأهل السنّة، هي غير الدولة القائمة، ذلك أنّ «المسلم المسلم، لا يمكن أن يقف من الدولة موقف اللاّمبالي... وإنّ إقامة الدولة، كما يقول مفكرو الإسلام، والاضطلاع بالحكم والسلطة، جزء ضروريّ من الإسلام، لا يقوم إسلام المسلمين إلاّ به. والمسلم، من حيث المبدأ، لا يمكن إلاّ أن يكون ملتزماً بما يفرضه الإسلام عليه، ومن ضمنه قيام دولة الإسلام. وهكذا كان منذ الفتح الإسلاميّ... حتّى سقوط الدولة العثمانيّة[1] ».

هذا المفهوم الواضح للدين الإسلاميّ، الذي يُعتبر «دين حياة ودين اجتماع ودين اقتصاد ودين وطنيّة[2] »، لا يقبل المساومة... وفي المفهوم الإسلاميّ «ليس هناك من مساواة بين المسلم وغير المسلم. فإنّ ـ غير المسلمين ـ تقتصر حرِّيَّتهم في المجتمع الإسلاميّ على حرِّيَّة الضمير، وحرِّيَّة الاحتفاظ بدينهم ضمن حدود الشرع الإسلاميّ، وليس بمقتضى أيَّة حقوق إنسانيَّة من شأنها أن توجب المساواة بين المسلم وغير المسلم. وكلّ من ليس مسلماً، بوسعه أن يعتنق الإسلام، ولكنّه لا يحقُّ لأيّ مسلم أن يترك الإسلام، وإذا فعل، حُكم عليه بالإعدام. وفي الدولة المسلمة، لا يحقُّ لغير المسلم بأن يشترك في المناصب الرسميّة في الدولة، حيث يمارس المسلم واجباته الدينيّة علانيّة، بينما ليس لغير المسلم الحقوق نفسها في هذا المجال. فحرِّيَّة العبادة عند غير المسلمين يجب ألاّ تنال من الشعور الدينيّ لدى المسلمين[3] ...».

هذا الذي يجب أن يكون، ولكن كيف يكون هذا في عهد أنظمة الدول، وفي عهد أنظمة منظّماتها العالميّة، حيث شرعة حقوق الإنسان تقول بعدم جواز التفريق في حقوق الإنسان نسبة إلى جنسه أو دينه أو لونه، وبأنّ «الرجل والمرأة، متى بلغا سنّ الزواج، حقّ لهما التزوّج وتأسيس أسرة دون أيّ قيد بسبب

---

١ ـ حسين القوتلي، (مدير دار الافتاء في لبنان) جريدة «السفير» البيروتية في ١٩٧٥/٨/١٨

٢ ـ الشيخ حسن خالد، (مفتي الجمهورية اللبنانية)، المسلمون في لبنان والحرب الاهلية، دار الكندي (بيروت ١٩٧٨) ص ٢٤

٣ ـ عبد الحميد الأحدب، جريدة "Le Reveil" البيروتية، في ١٩٧٧/٧/١٣

الجنس أو الدين، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله[١] »
وفي الوقت الذي « يُعطي الشرعُ المسلم الحقّ في أن يتزوّج من مسيحيّة، فهو يمنع المرأة المسلمة من أن تتزوّج من غير المسلم[٢] »... وهكذا، فإنّ المساواة التي تُعتبر أساس الدولة المعاصرة، تبدو مشكلة. فهناك فوارق عميقة جدّاً بين المرأة والرجل، وبين السليم والمريض، وبين المتعلّم والجاهل « وبين المسلم وغير المسلم، بحيث يصعب الحديث عن المساواة[٣] ».

ليست التعقيدات التي ذكرنا، في مجال الإشارة إلى العوائق العميقة التي تحول دون توافق أهل السنّة مع نظام الدولة الحديثة في العصر الراهن، سوى أمثلة بسيطة لواقع شامل، فيه التناقض على أشدّه، بين فكرة الدولة الحديثة، وشريعة أهل السنّة ومفهومهم للدولة.

لهذا، فإنّ أهل السنّة، يعتبرون نشوء الدول الإسلاميّة في الشرق الأوسط على الشكل الذي نشأت عليه، إنما هو من صنع الاستعمار الغربيّ. فقد كانت « المناطق العربيّة (بنظر أهل السنّة) تحت سيطرة دولة واحدة هي الخلافة العثمانيّة، فكان العالم العربيّ كلّه يعيش في شبه وحدة ويخضع لشبه نظام واحد، وقانون، ولغة، وعقيدة، وأماني، وتاريخ، وآلام... كان يعيشها كلّها بشكل واحد. حصلت الحرب العالميّة الأولى، وهُزمت الخلافة، وتقاسم العالم المنتصر من الدول الحلفاء بلدان الجسم المريض... ولكن لم يكن بإمكانهم أن يغيّروا ما حصل، أملاً بأن يأتي يوم آخر يكون أبرك من هذا اليوم، وظرف أحسن من هذا الظرف، لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً[٤] ».

وكان المسلمون، قبل انهيار الدولة العثمانيّة، قد بدأوا يميلون الى مبدأ

---

١ ـ ميشال غريّب، الطائفة والاقطاعية في لبنان، (بيروت ١٩٦٤) ص ١١٢
٢ ـ عبد الحميد الاحدب، جريدة "Le Reveil" البيروتية، في ١٩٧٧/٧/١٣
٣ ـ أيان ريشار، «الحوادث»، العدد ١١٦٣، الجمعة ١٩٧٩/٢/١٦ ص ٦١
٤ ـ الشيخ حسن خالد، ص ١٢٥ ـ ١٢٦؛ راجع: طوني مفرّج، حرب الردّة، دار الجريدة (بيروت ١٩٧٩) ص ٢١ ـ ٦٠

القوميّة العربيّة، على اعتبار وجوب التحرّر، على أساسه، من النير العثمانيّ، والإبقاء على الوحدة الإسلامية السنّيّة. ومع انهيار الدولة العثمانيّة، مثلما انهارت، وحلول نظام الدول مكانها، على يد الاستعمار، فقد تحوّل الهدف من العروبة والقوميّة العربيّة، إلى وحدة، لم تعد موجودة، والى استعادة نمط الخلافة. ذلك أنّ الإسلام باعتبارهم، «هو في الواقع ديانة القوميّة العربيّة... وإنّ هذين المفهومين: الإسلام والقوميّة العربيّة، هما واحد. في السياسة يقولون إنّ الإسلام يمثّل شطراً كبيراً من العروبة، وليس هذا سوى تساهل من قبل الساسة، في الواقع لا فرق بين الاثنين، ويجب أن يكون الأمر كذلك. ولا بدّ للوحدة من أن تأتي يوماً[1]». «وإذا قال أحدنا الجامعة العربيّة، فإنّما يعني جامعة إسلاميّة روحها العروبة، وإذا قال الجامعة الإسلاميّة، فإنّما يعني عربيّة روحها الإسلام، وكلّ قول ينابذ هذا القول خطأ. وكلّ نزعة تخالف هذه النزعة شعوبيّة خسيسة[2]» فالإسلام «هو من صلب العروبة، وإنّه لا معنى للقوميّة العربيّة إلاّ أنّها نواة الأمّة الإسلاميّة[3]».

بيدَ أنّ فكرة العروبة، التي يهدف أهل السنّة من خلالها إلى إعادة الأصول لعهود الخلافة الإسلاميّة، تصطدم بمعوقات كبرى، ليس أقلّها أنّ الأسباب الأساسيّة التي أوصلت المسلمين الأقدمين إلى ما وصلوا إليه من قوّة ومجد، في صدر الإسلام، وصنعت منهم أبطالاً وعمالقة، في ميادين الحرب والسياسة، هي أسباب غير متوافرة بكاملها لدى الشعوب العربيّة والمستعربة في الزمن الحاضر[4]. ومن دون تعداد تلك الأسباب، فمن الواضح أنّ مسألة عودة عهود الوحدة الإسلاميّة

---

١ ـ عمر فرّوخ في Theodor HNF, ERZICHIJNGSWESEN: Gesellscmaft Und-politik Des LEBANON, Bertelsmann Universitalsverlag, 1970: interview dre. docteur Omar Far rookh

٢ ـ الدكتور اسماعيل مظهر، مجلة المقتطف، نيسان ١٩٤٥

٣ ـ المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز في أول خطاب له لدى منظمة الامم المتحدة عندما كان وزيراً للخارجية في المملكة. النص في: سلسلة القضايا اللبنانية ـ الحلقة ٢١ ـ ملاحظات حول مشروع ورقة عمل المؤتمر الاسلامي، نيسان (أبريل) ١٩٧٧ ص ١٩ ـ ٢١.

٤ ـ بولس، التحولات، ص ٣٦٨

الشرق أوسطيّة في ظلّ قيادة خليفيّة، لا تبدو قريبة المنال في الوقت الحاضر، حيث يتوزّع المسلمون السنّة على مجمل دول الشرق الأوسط، مشكّلين أكثريّتها المطلقة، وهم على أربعة مذاهب.

نشـــــــــأة المذاهب[1]

«يسمّى العلم الذي يعنى بالشريعة الإسلاميّة علم الفقه. ولفظة فقه تعني الفهم والإدراك. وهو العلم الذي وضع أصوله الإمام الشافعيّ (٧٦٨ ـ ٨٢٠م). والعلم الذي يعنى بغيره من العلوم يطلق عليه لفظة علم، وتعني المعرفة بالشيء. وسُمّي الفقه فقهاً لأنه يتطلّب قدراً كبيراً من الموهبة العقليّة وحسن الإدراك... وإنّ الغاية من الفقه بنظر الشافعيّ، وبنظر زملائه من الفقهاء، هي تنظيم العلاقة بين الإنسان وخالقه (وهي العبادات) وبين الإنسان نفسه وسائر الناس (وهي المعاملات). فالفقه من هذه الناحية يشمل علم الدين (اللاّهوت) وعليه فإنّ الفقهاء ظهروا قبل علماء الدين زمنّياً. يتناول علم الفقه الشامل أحكام الفروض الدينيّة والعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحجّ، كما أنّه يتناول وضع القوانين الجزائيّة والمدنيّة، حتّى إنّه يتعدّى هذه الأمور فيتناول قوانين السلوك والأخلاق والآداب العامّة. وهكذا يقسّم الفقه كل أعمال الإنسان إلى حلال وحرام، وإلى ما يقع في درجات متفاوتة بين الفئتين من الأعمال. والحلال قد يكون فرْضاً نصّ عليه القرآن الكريم، أو أَوجبته السنّة، أو فعلاً مستحبّاً ورد في السنّة. وإلاّ فيكون العمل مكروها أو حراماً. ثمّ هناك طائفة أخرى من الأعمال المباحة، وهناك المباح[2]».

قبْل الشافعيّ، كانت قد برزت شخصيّتان في حقلَي الفكر والدين، في خضمّ تضارب الآراء الفقهيّة في الإسلام، هما: الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٦٩٩

١ ـ راجع: الفصل الرابع من هذا الكتاب، فقرة «السنّة وأهلها» ص ١٤٣.
٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

ـ ٧٦٧) في الحقل الفكريّ، والثاني هو مالك بن أنس (٧١٨ ـ ٧٩٦) في الحقل الدينيّ.

كان أبو حنيفة مولى من أصل فارسيّ، نشأ في الكوفة، دون أن يكون في بادئ أمره فقيهاً أو قاضياً، بل كان تاجر حرير. أمّا مالك بن أنس، فقد كان فقيهاً وعالماً دينيّاً في المدينة. وهكذا فقد كان أبو حنيفة عالماً يُعنى بالنظريّات، وأمّا مالك فعالمٌ دينيّ يمارس القضاء. وقد نشأ حول كلٍّ من هاتين الشخصيّتين حلقة من طلاّب العلم. وكانت حلقة مالك أوسع من حلقة أبي حنيفة. علماً بأنّ أحداً منهما لم يضع مذهباً خاصّاً به. حتى إنّ صاحب المدرسة العراقيّة، أبا حنيفة، لم يضع كتاباً في الفقه، بل كلّ ما حُفظ عنه وانتشر من آراء فقهيّة، كان عن طريق طلاّبه، وأشهرهم أبو يوسف، الذي أصبح قاضياً عند الرشيد، وله كتاب «الخراج». وأصبح مذهب أبي حنيفة معروفاً بالمذهب الحنفيّ، وهو أوّل المذاهب السنّيّة الأربعة، وقد احتلّ المرتبة الأولى بينها.

أما مالك بن أنس، فقد وضع كتاباً بعنوان «الموطأ» وهي أولى محاولات وضع دليل مختصر في الفقه بين أيدي المسلمين، يعبّر عن وجهة نظر أهل المدينة، موطن الصحابة، حيث نشأ الحديث.

ومما ميّز المذهبين، أن المذهب الحنفيّ قد اعتمد القياس والرأي[1]، بينما المذهب المالكيّ اعتمد الحديث. ذلك أنّ أبا حنيفة لم تكن له صلة بالمدينة ليتأثّر بالحديث والسنّة، بل كان، بحكم موطنه البعيد عن موطن السيرة والحديث، يأخذ بالاستحسان والقياس، لخير المجتمع ونفعه.

«واشتدّت المنافسة بين المدرسة العراقيّة (الحنفيّة) والمدرسة الحجازيّة (المالكيّة) وكثرت الاتّهامات الباطلة التي لا نجد لها مبرّراً. فإنّ المذهب الحنفيّ كان يضع شروطاً محدّدة معيّنة للرأي، كما أنّ المذهب الحجازيّ كان يضع شروطاً للحديث. وبالرغم من أنّ المذهب الحنفيّ كان عموماً يبدو أكثر تحرّراً وانطلاقاً من

---

١ ـ راجع: الفصل الرابع من هذا الكتاب، فقرة «السنّة وأهلها» ص ١٤٣

المذهب المالكيّ، فإنّ الفروقات بين المذهبين قليلة ودقيقة بحيث أنّه يصعب على الدارس ان يكتشفها[1] ».

وجاء الشافعيّ، فأقرَّ أوّلاً الرأي القائل بأنّ «القرآن غير المخلوق هو كلام الله، فهو المصدر الأخير للتشريع كلّه، وبأنّ مصادر الشريعة الأخرى ثانويَّة ومكمِّلة وأكثرها مستمدٌّ من المصدر الاوّل. فكلّ قانون وكلّ شرع مصدره القرآن نصّاً أو ضمناً». ثمّ رأى أنّه ينبغي تدارس القرآن وتلاوة صلواته باللّغة العربيّة دون سواها، بالاستناد إلى آياته[2]. حتى إنّه كان يعتبر كلّ عقد زواج يعقده الرجل المسلم لا يكون مكتوباً باللغة العربيّة، لاغياً. بينما كان أبو حنيفة يجيز تلاوة الفاتحة باللغة الفارسيّة. واعتبر الشافعيّ السنّة، بعد القرآن الكريم، من مصادر التشريع. والسنّة هي المأثور عن حياة الرسول وأخلاقه وأعماله غير التي جاءَ نصوص عنها في القرآن. وحدّد السنّة بأنّها «التصرّف أو السلوك الأمثل الذي سلكه النبيّ في حياته». إلاّ أنّه خالف المالكيّ في أخذ سنّة الصحابة والتابعين للانتفاع بها في وضع الأحكام. ووضع تشديدات صارمة للتثبُّت من صحّة كلّ حديث يُنسب إلى الرسول قبل وضعه في كتابه والأخذ به. وبذلك أصبح الحديث الثابت يرتقي إلى مرتبة الوحي والآية القرآنيّة، مع فارق أساسيّ، وهو «أنّه في القرآن الكريم يتكلَّم الله سبحانه، أما في السنّة، فالذي يتكلم هو النبي والقرآن وحيٌ معنى وحرفاً، وأمّا السنّة فوحيٌ معنى فقط[3] ».

وهكذا فقد كان للشافعيّ الفضل في وضع الحديث الثابت في مرتبة القرآن كمصدر من مصادر التشريع الرئيسيّة. وله يعود الفضل في وضع أصول علم الحديث وأحكامه، وهو العلم الذي أصبح مستقلاً بذاته.

ومّما يجدر ذكره، أنّ الإمام محمّد بن إدريس الشافعيّ الذي وُلد في غزّة

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٣٣ - ٢٣٤

٢ - «إنّا أنزلناه قرآناً عربياً» (يوسف، ٢)؛ «وكذلك انزلناه حكماً عربياً» (الرعد، ٣٧)؛ «قرآناً عربياً غير ذي عوج» (الزمر، ٣٩)

٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٤٢

سنة ٧٦٨، وانتقلت به أمّه إلى مكّة، وهو طفل، إثر موت أبيه، كان قرشيّاً من ذريّة عبد المطّلب بن عبد مناف، وتلقّى علومه الأولى في الدين بمسجد الحرام، والعربيّة وعاداتها في مضارب القبائل البدويّة. ثمّ تعمّق في العلوم الدينيّة على يدي ابن أنس، في المدينة، ثمّ انتقل إلى اليمن حيث عمل في مركز رسميّ، وحيث اتُّهم بأنّه «علويّ» وكاد أن يُعدم، ولكنّه عرف كيف يردّ عنه التهمة أمام الرشيد، فعفا عنه بعد أن كان قد جلبه أسيراً إلى بغداد. وفي بغداد، إتّصل بطلاب أبي حنيفه وأتباعه. ثم عاد إلى الحجاز، ومعه حمْل جَمل من الكتب، وشغل مدرّساً في الحرم المكّي لمدّة تسع سنوات، ثمّ انتقل إلى بغداد، بهدف وضع مذهبه الجديد. وهناك، رأى فيه الناس إماماً غير منازع، وعالماً دينيّاً رائداً. وقد اتّسعت حلقة طلاّبه بسرعة، وكان من بينهم حنفيّون ومالكيّون على السواء، إضافة إلى الجماعة التي لم تكن بعد قد اعتنقت مذهباً معيّناً. وفي بغداد، أصدر الشافعيّ النسخة الأولى لما أصبح يعرف فيما بعد بـ «الرسالة» التي تُعتبر أقدم مؤلّف يعنى بالفقه الإسلاميّ. وكانت الرسالة سبباً في انتشار صيته إلى أقاصي العالم الإسلاميّ. وأضاف شهرة إلى شهرته قيامه بزيارة الأقطار الشاميّة، حيث كان له أصدقاء. ولسببٍ نجهله، غادر الشافعيّ إلى مصر عام ٨١٥، حيث استُقبل من قبل المصريّين بما لم يُعهد من الاحتفاء والتكريم في مثل هذه الحالات. وقضى الشافعيّ آخر خمس سنوات من عمره في الفسطاط، حيث كان يلقي دروسه في مسجد عمرو بن العاص، قبل أن توافيه المنية بعد مرض قصير، سنة ٨٢٠[١].

وكان من جملة تلامذة الإمام الشافعيّ في بغداد: ابن حنبل، الذي كان من أشدّ الطلاّب تحمّساً للشافعيّ. ويُروى عن ابن حنبل قوله: «لقد ظلّ الفقه علماً مغلقاً حتّى جاء الشافعيّ بمفتاح له». ويُروى أيضاً عن ابن حنبل أنّه قال: «يُروى عن النبيّ (صلعم): ـ أنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مئة سنة من يقرّر لها

---

١ ـ للاستزادة من سيرة الامام الشافعي، راجع: ابن أبي حاتم، أدب الشافعي ومناقبه، نشر عبد الغني عبد الخالقة. (القاهرة ١٩٥٣)؛ محمد بن عمر الرازني، مناقب الامام الشافعي (القاهرة ١٢٣٧)؛ فيليب حتّي، صانعو التاريخ العربي، دار الثقافة، (بيروت ١٩٦٩)؛ أبو الفرج ابن الجوزي، تلبيس ابليس. نشر محمد منير الدمشقي، (القاهرة ١٩٥٠)

دينها... فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المئة الاولى. ويكون الشافعيّ على رأس المئة الأخرى».

غير أنّ ابن حنبل عدل عن المذهب الشافعيّ، واستقلّ برأيه وأصبح فيما بعد مؤسّس المذهب السنيّ الرابع: المذهب الحنبليّ.

وهكذا أصبح لأهل السنّة، مذاهبهم الأربعة، وكلّ منها معروف بالمذهب ١ - الحنفيّ، ٢ - المالكيّ، ٣ - الشافعيّ، ٤ - الحنبليّ.

المذاهب والدول[١]

يمكن اختصار تعريف المذاهب السنّية الأربعة بالتالي:

المذهب المالكيّ: وهو مذهب أهل الحديث، أو أهل المدينة. وقد انتشر هذا المذهب في إفريقية باستثناء منطقة مصر السفلى. ويقبل مالك «الرأي» شرط أن يستند إلى إجماع علماء المدينة، كما يقول بمبدأ «الاستصلاح» أي وضع مصلحة الأمّة أو منفعتها في الاعتبار إذا كان ظاهر السنّة مخالفاً لها. نسبةُ مُعتنقي هذا المذهب من أهل السنّة تقدّر بحوالى ١٩ بالمائة من المجموع.

المذهب الحنفيّ: وهو مذهب أهل الرأي أو أهل الكوفة. يوسّع هذا المذهب باب الاجماع إذ لا يجعله مقتصراً على أهل المدينة. ويقول أيضاً «بالقياس»: أي تطبيق حلّ سابق على حالة طارئة مماثلة. كما يقبل «الاستحسان» أي جواز اختيار أوفق الحلول. وقد ساد هذا المذهب في آسية في المنطقة التركيّة، وكذلك في الهند والصين. نسبةُ معتنقي هذا المذهب من أهل السنّة تقدّر بحوالى ٤٢ بالمائة، وبذلك يكون أتباع المذهب الحنفيّ أكثر أهل السنّة عدداً نسبة إلى المذاهب الأربعة.

---

١ - للإستزادة في شؤون المذاهب، راجع: موسوعة الفقه الاسلامي (موسوعة عبد الناصر) القاهرة، صدر منها ١١ مجلداً؛ عبد الرحمن بدوي، مذاهب الاسلاميين (بيروت ١٩٧٣)؛ جواد مغنَية، الفقه على المذاهب الخمسة: السيّد السابق، فقه السنّة، دار الكتاب العربي (بيروت ١٩٧٧ - طبعة ثالثة) ٣ مجلّدات؛ معروف الدواليبي، المدخل إلى علم أصول الفقه (بيروت ١٩٦٥ طبعة خامسة).

المذهب الشافعيّ: وقد انتشر في إفريقية الشرقيّة والاستوائيّة وأندونيسية ومصر السفلى. وهو يضع للإجماع شروطاً: أن يكون بين علماء فترة معيّنة وعلى نقطة معيّنة مع عدم مخالفة القرآن والسنّة. وهو بذلك يقيّد «الرأي»، إلا أنّه يعترف بمبدأ الواقعيّة العمليّة، الذي أدّى فيما بعد إلى تطوّرات لم تكن متوقّعة، مثل الاعتقاد بكرامات أولياء الله الصالحين، والتوجّه إليهم بالدعاء والتعبّد. نسبة معتنقي هذا المذهب من أهل السنّة تقدّر بحوالى ٢٨ بالمائة من المجموع.

المذهب الحنبليّ، أو مذهب ابن حنبل: وهو المصلح المُخْلص المولود في بغداد سنة ١٨٥٥، والذي ينتمي إلى مذهبه عدد من كبار المفكّرين والمصلحين، كما يقتدي به الوهّابيّون في شبه الجزيرة العربيّة. ويدعو هذا المذهب للعودة إلى القرآن والسنّة. أمّا «الرأي» فلا يُعمل به إلاّ عند الضرورة القصوى على الاّ يخالف «السلف الصالح» الذين هم خير ممثّلي الإسلام في أجياله الأولى.

نسبةُ معتنقي هذا المذهب من أهل السنّة تقدَّر بحوالى ٢ بالمئة فقط. وهي أقلّ نسبة عددّية بين معتنقي المذاهب الاربعة.

هذه المذاهب، مُعترف بها لدى جميع أهل السنّة، رغم ما بينها من فروق تتعلق في الغالب بمنهجيّة البحث. وعلى ذلك فلا ضير على المؤمن الذي ينتمي إلى مذهب معيّن، أن يختار الحلّ الذي يراه في مذهب آخر، شرط أن يقبل هذا الحلّ بكلّيته، وليس مجتزأً[1].

وكان قد ظهر في منتصف القرن الثامن الميلاديّ، مذهب آخر، لم يعش طويلاً، هو مذهب الأوزاعيّ، نسبة إلى الفقيه المشترع عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعيّ[2] المولود في بعلبك سنة ٧٠٧، والمتوفّي في بيروت سنة ٧٧٤. وقد عارض

١ ـ يواكيم مبارك، موجز عن الاسلام، منشورات الندوة اللبنانية. (بيروت ١٩٧٥) ص ٥٦ ـ ٥٩ و ١٠٤

٢ ـ تختلف الآراء حول أصل هذا النسب، بين قائل بأنه نسبة إلى قبيلة اوزاع اليمنية، إلى قائل بأنه نسبة إلى ضاحية دمشقية، راجع: ياقوت، معجم البلدان، ج ١ ص ٤٠٣؛ ابن الاثير، اللباب في تهذيب الانساب (القاهرة ١٣٥٧) ص ٧٤ ـ ٧٥؛ الطبري، ج ٣ ص ٢٥١٣؛ ابو الفداء، ج ٢ ص ٧

الأوزاعيّ الإمام مالكاً وأبا حنيفة، واستنكر ما أقرّاه من تدابير صارمة بحقّ المشركين، نظير قطع أشجارهم وهدم كنائسهم وتخريب بيوتهم[1]. وقد بقي المذهب الفقهيّ الذي وضعه الأوزاعيّ شائعاً في سورية نحواً من قرنين، قبل أن يكتسحه المذهب الحنفيّ والفقه الشافعيّ. وتوثّق أيضاً مذهب الأوزاعيّ في الأندلس والمغرب نحواً من أربعين سنة، ثمّ حلّ محلّه المذهب المالكيّ[2].

***

في الوقت الحاضر

نسبةُ أهل السنّة، إلى عموم عدد المسلمين في العالم، الذي يبلغ اليوم حوالى النصف مليار نسمة، هي بحدود التسعين بالمئة. فالمسلمون السنّة يمثّلون الأغلبيّة الساحقة اليوم في الإسلام. أمّا ما يجب الانتباه إليه، فهو أنّ الشعوب العربيّة، لا تمثّل إلاّ أقلّيّة في العالم الإسلاميّ، رغم ما تتمتّع به من منزلة دينيّة لا مثيل لها بين الشعوب الإسلاميّة. فالإحصاءات عامّة تفيد بأنّ عدد المسلمين في إفريقية يتجاوز المائة وخمسين مليوناً، وفي أوروبّة حوالى خمسة ملايين، منها ما يزيد على المليونين في يوغوسلاقية وحدها، وبضعة عشر ألفاً في بولندة والمجر، وما يقرب من مليونين في الأميركتين. وأكثر الجماعات الإسلاميّة كثافة يوجد في شبه القارّة الهنديّة، بين باكستان وبانغلادش، يُضاف اليهم حوالى ٦٠ مليوناً ما زالوا يعيشون في الجمهوريّة الهنديّة. وعدد مسلمي أندونيسية يتجاوز المائة مليون، وهي تُعَد من أكبر الدول الإسلاميّة عدداً في الوقت الحاضر. ثم تأتي مجموعات ثلاث، تكاد تكون متساوية في الأعداد، هذه المجموعات هي: الأتراك، ثلثهم فقط يعيش في تركية؛ والفرس، ربعهم في إيران؛ والعرب، وهم منتشرون في المنطقة التي تحمل اسمهم بين العراق وبلاد المغرب أو بين الخليج والمحيط. ويُقدَّر عدد

---

١ ـ الطبري، اختلاف الفقهاء، نشر Joseph schacht (Leyden 1933) ص ١٢١ و ١٤١

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ج ٢ ص ١٠٧ و ١٨٣ ـ ١٨٤

هذه المجموعات الثلاث (مجتمعة) بحوالى ٩٠ مليون نسمة من المسلمين. أمّا مجموعة الإفريقيّين، غير العرب، المتأثّرين بعروبة الإسلام، فهي تتراوح بين الخمسين والثمانين مليوناً. ويُقدَّر مجموع عدد المسلمين في أوروبّة الشرقيّة (الجمهوريّات السوڤياتيّة سابقاً: روسية، أذربيجان، جيورجية، أرمينية، كازخستان، تركمنستان، أوزبكستان، تدجيكستان، بلاد القرغيز، مونغولية) بحوالى أربعين مليونا[١].

في البلاد العربيّة، أغلبيّة العرب مسلمة (٩١ بالمائة) وأغلبيّة المسلمين تنتمي إلى المذهب السنّيّ (٨٤ بالمائة من جملة سكّان البلاد العربيّة و٩١ بالمائة من مجموع المسلمين). أمّا بقيّة المسلمين غير السنّة، فقد وصل عددهم في منتصف الثمانينات إلى حوالى ١٥ مليون نسمة (٨ بالمائة من جملة سكّان البلاد العربيّة) معظمهم من المسلمين الشيعة (١٠,٧ ملايين، أو ٥,٧ بالمائة من مجمل سكان البلاد العربيّة) يليهم العلويّون أو النصيريّة (١,٥ مليون) والخوارج الإباضيّة (١,٣ مليون) والدروز الموحّدون (مليون نسمة).

أمّا غير المسلمين، في البلاد العربيّة، فعددهم (١٥,٦ مليون، أو ٨,٢ بالمائة). في مقدّمة هؤلاء المسيحيّون على اختلاف طوائفهم، ويبلغ عددهم حوالى ثمانية ملايين (حوالى ٥ بالمائة من مجمل سكان الوطن العربيّ) وجلّهم من العرب، يأتي بعدهم اليهود، (٣,٦ ملايين أو ١,٩ بالمائة من مجمل سكان البلاد العربيّة) والديانات القبليّة الزنجيّة في جنوب السودان (٤ ملايين ـ أقل من ٢ بالمائة).

بالإستناد إلى هذه الإحصاءات التي جرت في منتصف الثمانينات، يكون عدد المسلمين السنّة في البلاد العربيّة في هذه الحقبة حوالى ١٦٠ مليون نسمة[٢].

---

١ ـ يواكيم مبارك، ص ٧٤ ـ ٧٦

٢ ـ راجع: الدكتور سعد الدين ابراهيم، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت ١٩٨٨) ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠؛ محمّد السّماك، الاقليات بين العروبة والاسلام، دار العلم للملايين (بيروت ١٩٩٠) ص ٢٠ ـ ٢٤

وفي جميع البلدان العربيّة، ما عدا لبنان[1]، نظريّاً، دين الدولة الإسلام. وجميع رؤساء الدول العربية، من أهل السنّة، أو ممّن اتّبعوا السنّة عند توليهم. إلاّ أنّ تطبيق الفقه في هذه الدّول، يتفاوت في النسبة بين بلد وآخر.

***

يقول باحث مصريّ متخصّص في الشؤون الإسلاميّة: إنّ ضرورة أن تكون «الدولة» في محيط الجماعة الإسلاميّة ومجتمعها «دولة إسلاميّة» فتلك حقيقة لا يجوز أن يماري فيها العقلاء. صحيح أن القرآن الكريم لم يجعل «الدولة» فريضة من فرائضه الإسلاميّة، وأنّ الإسلام لم يجعلها أصلاً من أصول الإيمان ولا ركناً من أركان الاحسان، لكنّ هذا القرآن الكريم فرض على المسلمين من الفرائض والواجبات الدينيّة ما يستحيل عليهم القيام به والوفاء بحقوقه إذا هم لم يُقيموا دولة الإسلام، ويحقّقوا إسلاميّتها[2]».

أمّا عن مصدر الدّولة، فيوضّح هذا البحّاثة السنّي المتخصص في الشؤون الإسلاميّة، «أنّ الأمّة الإسلاميّة هي مصدر «الدولة» تختار رأسها وأجهزتها الحاكمة بواسطة «أهل الاختيار» الذين يتحدّدون ويتعيّنون وفق المصلحة وأعراف الزمان والمكان، وعلى النحو الذي يقترب بـ «الوسيلة» من تحقيق «الغايات»، وهي ـ أي الأمّة الإسلاميّة ـ مصدر «تقنين» النصوص و«التشريع» لما لا نصّ فيه بواسطة «أهل الحلّ والعقد ـ أهل الاجتهاد»، وهي الرقيبة والحسيبة على الدولة وعلى مؤسّساتها وعلى سياستها، وصاحبة السلطة والسلطان في المحاسبة والتغيير، فهي ـ أي الأمّة ـ مصدر السلطات، المحكومة بمقاصد الشريعة وحدودها، فالحكم ـ في الدولة الإسلاميّة ـ هو لله، بواسطة الأمّة، المستخلفة من الله، وليس حكم فرد أو حزب يحتكر النيابة أو الخلافة عن الله».

---

١ ـ يبقى موضوع فلسطين (اسرائيل) خارج المعادلة. راجع الجزء الاول من هذه الموسوعة.

٢ ـ محمد عمارة، جريدة الحياة، (الاثنين ٢٥/١١/١٩٩١) العدد ١٠٥٢٠

ويبني البحّاثة نفسُه هذا الرأي «السنّي» في «مصدر الدولة» على أنّ الرسول ترك أمر اختيار الخليفة للأمّة، وكذلك عمر بن الخطاب.

والفكر الإسلاميّ السنّي، يرفض مبدأ أن تكون قيادة الدولة بأيدي رجال الدين، أو بأيدي الفقهاء، وينأى بالدولة الإسلاميّة عن قيادة من سمّاهم بـ«الكهّان»: «فإذا كانت دولة الرسول (صلعم) ولّت أبا سفيان بن حرب وابنه معاوية ولم تولّ عليّ بن أبي طالب ولا أبا ذرّ الغفاريّ وهو الذي قال عنه النبيّ (صلعم): ـ ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء رجلاً أصدق لهجة من أبي ذرّ ـ، ووضعت لواء القتال في الحكم واختيار الولاة شاهداً على أنّ ولاية المفضول ـ دينيّاً ـ إذا كان أفضل في مهامّ ولايته، هو دليل على انتفاء الكهانة واحتكار الكهنوت من منهج الحكم والسياسة في دولة الإسلام... فلو أنّ الخلافة، بعد انتقال الرسول (صلعم) إلى بارئه، أُعطيت لعليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه ـ وهو الجدير بها ـ لظلّ الحكم السياسيّ في بيت النبوّة الدينيّة. ولمثل ذلك، في يوم من الأيّام ولدى البعض، شبهة احتكار السلطة في منهج الإسلام وتطبيقاته. لكنّ الصحابة، على ما يبدو، وضعوا هذا الأمر... في اعتبارهم وهم يخرجون بالخلافة، يومئذ، من بيت النبوّة ومن الفرع الهاشمي».

إنّ هذا الموقف، يميّز أهل السنّة عن سواهم من المسلمين، الذين يدمجون بين الإمامة والقيادة أي: بين رئاسة الدولة ورئاسة الدين. ويستند هذا الرأي إلى ما اعتبره ابن خلدون من أنّ «لأهل النظر، مكانهم، لكنّه ليس مكان أهل التنفيذ[١]».

وعليه، فإنّ «المنهج الإسلاميّ (السنّيّ) أقام العلاقة الطبيعيّة الوثقى بين الدين، وبين الدولة، على النحو الذي لا تناقض فيه ولا تضاد، وعلى النحو الذي لا كهانة فيه ولا كهنوت...». فإنّ دولة أهل السنّة، «دولة إسلاميّة لا للشريعة الإسلاميّة ـ وهي وضع الهيّ ـ الحاكميّة في سياستها. وهي في الوقت ذاته دولة

---

١ ـ ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١

مدنيّة، لأنّها اجتهاد إسلاميّ في الفروع، محكوم فيها بمقاصد الشريعة الإسلاميّة وحدودها. فهي بهذا الوضع، نموذج فريد تفرّد به المنهج الإسلاميّ في الجمع والتأليف بين ما يمكن، ويجب جمعه وتأليفه من سمات وقسمات الأقطاب التي نظر إليها منهج الحضارة الغربيّة كمتقابلات ومتناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها، فضلاً عن المؤاخاة والتساند والتوفيق[١] ».

***

مهما يكن من أمر اعتبار الدولة، نظريّاً، لا شكّ في أنّ الأمّة، التي تعتبرها النظريّة، مصدر الدولة، ليست «الدولة» أو «الدول» نتيجة مشيئتها، ذلك أنّ الأمّة الإسلاميّة، تتوق إلى يوم كانت قيادة الإسلام واحدة، ودولة الإسلام واحدة. ومن الواضح أن استحالة التوصل إلى تحقيق رغبة الأمّة، تعود في أساسها، إلى الصراع على القيادة والسلطة والرئاسة و... الخلافة. ذلك الصراع الذي قسم، في البداية، دولة الإسلام إلى اثنتين، ومع استمراره صار الإسلام دولاً تعدُّ بالعشرات. فالأمّة الإسلاميّة، كسواها من الأمم، رغباتها شيء، وواقع أمرها شيء آخر. وما دامت السلطة هدفاً عند البشر، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، تبقى رسالات الأنبياء حنيناً الى ماضي وجودهم، وتوقاً الى تحقيق رسالاتهم. ويدغدغ السلطويّون في الناس حنينهم وتوقهم، ليتسلّطوا. ويبقى المستقبل بيد الله.

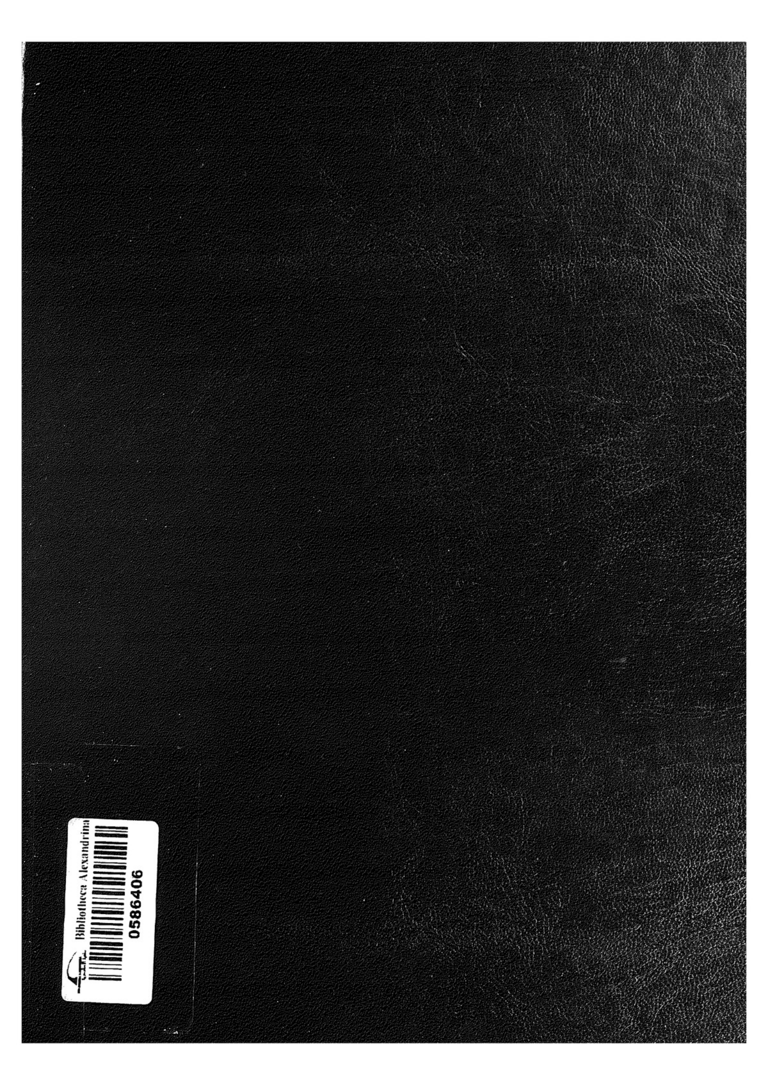
---

١ ـ محمد عمارة.








Bibliotheca Alexandrina
0586406